

آية الله
السيد محمد حسين فضل الله

قضايا إسلامنا
على
ضوء الإسلام

دار الـ

كافة الحقوق محفوظة للناسر

الطبعة السابعة

١٩٩٦م - ١٤١٦هـ

آية الله
السيد محمد حسين فضل الله

قَضَائِنَا
على
ضوء الإسلام

المركز الإسلامي الثقافي

مكتبة سماحة آية الله العظمى

السيد محمد حسين فضل الله العامة

الرقم 1250

دار الملاك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين وأصحابه المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين
وبعد

فإن الإسلام المعاصر في واقعه الحركي لا يزال يعيش في ساحة الصراع
المتنوع في أكثر من صعيد؛ فهناك الصراع في مسائل العقيدة في مواجهة
الانحراف الذي قد يتمظهر في المشاكل التي يعيشها المسلمون في مناطق التبشير
المسيحي، الذي يملك الكثير من الوسائل الثقافية والاجتماعية والصحية... في ظل
العطف السياسي من قِبَل أكثر من دولة غربية، من أجل الحصول على بعض
المكاسب السياسية في هذه المنطقة أو تلك، وبالإضافة إلى إضعاف الصحة
الإسلامية في هذا البلد أو ذاك. وربما كان من الضروري أن يدخل العاملون
للإسلام في حوار مع القائمين على شؤون النصرانية في العالم، لدراسة هذه
المشاكل التي تتحرك في دائرة التبشير المسيحي ودائرة «التبليغ الإسلامي» أو
«الدعوة الإسلامية»، للاتفاق على الكلمة سواء في مواجهة دعوات الإلحاد
والشرك، وذلك لتأكيد خط التوحيد الإلهي الذي تلتقي عليه الديانتان من حيث المبدأ؛
وفي مواجهة واقع الاستكبار العالمي الذي يتحدى قيم النصرانية والإسلام في حياة
الإنسان على حدٍ سواء، وتبقى النقاط الأخرى موضع صراع أو تنافس لا يبتعد عن

الحوار الموضوعي العقلاني، والطريقة الحضارية الإنسانية؛ وذلك تحت تأثير حقيقة عالمية معاصرة، وهي أن العالم بدأ يبتعد عن الدين من الأساس، مما يفرض على الديانات الكبرى التوفر على دراسة أفضل الأساليب لتخفيف التوترات الحادة في مواقعها العامة وفي خطوط التماس بينها.

وإننا إذ نؤكد على الحوار الإسلامي - المسيحي، لا نريد أن نقتصر عليه في الساحة الدينية؛ فقد نجد ضرورة ملحة للحوار الإسلامي - اليهودي في المسألة الدينية الثقافية، انطلاقاً من دعوة القرآن الكريم إلى الحوار مع أهل الكتاب والجدال بالتي هي أحسن، وفي مقدمة هؤلاء اليهود الذين لم يمنع تاريخهم المعقد العدواني الإسلام - النص القرآني - من الدعوة إلى الحوار الموضوعي المنفتح على قضايا العقيدة والشريعة والتاريخ الديني المتنوع في هذه الدائرة أو تلك.

وتبقى مسألة «إسرائيل» خارج نطاق هذا الحوار، لأنها تمثل مسألة ظلم وعدوان على المسلمين الذين يمثلون الأكثرية في التاريخ والحاضر - في فلسطين - مما يجعل هذا التطور العدواني من القضايا التي تدخل في نطاق الجهاد الإسلامي لتحرير الأرض المغتصبة، كأي حركة تحرير في مواجهة الغاصبين والمحتلين في كل زمان ومكان، ولا تدخل في نطاق الحوار؛ وهذا ما أكدته القرآن الكريم في الخط الفاصل بين الجدال الفكري الذي يؤكد على مواقع لقاء بين المسلمين وأهل الكتاب؛ وبين الظلم الذي يمثل عدوانهم على الواقع الإسلامي وذلك حيث يمارس النظام الظلم السياسي والأمني والجغرافي الذي يتمثل في احتلال الأرض وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ - وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

(١) سورة العنكبوت: ٤٦.

وهناك الصراع الفكري العقيدي بين الإسلام والتيارات الفكرية المادية والعلمانية التي تتحدى مفاهيم الإسلام في اللاهوت والشريعة والمنهج؛ فقد تحركت المسألة الفكرية لمناقشات فكرة الغيب في العقيدة، وقضايا الحريات ومسائل حقوق الإنسان، ولا سيّما المرأة بشكل خاص، بالإضافة إلى مسألة الحكم في الإسلام والمذهب الاقتصادي والعنف والتطرف ونحو ذلك، مما يفرض التوفر على دراسة ذلك كله ومناقشة الأفكار والآراء المضادة من أجل تركيز المفاهيم الإسلامية على قاعدة فكرية صلبة لتحديد الفواصل بين الإسلام وغيره من التيارات الأخرى، لكيلا يختلط الأمر على المسلمين. فقد نجد البعض ممن يريدون التوفيق بين الإسلام والاتجاهات الفكرية الأخرى يعملون على إعطاء المفاهيم الإسلامية بعضاً من خصائص المفاهيم العلمانية أو إسباغ بعض عناوينها على الإسلام كالديمقراطية والليبرالية... بعيداً عن العمق الفكري الذي تختزنه هذه العناوين.

وقد تكون المشكلة الحادة في هذا الموضوع أن المراكز العلمية، والمواقع الفكرية، والحركات العلمانية بدأت تفرض نفسها على الواقع الإسلامي، من خلال كونها تمثل المواقع التي يتحرك في داخلها الشباب في أجواء التربية والسياسة والاجتماع... باعتبار أنها المحاضن التي فرضت أساليبها ووسائلها واتجاهاتها الفكرية والسياسية على الواقع الإسلامي كله، فقد استطاع التطور المعاصر أن يفرض أسلوبه في الدارسة والمنهج، والخط الفكري، والمواد الثقافية على مدارسنا، ومناهجنا وخطوطنا الثقافية في أكثر من صعيد...

وإننا لا نتعقد من الأخذ بالجديد مما توصل إليه الآخرون، لكننا في الوقت نفسه نحتاج إلى نهضة ثقافية إسلامية تناقش ذلك كله، في عملية نقد وتقويم وتأهيل للمنهج الإسلامي على مستوى الفكر والمنهج والأسلوب، لئلا يكون التفاعل الثقافي على حساب الأصالة الإسلامية، مما قد يترك تأثيره على التصور والحركة والواقع.

إننا ندعو إلى دخول العلماء والمفكرين المسلمين في العصر، ليعيشوا في داخل ذهنيته، ويتمثلوا روحه، ويتعرفوا أسلوبه ومنهجه، ويواجهوا قضاياها بالبحث والتحليل في مقارنة بين طروحاته وبين الطروحات الإسلامية، ويستعدوا للوقوف أمام تحدياته الفكرية وليطلقوا في وجهه التحديات الكبرى، حفاظاً على حركة الإسلام الثقافية في الوجدان الإسلامي للأجيال الطالعة التي قد تضع في مآهات الثقافة المعاصرة، فتبتعد عن الأجواء الثقافية الإسلامية.

* * *

وهناك الصراع السياسي الحاد المفتوح بين الإسلام والغرب، فقد بدأ الغرب بكل أجهزته السياسية والأمنية والثقافية والاقتصادية والإعلامية... في حرب مفتوحة على الحركة الإسلامية الجديدة التي تطرح قضايا الحرية والعدالة على أساس الإسلام، لتدفع الواقع الإسلامي في ساحة حركة الأمة نحو النمو والتقدم والأصالة، من أجل الحصول على مواقع القوة إلى جانب المواقع القوية في العالم، لتكون مستقلة في التخطيط لتنمية طاقاتها في سبيل الوصول إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي، على مستوى حاجاتها وفي القرارات السياسية والأمنية وفي الحركة الاجتماعية وفي جميع مجالات الحياة. فقد بدأ الغرب يرى في ذلك خطراً على مصالحه في العالم الإسلامي، وفي العالم الثالث بشكل عام، لأن سياسته كانت ولا تزال قائمة على اقتسام مناطق النفوذ بين دوله في الدوائر الأوروبية والأمريكية، ولذلك فإنه يرى في كل حركة تحرر، وفي كل شعار وحدة، وفي كل خطة تنمية مستقلة في أية دولة من الدول الإسلامية، خطراً على مصالحه وامتيازاته؛ فهو يرى أن ثروات العالم الإسلامي تمثل الشريان الحيوي لاقتصاده ورخائه، مما يجعل من الحركة الإسلامية التي تطالب باستغلال العالم الإسلامي لهذه الثروات، لتحقيق شروط قوتها في سياسة الاكتفاء الذاتي التي هي أساس الاستقلال، لأن الحاجات التي يملكها الآخرون هي التي تستعبد الشعوب في واقعها السياسي والاقتصادي،

فيجعلها تحت رحمة القوى التي تملك ذلك كله.

وهكذا رأينا الغرب يتحرك بشكل مباشرٍ أو غير مباشر، لحاصرة الحركة الإسلامية العالمية في مواقعها الإقليمية هنا وهناك، من خلال الأجهزة المخبرانية والسلطات الموظفة من قبله في هذا البلد الإسلامي أو ذاك؛ بحيث يحارب المسلمون بعضهم بعضاً من أجل المحافظة على صالح الغرب في بلادهم، بفعل الإيحاء إلى هذا المسؤول الرسمي المسلم أو ذاك بأن بقاءه في موقعه مشروط بمواجهته الحركة الإسلامية في بلده. وهكذا بدأ هؤلاء يحاصرون الإسلاميين في حرياتهم السياسية والثقافية، ويضغطون عليهم في الجانب الأمني، ويقومون بإثارة كل الاتهامات السلبية ضد قياداتهم لإيداعهم في السجون وإبعادهم عن قواعدهم الشعبية، مما يؤدي إلى حركة عنف شعبية مضادة، رداً على حركة العنف الرسمية؛ الأمر الذي حول البلاد إلى ما يشبه الفوضى الأمنية نتيجة الأساليب التي تمارسها الدولة التي تقوم بالمجازر في أكثر من موقع لتلصقها بالإسلاميين، لتشويه صورتهم لدى الأمة ووصفهم بأنهم فئات إرهابية، بالإضافة إلى الفوضى الفكرية التي قد تعيش في أذهان بعض المسلمين العاملين في الحقل السياسي، انطلاقاً من ثقافتهم الإسلامية السانجة في الخط الحركي.

ومما يزيد الأمر سوءاً هو قيام هذه الأجهزة بتوظيف بعض المواقع الدينية الإسلامية الرسمية وغير الرسمية لمواجهة الحركة الإسلامية، باسم مجابهة التطرف، ومحاربة الإرهاب، والتنظير للمنهج الاعتدالي الذي يدعو للمصالحة مع الأنظمة، والخضوع لمخططاتها، وتبرير سياساتها الخاضعة للمخططات الاستكبارية؛ باسم الضرورات التي تمنح الشرعية لكل النتائج السلبية لمشاريعها السياسية، باسم الاضطرار إلى ذلك من دون دراسة للعوامل الخفية الكامنة وراء ذلك كله.

لقد أعلن الحلف الأطلسي الإسلام عدوًّا للغرب، بعد سقوط العدو الآخر - وهو الاتحاد السوفياتي - وعلى هذا الأساس بدأت الحرب على الإسلام الحركي باسم الحرب على التطرف والإرهاب والتعصب... وغير ذلك من الكلمات التي أراد الغرب منها تبرير حربه حتى لدى المسلمين، باعتبار أن هؤلاء يسيؤون للعالم الإسلامي لا للغرب وحده، ليثير الناس ضده لا سيما مع حركة «وعاظ السلاطين» في الاتجاه نفسه.

إن الواقع الذي نواجهه هو هذه الحرب الثقافية والسياسية والأمنية والإعلامية التي تتحدى الواقع الإسلامي الحركي كله.

وإننا - في هذا المجال - نرى ضرورة التوفر على مواجهة الموقف بدقة وحذرٍ وشمولية... وذلك من خلال العمل على وحدة الحركة الإسلامية في العالم، ودراسة الأساليب والوسائل التي تستخدمها في هذه الحرب، من أجل القيام بحركة نقدية عميقة لمحاكمة بعض الأخطاء والانحرافات التي يمارسها بعض الإسلاميين في خط المواجهة، مما يجعل للأعداء أكثر من فرصة ذهبية لتشويه صورة الإسلاميين لدى الشعب والأمة؛ هذا مع القيام بعملية توزيع الأدوار تبعاً لتنوع المناطق والمواقع، ليتولى كل موقع دوره الإعلامي أو السياسي أو الثقافي... لدعم الحركة الإسلامية في هذا البلد أو ذاك.

ولا بد - في سبيل الوصول إلى ذلك - من توعية المسلمين بالخطة الاستكبارية المتحالفة مع مواقع الكفر الأخرى، ليتعرفوا على الخطر الشديد الكامن داخل هذه الخطّة، لإبقاء المسلمين تحت سيطرة النفوذ الغربي، وإبقاء واقعهم الاقتصادي خاضعاً لمصالح الدول المستكبرة، لأن المشكلة التي تعانيها الحركة الإسلامية في مواقعها، هي اللامبالاة السياسية التي يعيشها المسلمون، في مواقعها المتنوعة في حركة الصراع مع الاستكبار.

* * *

وهناك المشكلة التي يواجهها الواقع الإسلامي، وهي مشكلة الجفاف الروحي الذي يعاني منه المسلمون في كثير من بلدانهم، وذلك من خلال استغراقهم في الحياة المادية واهتمامهم بالأجواء السياسية، بعيداً عن الأجواء الروحية التي تمثل الأساس الحيوي للقوة والثبات والإخلاص؛ فقد ابتعد الوعظ الإسلامي في كثير من مواقعه عن هذا الاتجاه، مما جعل الالتزام الإسلامي يتحرك بطريقة تقليدية جامدة.

إننا نتصور أن العنصر الروحي في الشخصية الإسلامية، هو العمق الإنساني الإلهي الذي يمنح الإنسان قوة العلاقة بالله والانفتاح عليه، بحيث لا يرى شيئاً إلا ويرى الله في داخله، ولا يعمل عملاً إلا ويجد الله أمامه؛ مما يجعل علاقته بالناس منطلقة من علاقته بالله، وتتحرك علاقته بالأشياء من خلال صلتها - في حركته فيها - بالله، فهذا هو الذي يحميه من الانحراف، ويصونه من الزلل، ويبقيه في خط الاستقامة، ويجعله يفتح على الناس على أساس الإخلاص الذي يعيش معه الصدق الداخلي والخارجي، فلا يخونهم ولا يخدعهم ولا يغشهم ولا يتبع معهم سياسة الحيلة والمكر واللف والدوران...

إننا قد نجد الكثير من النماذج المليئة بالطاقة الروحية في المجاهدين في سبيل الله، ولكننا نخاف عليهم وعلى غيرهم من الإسلاميين من هذا الانحراف الروحي الذي قد ينطلق من ارتباك المفاهيم التي تتوزع التصورات بين الخرافة والحقيقة، ومن الاستغراق في الأجواء المادية الذاتية التي قد تجعل الحركة الإسلامية خاضعة للأجواء التقليدية التنظيمية، الأمر الذي قد يؤدي إلى الفصل بين الأخلاق الإسلامية والروحانيات العبادية، فيعيش الإنسان الاضطراب بين الجو الروحاني العبادي والأخلاق الذاتية المعقدة.

إننا ندعو إلى معالجة هذه السلبية الروحية بالتوفر على الوعظ الأخلاقي والروحاني، الذي لا بد للواعظ أن يتمثله في نفسه، ولا بد له أن يبقيه في ثقافته وأن

يتابعه في أساليبه، وأن يدقق في مفرداته للفصل بين الخرافة والحقيقة؛ فليس معنى الإيمان بالغيب أن نتقبل أي شيء حتى لو لم يكن مصدره موثقاً، بل معناه أن ننفتح على الله في غيبه الذي أعطى بعضاً منه إلى أوليائه وأنزل بعضاً آخر منه في قرآنه.

ويبقى القرآن - في حركة المفاهيم الإسلامية الروحية والإعلامية والاجتماعية - الكتاب الذي يمثل الحقيقة المطلقة، فهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الذي لا بد أن تتمثله كفرقان بين الحق والباطل، ونفهمه بالوسائل العلمية الفنية التي تجعل الوعي للنص مرتكزاً على قاعدة ثابتة.

* * *

وتبقى للإسلام قضاياها المتنوعة في الفكر والحركة والمنهج، وفي تحديات الواقع، وفي آفاقه الواسعة، ومواقفه الممتدة، وإنسانه المتحرك أبداً في الطريق إلى تأكيد الإسلام في شخصيته، وتأكيد الشخصية بالإسلام، ويبقى للعالمين في حقل الدعوة والثقافة والحركة الكثير مما يبحثون ويفكرون ويستنتجون في نطاق الفكر الإسلامي الأصيل.

* * *

ويبقى لهذا الكتاب، الذي انطلقت أبحاثه منذ ست وثلاثين سنة، أنه أطلق الإسلام الحركي فكراً وأسلوباً ودعوة وحركة في الحياة، في الوقت الذي لم تكن التطورات الحركية قد بلغت هذا الحجم الكبير وهذا التطور الواسع.

وكانت (الأضواء) - «المجلة التي أصدرتها جماعة العلماء في النجف الأشرف» - وكنت أحد المشرفين عليها - تشرف في محيطها وفيما يتجاوزه لتثير الإسلام على

مستوى المنهج والفكر والحركة، في الوعي الإسلامي العام كقاعدة للفكر والعاطفة والحياة.

وكانت «كلمتنا» - الافتتاحية - هي كلماتي التي كنت انطلق بها من الواقع الإسلامي في تطوراتهِ الصاعدة، وتعقيداته الصعبة، وصراعاتهِ المريعة... وقد رافقت هذه الكلمات - في فترة من عمر المجلة - الشهيد السعيد آية الله، السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) الذي كان يكتب الافتتاحية الأولى، بعنوان «رسالتنا» وكنا معاً في حركة الإسلام آنذاك من أجل وعي أصيل وحركة رائدة، ومستقبل كبير.

وتلك عطاءات تلك المرحلة التي كانت تضج بالأحداث التي انطلقت في الخمسينات ولا تزال؛ فإذا كان لها بعض التأثير في الماضي، فإني أمل أن يكون لها بعض التأثير فيما يبقى منها للمستقبل من الحاضر، في الوقت الذي أرجو فيه من القراء الكرام، لا سيما من العاملين في الحقل الإسلامي، أن يقرؤوا فيها تاريخ تلك المرحلة التي كانت الكلمة فيها مشكلة لصاحبها من خلال المجتمع المتخلف والسلطات الظالمة؛ فقد كنا مرحلة في العمل الإسلامي ربما امتد تأثيره إلى هذه المرحلة وما بعدها، مما يفرض على المرحلة الجديدة، أن تعرف أنها كانت نتائج المراحل السابقة، فإن الحاضر يولد في الماضي ويعدّ ولادةً جديدةً للمستقبل.

وأخيراً إنني وأنا أقدم للطبعة السابعة، أرجو أن يجد العاملون للإسلام في هذه المرحلة شيئاً نافعاً للحركة الإسلامية الصاعدة، وللواقع الإسلامي الجديد.

والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣ رجب الحرام ١٤١٦ هـ

محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الأولى

هذه الكلمات لم تكتب لتكون كتاباً، أو لتجمع في كتاب؛ وإنما كتبت في فترات مختلفة ومواعيد متفرقة، لتكون «كلمة الأضواء» - النشرة الإسلامية المجاهدة - في سنتها الأولى.

ولم أحاول - فيها - أن أبحث عن حلول لمشاكلنا ولقضايانا بحث تحليل وتدقيق، وإنما حاولت أن أثير هذه المشاكل في حياتنا التي نعيشها، أن أفتح النوافذ والكوى على الحياة الإسلامية الرحبة التي تنتظر البشرية - إن قدر لها أن تبلغها..

إن «مشكلتنا» التي نحياها هي: إننا ابتعدنا عن الطريق، وأضعنا معالمة وأثاره.. وبقينا نتخبط في مجاهل التيه، التيه العقائدي والأخلاقي والاجتماعي والروحي...

ولذا فإننا في محاولة الرجوع إلى طريقنا اللاب في عملية توعية وإثارة وإبداع.

وكانت «هذه الكلمات» من وحي هذه المحاولة ومن «وعي» تلك المشكلة..

فحاولت أن تفتح الأعين على «الإسلام» طريقاً للحياة الرخية السعيدة..

وحاولت أن تثير الاهتمام ببعض المشاكل التي تحيط بالعمل وتعرقل سيره.. وببعض المفاهيم والقضايا التي اختنقت حيويته في غمار الضباب الكثيف المعقد.

ولا أدري إذا كانت قد صدقتني المحاولة، وساعدني التوفيق.

وشاء بعض الأخوان المؤمنين أن يروا في «هذه الكلمات» فائدة للقراء، وأن

يلمحوا فيها ما يساعد على إثارة الوعي نحو الإسلام، مشاكله وقضاياها.
فكانت رغبتهم أن تجمع في كتاب، ولم يكن مني إلا أن استجيب لهذه الرغبة،
وأحببت أن أضيف إليها بعض المواضيع الأخرى، وأن أجدد النظر في بعض
موضوعاتها، فأتوسع فيها. وهكذا كان.

أما اسم الكتاب، فقد كان من رغبة بعض الأخوان الذين احترمت ثقافتهم وفكرهم؛
والله أسأل أن يحقق ما نرجوه ويبلغنا ما نأمله من خدمة الإسلام والعمل على
إعادته إلى الحياة من جديد إنه قريب مجيب.

النجف الأشرف - العراق ١٣٨٠ هـ

محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الثانية

قد تكون بعض الكلمات التي تكتب فكرة تعيش في الخيال، فنحاول أن نغرسها في أرض الواقع.

وقد تنطلق بعض الأبحاث، التي تثار، من حاجة ذهنية معينة للمناقشة والبحث. وفي كلتا الحالتين، يشعر الإنسان بالهوة العميقة التي تفصله عن الحياة وبالجفاف الروحي يغمر قلبه ووجدانه، لأنك لم تكن مع الواقع الحي الذي تريد أن تحياه في فكرك، ولكنك مع الخيال الذي تحاول أن تمنحه حيوية الواقع دون جدوى.

* * *

ونحن هنا في هذا الكتاب:

لم نحاول الانطلاق من خيال يبحث عن أرض عزاء ينغرس فيها، أو من ترف ذهني يفتش عن دوامة يدور معها ويدور إلى ما لا نهاية.

كان الواقع الحي يتحدثنا ويملي فنكتب.

وكان الصراع اليومي يطرح قضايانا ويوحي فنسجل.

وكانت الرسالة تتحرك من الواقع في معترك الصراع، فتتحرك الحياة من حولنا في عملية تجديد وإبداع.

وكنّا - من خلال ذلك كله - نشعر أن علينا أن نسرع للحاق بالزمن قبل أن تتركنا

قوافله حيارى نتطلع إلى بدايات الطريق.

وكانت القوافل تسير في الظلام، تحمل الليل على أكتافها، وتتطلع إلى الفجر
بعيون أرهقها الظلام وأتعبها السهاد.

وكان المرفهون الفارغون العابثون اللاهون بالدمى في مسرح الحياة أمامها في
الطريق.

يريدون منها أن تنام وتغلق أعينها على أطياف الاسترخاء اللذيذ في كسل
السامرين، في انتظار الفجر الندي الذي يطرح نفسه على الأقدام.

* * *

وكانت هذه الكلمات تتحرك وتنادي وتشير و«تشاغب»... من أجل أن تغالب
النعاس الراقد في الأجفان منذ عصور التخلف، وأن تحرك اليقظة المشرقة وجدان
الحالمين في الظلال.

* * *

ومن هنا كنا نرى أن هذه الكلمات هي تاريخ حركي لمرحلة من مراحل الصراع
العنيف بين الإسلام وبين خصومه.

ففي كل كلمة بعض من وحي مشكلة تثار.

وفي كل دراسة صوت لصراع حيّ يدور بين الأفكار.

وفي كل نداء دعوة إلى انفتاح جديد على إشراقة من نهار.

لذلك فنحن عندما نقف معها - في طبعثا الثانية - لنضيف إليها الكثير الكثير من
الكلمات والأبحاث التي لم تنشر في الطبعة الأولى من «قضايانا على ضوء

الإسلام» - نهدف إلى أن تعطي في نبضاتها الحية للحاضر بعض الجديد الذي استطاعت أن تعطيه لحركة الصراع في الماضي.

وكلنا رجاء وأمل ودعاء أن تنتقل قضايانا إلى الحياة في حركة تفرض الإسلام على الحياة.

بيروت ٢٥ ربيع الأول ١٣٩٣ هـ

محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ربما يشعر الإنسان المسلم - الذي يتابع حركة الوعي الإسلامي في مجالات الصراع - بالتفاؤل الروحي إزاء هذا الإقبال الذي يشبه حد النهم على قراءة الفكر الإسلامي في فلسفته ومفاهيمه وشريعته... حتى أصبح الكتاب الإسلامي مسؤولية كبيرة في حياة المؤلفين، باعتباره مصدراً من مصادر بناء الشخصية الفكرية والروحية والعملية للجيل الإسلامي الطالع، مما يدفع الكاتب المسلم إلى التوقف طويلاً أمام ما يفكر وما يكتب، قبل أن يدفع به إلى النشر ليكون مادة للقراءة والتفكير؛ لأن من الممكن أن تكون لبعض الأفكار المطروحة تأثيرات سلبية على حياة الجيل، سواء في تكوينهم الفكري أو في ممارستهم العملية. وربما يقدر لهذه الأفكار أن تأخذ مجالها للتنفيذ والتطبيق في حياة الناس، من خلال تحولها إلى تيار فكري أو سياسي أو اجتماعي... أو انطلاقها كحركة تجاهد من أجل تغيير الواقع على أساس هذه الأفكار.

لذلك فإننا نشعر بالحرص الكبير أمام أجيالنا الطالعة، عندما نواجه الكتب الكثيرة التي تقدم على أساس إسلامي باعتبار أن أصحابها يملكون اسماً إسلامياً تقليدياً قد يوحي إليك بالشعور بالاحترام الذاتي، ولكنه لا يوحي بأي شكل من أشكال الاحترام للفكر والأسلوب..

إننا نشعر بالحرص الكبير أمام فقدان الضوابط التي تمنع انتشار مثل هذه الكتب

التي تتحول إلى ما يشبه «الكشاكيل الفكرية» الحاملة للخرافات والتفاهات والأفكار القلقة التي لم تنطلق من أساس متين... مما يخلق لنا كثيراً من ألوان الفوضى في الفكر والعمل، ويدخلنا في مجالات من الصراع الداخلي الذي يهرب منه الفكر، لتعيش في أجوائه سذاجات القداسة الغارقة في ضباب الزيف الروحي والفكري... وعلى ضوء هذا، نجد أن من واجب الطلائع الإسلامية الواعية من الكتاب والمفكرين الإسلاميين أن يتقدموا للساحة الفكرية ليعالجوا قضايانا المتحركة في أجواء الصراع بين التيارات المتضاربة، على أساس من شريعة الإسلام ومفهومه، ليظل الجيل منطلقاً في وضوح من الرؤية الفكرية لكل ما حوله، من زاوية النظرة الإسلامية للحياة.

وقد نعطي لأنفسنا المبرر للقول بأن الاستسلام للكسل الفكري والخدر الروحي يعتبر جريمة كبرى في حساب الواقع الإسلامي، الذي يبحث عن كل طاقة من طاقات الأمة ليفجرها ويحركها في هذا الصراع الحاد المتفجر، الذي يتحدى كل قوة من قوانا العامة والخاصة، ليضعفها ويخدرها ويجمد فيها حيوية الابداع وحركة الصراع.

إننا نعتقد أن الواقع الإسلامي يفرض علينا أن نواجه التحديات السلبية والإيجابية التي تواجهنا فكرياً وشرعية وعملاً، بتحديات مماثلة إن لم تكن أقوى، لأن القضية لا ترتبط بتفاصيل الحياة، بل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية الوجود والحياة ذاتها. فإما أن نكون وإما أن لا نكون. ونحن نعرف أن الحرب عندما تشكل خطراً على «بيضة الإسلام» - كما يعبر الفقهاء - فإن الموقف يتحول إلى استنفار عام لكل الطاقات الصغيرة والكبيرة.

وقد يكون من الجوانب الإيجابية لكتابتنا (قضايانا على ضوء الإسلام) أنه انطلق من خلال الواقع الحركي للإسلام، في فترة من أقسى فترات الصراع في المناطق

التي كتبت فيها أفكاره. وقد استطاع أن يظل متحركاً في وعي الأجيال الإسلامية الطالعة، باعتباره يمثل الفكر الإسلامي المتحرك في اتجاه خلق الإنسان المسلم الجديد، الذي يتطلع إلى المستقبل بعينين مفتوحتين تترصدان الفجر الوليد بلهفة وشوق وتصميم.

ولعل هذه الطبعة الثالثة التي انطلقت من نفاذ نسخ الطبعة الثانية في وقت قصير، مما جعلنا نواجه كثيراً من الطلبات لإعادة طبعه.

لعل هذه الطبعة تعتبر دليلاً على حيوية ما فيه من أفكار وقضايا، وعلى أنها لا تزال تعيش في ضمير الحاجات الإسلامية المعاصرة، لأنها لم تتجمد في إطارها الزماني والمكاني المحدود؛ بل تحركت في خط الإسلام الممتد مع الحياة في كل زمان ومكان.

والله أسأل أن ينفع به، ليكون خطوة متواضعة في المسيرة الإسلامية الطويلة التي لا يزال الأمل الكبير يدفعنا إلى التطلع نحو آفاقها الواسعة، التي يمن الله فيها على عباده بالنصر كما في قوله تعالى:

﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾^(١) ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بيروت ١ ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ

محمد حسين فضل الله

(١) سورة القصص؛ ٥

مقدمة الطبعة الرابعة

في حركة الإسلام في الزمن يحدث الكثير من حالات التجدد والتطور في تفاصيل القضايا الإسلامية المثارة، وفي نوعيتها، وأبعادها الحاضرة والمستقبلية... وقد يلتقي العاملون في الطريق بأحداث جديدة لم تكن موجودة في حياة الإسلام والمسلمين من التحديات الفكرية والعملية، وقد يطرأ على الساحة قيادات يختلف لديها الفكر والأسلوب، مما يخلق للعمل وللعاملين مضاعفات سلبية على خط السيرة وطبيعة الهدف...

وفي أجواء ذلك كله، لا بد للمفكرين الإسلاميين من ملاحقة الحالات المتجددة المتطورة، والأحداث والملابسات الجديدة في التحديات وفي القيادات... ودراستها دراسة موضوعية على ضوء العناصر الأصلية للإسلام في مفاهيمه وقيمه الفكرية والعملية... ليبقى للتحرك الإسلامي وضوح الرؤية وسلامة التفكير وأصالة الشخصية، لأن مثل هذه القضايا قد تغير للعاملين بعض أنماط التفكير وأساليب العمل وأوضاع الهدف... مما يقتضينا دراسة الخطوات الجديدة التي يلزمنا اتباعها في مسيرتنا الطويلة الهادفة، وقد نحتاج في ذلك كله إلى الكثير الكثير من الجهود التي ترصد ذلك كله في عملية استقصاء واستيعاء.

إنني أحب إثارة ذلك - في مقدمة الطبعة الرابعة - لكتاب «قضايانا على ضوء الإسلام» تأكيداً للفكرة التي دفعت إلى تأليفه، من أجل أن يتحول هذا العنوان إلى خط عريض في حياتنا الفكرية التي تبحث في كل يوم عن جديد في حياة الإسلام والمسلمين.

وقد لا يفوتني - في هذا المجال - الشعور بأن الأفكار والأبحاث المثارة في هذا الكتاب تحتاج إلى المزيد من التحليل والتفصيل والتجديد، لأن كثيراً من الأوضاع الجديدة لحركة الإسلام في العالم قد فرضت نفسها على الواقع، مما يجعلها تفرض نفسها بعمق على خطوات التفكير؛ ولكننا نريد لهذا الكتاب أن يظل تجسيداً لمرحلته التي كتب فيها، على أن تتولى قضية التطوير كتب وأبحاث أخرى، نرجو أن تأخذ مجالها إلى التأليف والنشر في وقت قريب بإذن الله.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٠ / ربيع الأول ١٤٠٠ هـ

٢٧ / كانون الثاني ١٩٨٠ م

محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة الخامسة

قد لا أقصد وأنا أمام مقدمة الطبعة الخامسة لهذا الكتاب أن أتحدث عن هذا الكتاب، بل أريد من ذلك أن أثير التفكير حول ما يستجد من قضايا الإسلام والمسلمين فيما نواجهه من تحديات الكفر والاستعمار في أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... مما يفرض علينا التوفر على دراسته ومعالجته والتحرك نحوه بخطواتٍ عمليةٍ حاسمة.

فقد - تواجها - في هذا المجال - المشكلة الكبيرة في سلوكنا أمام هذه القضايا وفي تعاملنا معها؛ فقد وُضعت في أجواء أخرى غريبة عن الإسلام تبعاً للتيارات المتنوعة المتحركة في الساحة التي تهيمن على قطاعات كبيرة من المسلمين... فهناك الجو الماركسي الذي يحاول توجيه النظر إليها على الطريقة الماركسية للتحليل والحركة والاستنتاج. وهناك الجو القومي الذي يعمل على اعتبارها في هذه المنطقة قضايا تتصل بهذه القومية، أو تتصل بقومية أخرى في منطقة أخرى... وهناك الجو الإقليمي الذي ينطلق بها في الإطار الوطني المحدود... وهناك الكثير الكثير مما يختزن في داخله العناصر الطائفية واللونية وغيرها... مما يبعد المسلمين عن التصور المنفتح الذي يعيش هذه القضايا بعقلية إسلامية ممتدة؛ وبذلك يفقد المسلمون الارتباط بها على أساس إسلامي، وبالتالي يتحوّل تفكيرهم معها إلى تفكير منحرف ينمو في الجو المنحرف، لأن حركة الفكر إذا اتجهت في مسار معين، فإنها تطبع الشخصية بطابع ذاك المسار. وهذا ما يخلق لنا - في نهاية المطاف - شخصيات مشوّهة تعيش الازدواجية بين ما هي العبادة، وما هو الفكر، وما هي

الحياة. ومن الطبيعي أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله أن يعيش العاملون في سبيل الله الصعوبة الكبيرة في قيادة المسلمين إلى المواقف الإسلامية الحاسمة التي تدفعهم إلى السير من موقع الإسلام الفكري والسياسي والاجتماعي.

ولعل من الطبيعي لنا - أيضاً - أن نتوفر على مواجهة هذه المشكلة بطريقة واقعية وذلك بالتأكد على التخطيط لطرح هذه القضايا في حياة الناس من موقع صفتها الإسلامية، بالطريقة التي تحرك التفكير والتحليل في أجواء المنهج الإسلامي للحياة، ليتعود الإنسان المسلم أن يتحرك في حياته دون شعور بالانفصال عن شخصيته، فيما يتطلع إليه من أوضاع وعلاقات وأهداف في حاضره ومستقبله... ليبقى للإسلام وحيه في كل أفاق الإنسان المسلم، ولتستمر فاعليته في عملية صنع الحياة على الطريقة القرآنية التي أرادها الله للإنسان في الكون؛ وليعرف المسلم دائماً أن الصفات الأخرى الطارئة تتساقط وتضمحل عند صفة «الإسلامية» في شخصيته؛ فهي كل شيء عنده وكل شيء معه.

* * *

وقد كان دور هذه الكلمات في مرحلتها التي عاشت فيها - في نطاق مجلة الأضواء - أن تصنع للإنسان هذه الشخصية، بعد أن كانت قد بدأت تنكمش في النطاق الضيق الذي يريد أن يحبسها في داخل زنزانة ضيقة، بعيداً عن الهواء الطلق الذي يتنفس فيه روحية الحركة المتقدمة، المتطلعة إلى أن يعيش العالم كل انطلاقاته الفكرية والعملية في رحاب الله... حيث لا يمثل الإسلام مجرد دين يعيش في المسجد ليحبس الحياة هناك، بل يمثل الدين الذي يفجر الحياة فكراً وحركة وروحانية وشريعة ممتدة من خلال المسجد، لتتحول الحياة كلها إلى مسجد كبير يقف فيه الناس كلهم خاشعين أمام عظمة الله.

وهكذا تحولت هذه الكلمات إلى حركة للحياة الإسلامية الفتية، وكانت الطلائع تتقدم، وتتحول الساحة إلى ساحة للجهاد من أجل أن يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة.

وكانت الأضواء تتجمع هنا وهناك، لتشرق في زاوية هنا وزاوية هناك؛ وفجأة انطلقت الشعلة من جديد، وبدأت الدماء تتفجر من قلب الشعلة، في قافلة الشهداء الذين حملوا حركة الأضواء من أجل الإسلام. وما زالت الدماء تتدفق، وما زال الشهداء يتقدمون، وما زالت الأسوار تتهاوى أمام اندفاعات الزلزال، وما زال الظلام يبحث في ظلماته عن الأشباح، وما زال الفجر الوليد يلاحق الظلام والأشباح والتهاويل... من أجل أن تعود الأضواء نقية صافية وديعة قوية الإشعاع... وما زالت الساحة تنتظر لتنتقل معها كل قضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... على ضوء الإسلام.

قد يكون لهذه الكلمات بعض الامتداد في حياة المسلمين - وفي الساحة الإسلامية الجهادية - قد يقرأها بعض الناس كتاريخ لمرحلة سابقة، وقد يقرأها البعض كفكر يجد لنفسه أكثر من موطئ قدم في رحلة الإسلام المستقبلية، وقد يجد فيها البعض بعض الحقيقة، وقد يجد فيها بعض آخر بعض الأخطاء؛ ولكنها تظل أمينة في حركة الخطأ والصواب، للمرحلة التي عاشت فيها وللمرحلة التي تريد أن تكون مفيدة لها... ويظل الإسلام هو الفكر الذي يهدي ويثري ويغني التجربة ويصنعها من جديد كلما امتد للحياة فجر، وكلما ودّع الكون تهاويل الظلام.

وإذا كنت أقدم للطبعة الخامسة من هذا الكتاب، فإنني أشعر بكل تواضع واعتزاز، أن في ذلك دلالة على أن الفكر الإسلامي الذي استمد حيويته من تجربة الجيل المسلم المتقدم، قد استطاع أن يتجاوز الماضي إلى المستقبل، من أجل أن يستوعب تجربة جديدة تعيش في روحيتها بعض دروس التجربة القديمة.

وإنني إذ أشكر الله على ما أولاني من نعمه وألطافه، أرجو أن أجد في ملاحظات
إخواني من شباب الطليعة الإسلامية الناهضة بعض الملاحظات الهادية، التي تبحث
عن الحقيقة في ركام أخطاء الباحثين والعاملين.
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٢ رجب ١٤٠٣ هـ
محمد حسين فضل الله

مقدمة الطبعة السادسة

ربما كان عنوان هذا الكتاب، من العناوين المتحركة على أكثر من مرحلة وفي أكثر من صعيد.. لأنها تمثل حركة الإنسان المسلم، على مستوى الفرد والمجتمع والأمة، في نموه وتطوره وامتداده وتفاعله مع المجتمعات الأخرى في أجواء الأحداث المتنوعة المتغيرة، سلباً أو إيجاباً.

وهذا هو ما يجعلنا نواجه في حركة هذا الكتاب، في وعي هذا الإنسان، قصة التفاصيل في الخط العام الذي تحرك في المرحلة التي رافقت أبحاثه، وهو الخط الذي يثير الإسلام كنهج للحكم وللحياة في ساحة الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي الذي يخوضه مع التيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية اللا إسلامية.

فقد كانت مرحلة هذا الكتاب، في الوسط الذي عاش فيه، مرحلة الإعداد للفكرة، أن تفرض نفسها على الساحة، في مواجهة الفكرة المتخلفة التي تعتبر الإسلام عبادة وتقاليد وأخلاقيات غائمة، وشرعية فردية، لا تمتد إلى الحياة العامة للناس، من حيث الأساس، أو من حيث طبيعة التطورات التي تجاوزت مرحلتها الأولى.. مما يجعلنا نتطلع إلى تيار جديد، أو شرعية جديدة.

وكنا نحاول أن نؤكد الفكرة من أجل أن يتنفس الإسلام - الفكر والشرعية والمنهج - الهواء الطلق في ساحة الحياة، ليعيش المسلمون هذا الجو الجديد من أجل مرحلة جديدة للإسلام والمسلمين في الحقل الفكري والسياسي.

وقد استطاعت أبحاث هذا الكتاب، مع الأبحاث الرائدة التي رافقته، أن تثير الوعي الجديد الإسلامي في الجيل المسلم الذي تحول إلى حركة أو حركات إسلامية، تجاوزت المنطقة العربية إلى غيرها من المناطق؛ وأعدت للصحة الإسلامية، في مستوى الوعي السياسي الإسلامي، الأجواء الملائمة التي احتضنت أكثر من مشروع للثورة وأكثر من موقف للإصلاح؛ واستطاعت أن تجعل العالم يتطلع إلى الإسلام، كموقع جديد من مواقع الثورة من أجل الحرية والعدالة والتقدم، وكحركة رائدة من أجل تغيير المعادلات السياسية القائمة في العالم المعاصر.

* * *

وإننا - في الوقت الذي نؤكد فيه الدور الفاعل للمرحلة التي عاشتها هذه الأبحاث وللجيل الذي تأثر بها - نريد أن نواجه المتغيرات الجديدة التي تعيشها الحركة الإسلامية التي بلغت سنّ الرشد، وقطعت فيه شوطاً بعيداً، والتي تفاعل معها العالم الإسلامي المعاصر بدرجات متفاوتة، من حيث مستوى الوعي والإحساس والتحرك... فقد فرضت علينا الأوضاع تقنين الشريعة الإسلامية في صيغ متقدمة لتواجه القضايا الحديثة في الحكم والإدارة والسياسة والاقتصاد والاجتماع ولتثبت قدرة الإسلام على حل مشكلة الإنسان في مثل هذه الأمور، من دون أن يسيء إلى عجلة التقدم والتطور في حياته.. ولتبرز كقوة فكرية وقانونية قادرة على استيعاب كل المتغيرات بالمستوى الذي تتقدم فيه على التيارات الفكرية الأخرى التي تحفل بها الساحة.

وهذا هو التحدي الكبير الذي يواجه الانطلاقة الإسلامية الجديدة في صراعها من أجل الوجود والبقاء والامتداد.

وقد يفرض علينا المستوى الذي يجب أن يبلغه الرد الواقعي للتحدي أن نعيد النظر في المنهج التقليدي الذي يتحرك به الفقه الإسلامي، في حركة الاجتهاد؛ فقد نكتشف أن المسألة الملحة ليست في تطوير الفكر الإسلامي، على أساس ما استحدثته الأفكار الأخرى من ذهنية التطور، بل هي محاولة اكتشاف بعض الخطأ في طريقة فهم النصوص، أو تركيز القواعد الفكرية التي يبنى عليها الاستنباط العلمي للنظرية الشرعية... فقد نكتشف أن المنهج المنطقي في التفكير والجدل، وترتيب وسائل البرهان وأشكاله... مسؤول عن الخلل في الكثير من النتائج السلبية في هذا المجال.. وقد نجد في بعض الأبحاث التي يثيرها علم الفقه وأصوله، لوناً من ألوان الترف الفكري الذي يدفع الباحث إلى الشعور بأنه يتحرك، في حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها، أو في نتائج عقيمة لا يشعر الإنسان بجدواها في أي موقع من مواقع الفكر الواقعي لموقف الإنسان من الشريعة، أو موقف الشريعة منه.

إننا نريد إثارة هذه النقطة الجديرة بالاهتمام في أوساط الجامعات الفقهية في العراق وفي مصر وفي إيران، من أجل البدء بدراسات جديدة تواجه التحدي الداخلي الذي نواجهه في إعطاء الصورة التفصيلية عن النظرة الإسلامية الشاملة للحياة.

وربما كان من المفيد جداً التوفر على دراسة التجربة الجديدة المتمثلة في حركة التقنين الإسلامي، للدولة الإسلامية الفتية، في تجربة إيران الإسلامية من خلال أعمال مجلس الشورى الإسلامي ومجلس الخبراء في هذا الاتجاه... لأن قيمتها، تكمن في أنها تمثل التجربة الواقعية الجادة التي لا تحلق في الجانب النظري من المسألة، بل تعمل على مواجهة الواقع التطبيقي الذي تتحرك النظرية في داخله وخارجه.

إن علينا أن نواجه هذه التجربة بنظرة نقدية موضوعية، لا تعيش في أجواء الاستهلاك السياسي للشعارات السلبية أو الإيجابية، بل تعيش في أجواء التفكير العلمي الدقيق الذي يواجه المسألة بعقل باردٍ مفتوح، وبفكر هادئٍ مسؤول.

وقد فرضت علينا الأوضاع الحاضرة، - إلى جانب هذا التحدي الداخلي - لوناً آخراً من ألوان التحدي الخارجي في مواجهة الإسلام للتحديات الاستعمارية المتمثلة في الحرب المعلنة على الصحة الإسلامية الواعية التي تعيش الاتجاه الحركي في مقاومة الاستعمار، بكل مشاريعه الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية... وتتقدم في الساحة، من أجل أن تكون قوة من قوى التحرر، ومن أجل أن تكتشف في الواقع الذي يعيشه الإنسان المستضعف بعض نقاط القوة التي يملكها في مواجهة بعض نقاط الضعف التي تتجمع في واقع الإنسان المستكبر، مما يدفعه إلى اكتشاف وسائل جديدة، على طريقته الخاصة، في اكتشاف وسائل القوة التي يحاول - من خلالها - محاصرة هذه القوى المستكبرة في مواقعها السياسية والاقتصادية والعسكرية، بما لا تملك - حتى الآن - الوسائل المضادة لمواجهتها على مستوى حاسم.

وهكذا اكتشف الاستكبار العالمي، أن هناك «تطرفاً إسلامياً» إلى جانب «الاعتدال الإسلامي» وحاول أن يوحى للناس، بأن خط التطرف يقود إلى هدم حضارة الإنسان الغربي، وإلى سيادة التخلف، وإلى اعتبار الإرهاب سيد الساحة السياسية والأمنية، باعتبار أنه الوسيلة البارزة التي يعتمد عليها التطرف الإسلامي للوصول إلى أهدافه إذ أنه يؤمن بأن العنف هو الطابع الذي يحكم كل التفاصيل في ذلك كله.

وهكذا بدأت الحرب على الإسلام الحركي الثائر، تأخذ صورة «الحرب على

الإرهاب» فيما استحدثه الإعلام الاستكباري من واجهات جديدة مثيرة، من أجل إثارة الرأي العام العالمي ضد الإسلام والمسلمين... ولا تزال المسألة تتفاعل على أكثر من صعيد، لتتحول إلى قوة دولية تعمل على محاصرة الحالة الإسلامية المتنامية بمختلف وسائل الحصار، على أكثر من مستوى وفي أكثر من مجال.

إننا لا نريد الدخول في تفاصيل المسألة، ولكننا نحاول إلقاء الضوء على هذه المستجدات التي يتحرك بها الواقع الإسلامي في مسألة التحدي، فعلاً ورد فعل، لينطلق الفكر الإسلامي الحر، في البحث عن أفضل السبل لمواجهةها على مستوى الحركة الفكرية والعملية في جوانبها السياسية والعسكرية... ليضع القضية في نصابها الصحيح وليحدد للمسيرة الإسلامية حدود المفاهيم التي يتحرك فيها الإعلام، وطبيعة النتائج السلبية أو الإيجابية المتفرعة عن هذه الوسائل أو تلك، لنلا ننهزم أمام التهاويل التي يثيرها هؤلاء في مشاعرنا وأحاسيسنا تجاه هذه الأمور.

إن المسألة التي تفرض نفسها على الساحة ليست هي.. كيف ينظر الآخرون إلينا وكيف نحافظ على احترامهم لنا، وكيف نستطيع الدخول إلى النظام الدولي كي يتقبل وجودنا بالكثير من الرضا والاطمئنان؟ بل هي، كيف نوفق بين حاجة الساحة إلى هذه الوسائل غير المألوفة في حركة الصراع، مما يعتبرها الآخرون «إرهاباً» أو «تطرفاً» أو «تعصباً وتخلفاً»، وبين المفاهيم الأصلية للإسلام في وسائله وغاياته؛ لنحدد كيف يرضى الله عنا، عندما نختار سلوك هذا الطريق أو ذاك.

وأخيراً.. ما هي الفكرة التي تفرض نفسها على تفكيري - وأنا أقدم كتابي هذا «قضايانا على ضوء الإسلام» في طبيعته السادسة - هل هو الاعتزاز الذاتي أو

الفكري بالقضايا التي يثيرها، أو بالنتائج التي استطاع أن يحققها على صعيد الواقع في الحركة الإسلامية الصاعدة؟. أم هو الشعور بأن هذه القضايا لا تمثل مجرد حركة فكرية لمرحلة معينة، بل هي نتاج نظرة واقعية مستقبلية قد تعيش في كثير من مراحل المستقبل، كما عاشت في بعض مراحل الماضي.. لأن كثيراً من مواضيعه، «العمل أولاً» و «التجربة أبداً» وأمثالهما لا تقف عند حدود بلد أو جماعة أو زمن، بل هي قصة الحياة كلها الباحثة عن العمل الذي يهزم الفراغ والاسترخاء واللامبالاة والبعد عن حركة الحياة، وعن التجربة التي تعطي للحياة فكرتها الواقعية وأسلوبها العملي المنطلق من دراسة للواقع على مستوى التطبيق الذي يؤكد للنظرية واقعيتها وسلامتها، أو يؤكد لها مثاليتها وخطأها...

كما هي قصة الإنسان الباحث أبداً عن الجديد في رضا الله، وفي الحصول على محبته في الطريق إلى طاعته.

هل الفكرة أن أثير التفكير للقارئ بهذه الطريقة؟

إنني لا أريد ذلك كله، وإن كانت مثل هذه الأمور تمثل محطة هادئة للتفكير، ومثيرة للانتباه وللاهتمام.

بل كل ما أريده أن أتابع الطريق مع القارئ المسلم في خط الدعوة إلى الله، والعمل في سبيله... من أجل أن أستوحي من تجربته في الحركة ما يستطيع من خلاله أن ينقد بعض هذه الأحاديث أو يرصد واقعيتها في هذه المرحلة، أو من أجل أن يستوحي منها بعض ما يحتاجه في مسيرته في الحاضر والمستقبل؛ إذا كان قد استوحي منها بعض ما احتاجه في الماضي.

إنني لا أؤمن بالتوقف الطويل أمام محطات الفكر السابقة، لأن ذلك قد يجعل من المحطة - التي تعيش في بعض مراحل الطريق - محطة نهائية يقف الناس عندها،

لتموت الحركة هناك فيتجمد خط السير أمام حالات الاسترخاء التي يرغب فيها المتعبون المجهدون، في شعورٍ بالاكْتفاء، يتحدّى كل طموح الرسالة وكل امتدادات المسيرة.

.. بل أؤمن بالحاجة إلى الامتداد والانتقال إلى محطات فكرية جديدة... من أجل أن نتطلع إلى الجديد في الأرض التي نسير عليها، وفي الأفق الذي نعيش فيه، وفي الإنسان الذي يتمثل فينا وفي الآخرين.

إن المسألة هي أن تملأ الحياة إسلاماً في الفكر وفي الحركة وفي المنهج... وفي الحياة.

فهل يستطيع هذا الكتاب أن يقدم للإسلام شيئاً من ذلك، وهل بقي فيه ما يمكن أن يثير في الإنسان فكراً جديداً أو يدفعه إلى تجربة جديدة، أو ينقله إلى مرحلة جديدة من خلال أفكاره؟

هذا ما أرجوه. كما أرجو من القراء أن أجد في ملاحظاتهم النقدية، في القراءة الواعية، بعض الأفكار التي تصحح فكرة خاطئة، أو تقوم أسلوباً منحرفاً.

وفي الختام أرجو من الله أن ينفعني به في آخرتي، فيكون سبباً إلى رضاه، كما أرجو من لطفه وعنايته أن يوفقني لاكتشاف الجديد في قضايانا على ضوء الإسلام، في كل مرحلة من مراحل حياتنا الباحثة أبداً - وفي كل يوم - عن الجديد في الفكر والحركة والحياة.

إنه وليّ التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين فضل الله

١٥ ذي القعدة الحرام ١٤٠٥ هـ

٣ آب ١٩٨٥ م - بيروت

بين الفكرة والعمل

العمل أولاً

التجربة أبداً

مشاريع دينية بلا دين

ما خالف كتاب الله فهو زخرف

لنحترم قدسية الكلمة

شهر رمضان: أجوائه - معطاته

تقاليدنا وأعيادنا

قضية وأسلوب

في موضوع الذكريات

مجتمعنا والقرآن

الكتاب مسؤولية المؤلف والناشر

العمل أولاً

أن نعمل أو لا نعمل.

تلك هي المشكلة في مفهوم فئة من الناس، وتلك هي القضية التي يدور الجدل فيها ويدور، دون أن يصل إلى نتيجة، تماماً كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. فعلامات الإستفهام تلاحقك في كل فكرة، ونوازع الشك تتحدى وجودك في كل محاولة.

أسئلة مثارة

ما هي قيمة العمل في واقعنا المعاصر؟ وما مدى قدرته على التأثير؟ وهل نستطيع الصمود أمام تحديات العصر في ما يعرض من مشاكل، وفي ما يثير من قضايا، وفي ما نفكر فيه من حلول وأهداف؟ ثم... ما نوع العمل الذي يلزمنا الاتجاه نحوه، من بين الأنواع المختلفة للعمل؟... وترسم علامات الاستفهام مرة ثانية حول صلاحية العمل السياسي للانطلاق في حياتنا الجديدة، تبعاً للأوضاع الطارئة التي تفرض هذا الأسلوب في سبيل تركيز خطى الإسلام في العالم، أو السير في مجال العمل التربوي والتثقيفي الذي يستهدف تركيز المفاهيم الإسلامية في أذهان الأمة، وتعميقها في نفوس أبنائها من أجل أن تحيا في واقعهم بعفوية واطمئنان.

ومرةً ثالثة ترتسم علامات الاستفهام، حول جدوى الأعمال الفردية في ما يراد تحقيقه من أهداف، وإمكانية العمل الجماعي وقدرته على الصمود أمام نوازع النفس وميولها، وأراجيف الباطل وتحدياته.

عقليّات مُحبطة

تلك هي بعض ملامح المسألة التي تواجه العاملين في بداية الطريق. أن نعمل أو لا نعمل.

ولكن.. هل يمكننا أن نعتبر العمل - في سبيل العقيدة - مشكلة تشغل الفكر وتتعب العقل؟

وما الذي يواجهنا في المستقبل، إن ابعدنا قضية العمل، غير الضياع والفراغ الهائل المخيف؟

إننا نحسب أن هذه التساؤلات لا تنطلق من الشك في أصل العمل، بقدر ما تنطلق من الشك في جدواه وقيّمته؛ فقد يُخيّل لكثير من الناس - وهم يشاهدون قوة الباطل وسيطرة الضلال - أن الفرصة قد أفلتت من أيدي العاملين في سبيل العقيدة، وأن الأوان قد فات، فلم يعد من الممكن أن تعود إلى الحياة تجربة إعادة الإسلام ليحيا في واقع المجتمع وتفكيره، كدين يستوعب الغاية والوسيلة، والأخلاق والتشريع، لأن الشوط الذي قطعه الإنسان في مضمار الحضارة، والآفاق التي وصل إليها في ميدان العلم، قد بلغت ما لم يبلغه واقع الإسلام الحاضر في خطاه وآفاقه، لأنه ظل طيلة هذه المدة واقفاً يتفرج ويترقب دون أن يشارك في دفع عجلة الحضارة إلى الأمام، ولذا فسوف لن يصل إلى مرحلتنا الحاضرة إلا بعد أن يكون الإنسان قد قطع أشواطاً جديدة، وانطلق في أفاق مستحدثة. وهكذا دواليك، تبقى الخطى متأخرة عن شوط الزمن.

وربما نجد فئة أخرى من الناس تؤمن بالعمل وترى أن في مفاهيم الإسلام وتشريعاته وقواعده العامة من الحيوية والمرونة والخصوبة، ما يستطيع أن يسابق الزمن أو يسبقه، لأن الإسلام لم يكن وليد فترة معينة لينتهي بانتهائها، وليس دين جيل معين، لينتهي بانتهاء التجارب السابقة، له، ويزول بزوال مفاهيمه وقيمه الماضية، ولكنه دين الله الذي أراد الله للحياة في شوطها الأخير، فكان كما أراد الله له منسجماً مع حاجات الزمن، في ضمن الإطار الحي للعقيدة والأسلوب النظيف للفكرة، ولذا فلن تؤثر عليه فترة معينة، أو تسبقه أحداث جديدة، الأمر الذي يجعله صالحاً لقيادة الحياة في مجالاتها الواسعة ومستقبلها الطويل كما يجعل العمل من أجل ذلك ممكناً. ولكن.. كيف نعمل؟ هذا هو السؤال الذي يدور في ذهن هذه الفئة. أو بالأحرى؛ ما هو نوع العمل الذي يجب علينا القيام به؟ فكل صورة في المجتمع مشوبة بالزيف والتزوير، وكل نموذج من نماذجهم متهم بالانحراف والتشويه، محكوم عليه بالفشل والخذلان.. وهكذا دواليك، في عملية اتهام وتشكيك... - في نظر هذه الفئة - في كل مجال من مجالاته، وكل خطوة من خطواته.

ولا بد لها - في نهاية المطاف - من أن تلتقي بالفئة الأولى في الابتعاد عن العمل، لأنه غير ممكن، أو لأنه لا يجدي شيئاً ما دام العمل الأفضل والأحسن والأكمل غير وارد في ما لدينا من أعمال، وفي ما نفكر فيه من مشروعات المستقبل.

وقد نلتقي بفئة ثالثة، تؤمن بالعمل، وتشارك فيه من دون أن تقدم أمامه شروطاً تتطلب العصمة فيه وبُعدَه عن كل شك وريبة واتهام، ولكنها لا تؤمن بقيمته ولا بجذواه، ولا تعتقد أن في النتيجة التي نخرج بها من ورائه ما يبرر الجهد الكبير الذي يبذل، والعقبات الكبيرة التي نقطعها ونذلها في سبيله. ولذلك فإن هذه الفئة لا تتحمس للعمل ولا تندفع فيه، وإنما تشارك فيه مشاركة عادية، من أجل إبراء الذمة، والخروج عن العهدة من دون أن يكون هناك شيء أبعد من ذلك.

هذه نماذج عدة لا نزال نعايشها في ما نعيش من أوضاع وأشخاص، وربما يكون هؤلاء الذين يمثلون هذه العقليات أو الاتجاهات، مخلصين في ما يعتقدون وفي ما يفكرون به.

ولكن هل يكفي الإخلاص دليلاً على صحة الفكرة، وشاهداً على سلامة الاتجاه؟ فهو لا يمثل إلا المبرر الذاتي للعمل الذي لا يصادف الواقع، والوجه المضي للعمل إذا صادف الحقيقة وانسجم مع الواقع.

وعلى ضوء هذا.. فلا يمنعنا هذا الاقتناع الوجداني بإخلاص هؤلاء من أن نرسم بعض علامات الاستفهام في الطريق، لتتوقف قبل أن نندفع في الحكم عليهم أو لهم.

المهمة الرسالية

ومرة أخرى.

هل نعمل، أم يجب علينا التوقف في بداية الطريق؟

لن نستطيع الدخول في جواب حاسم لهذا السؤال إلا بعد وعي الحقيقة في السؤال الأعمق الذي يحاول أن يحدد مسؤوليتنا الدينية والاجتماعية.

ما هي مهمتنا - على التحديد - كإناس يحاولون وعي قضية الرسالة وحركتها داخل الحياة؟

ربما يبدو - من الطبيعي جداً - أن نقول: إن من أولى مهماتنا الرسالية العادية أن نحافظ على استمرار الوجود الإسلامي في الحياة، أو إبقائه كقوة فاعلة حية قوية في التاريخ الحضاري للإنسان، ورسالة إلهية تشير إلى القيم الروحية في أعالي القمم، من أجل أن يبلغها الإنسان.

ذلك هو المنطلق للمهمة الأساسية الأولى، التي تنتظر وجودنا الرسالي في حساب العمل؛ فهو الذي يحدد لنا معالم الطريق، ويشير إلى أهدافه، ويأخذ بأيدينا إلى أفيائه الوارفة، وأجوائه النضرة.

وهنا نستطيع أن نجيب عن السؤال الآنف الذكر حول ما إذا كنا نختار خط العمل أو التوقف في بداية الطريق.

مخاطر الانتظار

إن علينا أن لا ننتظر لنصرف الوقت في الجدل العقيم الذي لا يجدي ولا يعطي شيئاً، لأن الترف الفكري الذي يبحث عن الإطار المشرق للفكرة، والثوب المزخرف البراق للكلمة، قد لا يكون له محل في مرحلتنا الحاضرة التي جعلت وجودنا في قمة الصراع، وفي قلب التحدي؛ ولذا فلا بد لنا من أن نقرر العمل - كمبدأ - ثم ندخل في بحث التفاصيل. لأن الوقت لم يعد يحتمل التريث والانتظار، فكل دقيقة تمضي وكل لحظة تمر، تزيد في حساب الخسائر وتؤخر قضية الربح في المستقبل.

لسنا نقرر ذلك لأننا نؤمن بالسرعة كأساس للعمل أو لأننا نعتبر الحماسة منطلقاً للحركة، أو لأننا ننكر على الفكر أن يستقر ويتأمل ريثما يخلق، أو لأننا نأخذ على الإنسان أن يفكر في خطواته قبل أن ينطلق.

لسنا من رواد السرعة، وأنصار الحماسة، ولسنا من أعداء الحذر في الخطى والتفكير في العواقب.

ولكننا نعتقد أن قضية العمل - كمبدأ - لا تحتمل الجدل والمناقشة، ونحسب أن الإفساح في المجال للمجادلات العقيمة التي لا تنتهي، لا يجدينا شيئاً إلا زيادة تأخير في الانطلاق نحو الهدف.

وقد يخيل لنا أن مثلنا مثل الإنسان الذي يجد نفسه في قلب المعركة، في الوقت الذي يجب عليه تخطيط الخطط، وإيجاد السلاح.. فقد لا نتوهم أن على هذا الإنسان أن ينسحب، في الوقت الذي يمكنه أن يربحها في الأخير أو يقلل من خطورة الانسحاب.

ومن هنا اعتبرنا الإيمان بالعمل مبدأ لا يحتمل الجدل والمناقشة، ولا يدع مجالاً للأخذ والرد. ولكن ذلك لا يمنعنا من بحث التفاصيل، وإثارة علامات الاستفهام حولها، كيف نعمل، وما هو نوع العمل، وما هي وسائله وغاياته، وما قيمته وعواقبه؟؟

فقد يكون ذلك كفيلاً بإيجاد جوٍ جدّي للفكرة، تسيطر عليه روحية الإيمان بالعمل وضرورة تركيزه على أساس متين.

اختلاف أساليب العمل

وإذا كانت مهمتنا الأولى هي المحافظة على استمرار الوجود الإسلامي كقوة فاعلة في تاريخ حضارة الإنسان، فقد يخيل لنا أن هذه المهمة لن نستطيع أن تنطلق في حياتنا إلا إذا استطعنا أن نحدد أساليب العمل وأدواته، وتركيز مقاصده وخطواته، من دون التواء وانحراف.

وربما كان من المفيد لنا - ونحن نبحث في ذلك - أن نلاحظ وجود اتجاهات عدة في تحديد خطوات العمل لدى العاملين في سبيل الله :

أ - فقد يرى بعضهم أن الوسيلة المجدية التي تكفل استمرار الوجود الإسلامي هي العمل على إيجاد تربية إسلامية في نطاق الأفراد المسلمين الذين نعيشهم، ومن ثم ننطلق إلى امتداد هذه التربية في الربوع غير الإسلامية من توسيع هذا الوجود في العالم.

وتتلخص هذه المهمة في اعتبار رسالة الإنسان المسلم رسالة تربوية تبشيرية في نطاق الأفراد.

ويرى هذا البعض أن مثل هذا العمل الهادئ الذي لا يعارض جهة، ولا ينازع سلطة، ولا يتحدى جماعة، كفيلاً بأن يعطينا نتائج طيبة؛ فهو لا يستهدف إيجاد

تكتل معين ليصطدم بالتكتلات الأخرى الموجودة في قلب العالم الإسلامي، ولا يريد الوصول إلى الحكم أو الانطلاق نحو هدف الدولة الإسلامية، ليمثل تحدياً عنيفاً للحكم القائم، والأنظمة التي تعيش في بلاد المسلمين.

ولهذا، فإنه في الوقت الذي يساعدنا على تجنب عقبات الطريق وتقليل أخطاره، يتكفل لنا بإيجاد مسلمين واعين في كل مجتمع من المجتمعات، يستطيعون أن يحملوا رسالة الإسلام إلى الأجيال الآتية من أجل بقاء أمانة الرسالة حية في ضمير الإنسان.

ب - وقد يرى بعضهم أن الوسيلة الوحيدة لبلوغ الهدف الأسمى هي إيجاد المجتمع المسلم الذي يتنفس فيه الإنسان روحية الإسلام وأنفاسه الطاهرة، بما يثيره في نفس كل فرد منا من الشعور الحي بالارتباط الواعي بالآخرين، والعلاقة الروحية القوية التي يُظَلِّها الله سبحانه برحمته، ويرعاها بلطفه، ويتنفس عليها بعفوه وغفرانه.

فليست القضية قضية تربية إسلامية فردية، تتكفل بإيجاد أفراد مسلمين يعيشون المفاهيم الإسلامية، ويحيون الثقافة الدينية الواسعة، من دون أن تجمعهم رابطة أو تضمهم وحدة، وإنما هم حلقات منفصلة، لا تصل بينها إلا طبيعة العقيدة الواحدة، مع تشتت المشاعر، وتلون الاتجاهات والميول؛ بل هي قضية تربية اجتماعية جماعية، تتكفل بإيجاد مجتمع مسلم تتكفل فيه القوى حول هدف واحد، ويتجمع فيه الأفراد على صعيد واحد، في إطار من المحبة والشعور والإيمان، وتتجه فيه القلوب نحو قضية واحدة ومستقبل مشترك.

ويرى هذا البعض أن مثل هذا العمل كفيل بأن يصون الجيل الذي يراد إيجاده، وحماية الوجود الذي يراد استمراره، من التيارات الضالة والكافرة التي تكافح في سبيل الإطاحة بالإسلام فكرة وعقيدة ونظاماً وأسلوباً للحياة. إذ قد لا نجد في التربية الفردية من المناعة ضد الاغراء والضعف، ما نجده في التربية

الجماعية، التي تشد الفرد إلى إخوانه فيضيف إلى قوته قوة، وإلى عزيمته عزيمة، وإلى صموده صموداً.. الأمر الذي يصونه من الانهيار والذوبان في غمار الآخرين، ويحميه من الالتواء والانحراف.

ج - وقد يرى بعض آخر أن الإسلام لن يستطيع أن يقف على قدميه ويتحرك كقوة فاعلة في تاريخ حضارة الإنسان، إلا إذا استطاع أن يقود سفينة الحياة بيده إلى الشاطئ الآمن وذلك بأن يحكم قانونه البشرية بحكمه العادل وتسيطر مفاهيمه وقيمه على اتجاهات الإنسان وأهدافه، وتظل عقيدته السمحة الحقنة ذهنية الإنسان وفكره.

ولن يتحقق ذلك - في نظر هذا البعض - إلا بالعمل الجدي من أجل إعادة الإسلام إلى الحياة على النطاق السياسي، الذي يجمع - إلى جانب السلطة التنفيذية - السلطة التشريعية، والتربوية، والثقافية، والاجتماعية، وغير ذلك.. الأمر الذي يجعل الإنسان يعيش عقيدته، ويحيا دينه في وحدة كاملة مترابطة، من دون تجزئة في المفاهيم، أو ازدواجية في الخطى.

ويجد هؤلاء أن ذلك هو السبيل الوحيد للسيطرة على حركة الإسلام في الحياة، وتوجيهه الوجهة الصالحة القوية التي لا تنحرف ولا تزيف، لأنه لا يسمح للقوى الأخرى - الضالة والكافرة - بأن تتدخل في عملية التوجيه أو تشارك في طبيعة الحكم والتشريع، ومن ثم يبقى المجال فسيحاً أمام الإسلام ليخطط حياة الإنسان بنفسه، حسب مفاهيمه وخطوطه العامة والخاصة.

فليست القضية قضية أفراد يفهمون الإسلام ويعيشونه، ثم يذوبون في غمار الحياة من دون كيان أو سلطة؛ وليست قضية مجتمع يشترك أفراداه في أهداف وغايات موحدة، ثم لا يستطيعون أن ينطلقوا نحوها بحرية واطمئنان، لأن السلطة التي تمسك زمام الحكم وتستولي على مقاليدته، تقف لهم بالمرصاد لتحصي عليهم أنفاسهم وتأخذ عليهم حركاتهم وسكناتهم، وتقيد خطواتهم في أقوالهم

وأفعالهم. فهم - والحال هذه - لا يهتدون إلى حيلة ولا يجدون سبيلاً، ولن تكون النتيجة - بعد ذلك - بأفضل من نتيجة الأفراد حيث الذوبان والانحراف في غمار التيار.

بل القضية قضية دولة تحكم باسم الإسلام، وتشرف على تحقيق أهدافه وتجسيد مثله وقيمه، من أجل المحافظة على سلامة الدعوة وعالميتها وشمولها وانطلاقها في رحاب الحياة كقوة حضارية رائدة.

تلك هي الخطوط التي يسير عليها العاملون في سبيل الله من أجل تحقيق الهدف الأسمى؛ وهو استمرار الوجود الإسلامي في الحياة، حسب اختلاف وجهات النظر. ويتلخص في نقاط ثلاث.

أ - العمل التربوي والتبشيري في نطاق إيجاد أفراد مسلمين واعين يحملون أمانة الإسلام في كل جيل.

ب - العمل الجماعي في سبيل إيجاد المجتمع الإسلامي المترابط الموحد في كل دولة وفي كل جيل.

ج - العمل على بعث الدولة الإسلامية، وإيجاد الكيان السياسي للإسلام في العالم.

لا تصادم بين الأساليب

ولسنا هنا في معرض الترجيح والمحاكمة، لنحاول اختيار إحدى هذه الوسائل في طريق الهدف.

ولكننا نستطيع الإشارة إلى قضية حيوية في هذا المجال، وهي أننا لا نجد أي تصادم وتنافر في طبيعة العمل بين هذه الجهات. بل الأمر على العكس، فإن أي وسيلة من هذه الوسائل تمثل المرحلة التمهيديّة للوسيلة الثانية. ذلك أن إيجاد الأفراد المسلمين عن طريق تنميتهم وتعبئتهم روحياً وثقافياً في المجتمع، يمثل

الخطوة الأولى، كما أن وجود المجتمع الإسلامي الموحد شعوراً وعقيدة وغاية، يمثل القاعدة الأساسية لنشوء الدولة الإسلامية وانطلاقها. فما لم نستطع إنشاء المجتمع الإسلامي، فلن نستطيع بعث فكرة الدولة فضلاً عن تنفيذها. وقد أصبح من نافلة القول : إن الدولة التي لا ترتكز على قاعدة شعبية، تعتنق عقيدتها وتتبنى مفاهيمها، وتسير وفق خطوطها وخطواتها، لن يقدّر لها البقاء طويلاً.. وهكذا تستطيع كل فئة من هذه الفئات الثلاث التي تتبنى واحدةً من الجهات المتقدمة أن تعمل في نطاقها من دون أن تصطدم بالفئة الأخرى، بل تستطيع كل فئة أن تستفيد من الخطوات العملية التي تبلغها الفئات الأخرى.

وقد يجد البعض في هذا الاتجاه ما ينافي الدقة في تحليل الموقف، فيلاحظ أن الاصطدام بين هذه الفئات أمر حتمي وطبيعي كنتيجة لاختلاف خطوط العمل، التي قد تفرض على كل واحد أن يعارض الآخر لأن أسلوبه في العمل قد يضع العقبات أمام أسلوبه الخاص، وهكذا تنتشعب القضايا وتتنوع الجهود.

ولكننا نلاحظ على ذلك.. أن تحليلنا للموقف كان يرتكز على مراعاة طبيعة العمل من دون نظر إلى الطوارئ والعوارض الخارجية التي تستدعي إخلاص الداعية ونظره الصائب، الذي يتعمق في دراسة الموقف من جميع وجوهه؛ ويلاحظ مدى ضراوة القوى الكافرة في محاربة خطوات الإسلام جملة وتفصيلاً، الأمر الذي يحتم على العاملين أن لا يبعثوا جهودهم في المنازعات الداخلية، بل يتوجّب عليهم أن ينصرفوا إلى متابعة أعمالهم بحسب أساليبهم من دون اصطدام بالآخرين.. أما المناقشات والتفاصيل، فقد يرى الجميع وجوب تأجيلها إلى جو أهدأ وأفق أرحب، من الأجواء والآفاق التي يعيشها الإسلام في العصر الحاضر..

* * *

التجربة أبدأ

عقدة الفشل

كثيرون أولئك الذين تلتقي بهم وتتحدث إليهم في قضية العمل في سبيل الله، في مختلف مجالاته، فلا تلمح بينهم إلا المتشائم الذي يرى عدم الجدوى في كل ما نعمل من أعمال، وما نقوم به من مشاريع، ويرثي - في الوقت نفسه - لهؤلاء الذين يجهدون أنفسهم ويفنون أعمارهم في سبيل قضية خاسرة وهدف خيالي. فإذا استطلعت حديثه، وحاولت أن تعرف دوافع هذا التشاؤم وبواعث هذا القلق، فإنه سيبدأ معك قصة طويلة، يحدثك فيها عن تجاربه في ميدان العمل، وكيف تعاون مع فلان فخان الفكرة، وعمل مع آخر فحول الفكرة إلى خدمة أمجاده الشخصية، لترفع من قدره، وتُعلي من شأنه.. ومدُّ يده إلى ثالث فلم يجد إلا الالتواء والانحراف عن الهدف المقصود إلى أهداف لا تلتقي بالفكرة من قريب أو بعيد ان لم تباينها... وهكذا تتعدد التجارب، ويتكرر الفشل وتتنوع ألوانه، حتى تصبح القضية عقدة في ضمير صاحبها؛ وينتهي به الأمر إلى أن يتجمد ويستسلم لأعماله الخاصة، بعد أن يكون قد اقتنع - في سلامة ضمير وراحة وجدان - بأن التكليف قد سقط وإن الذمة قد برئت، فلا حساب ولا مسؤولية، من جانب الله، أو من جانب البشر. وإذاً فعلام التعب، وإلام الجهد ما دامت النتيجة لا تبشر بخير؟

وهكذا تصبح التجربة مصدر جمود ويأس، بعد أن كان المفترض فيها أن تعود منطلق حركة وبداية طريق وإشراقة أمل.

وبدأ إخفاق التجربة عند هؤلاء وفشلها في حياتهم، يتحول إلى حجة على العاملين في سبيل الله، أو الذين لا يزالون يعملون؛ لأنهم لم يصطدموا بالتجربة، ولم يعانون مرارة الفشل. وأصبحت من بين المبررات التي يبرر بها المتخاذلون تخاذلهم وتراجعهم، ويتخذونها أداة لإثارة الروح الانهزامية اليائسة في كيان العاملين عندما يحاولون السير في طريق الجهاد.

الأمل الدائم

ولكن.. هل هذا صحيح؟

هل نفهم من هذا.. أن إخفاق التجربة دليل فشل الفكرة، وأنّ تعرُّب الخطى في بداية الطريق يوحي بعدم القدرة على مواصلة السير من جديد؟ وهل يريد هؤلاء منا أن نقف ونتجمد عند أول تجربة، ونياأس عند أول بادرة للفشل؟

تلك هي بعض علامات الاستفهام التي يثيرها موقف هؤلاء الناس ولا تزال تبحث عن جواب.

وما ندري، أنكون مجانبين للحقيقة إذا قلنا: إن ما نخشاه من هؤلاء الذين يفكرون هذا التفكير ويحاولون أن يقنعوا الناس بصواب هذه الفكرة هو أن لا يكونوا - هم أنفسهم - مقتنعين بها من ناحية المبدأ، ولكنهم يبحثون فيها عن المبرر للتقاعس وحب الراحة والسلامة.

والآ... فما معنى أن يكون إخفاق تجربة ما، في زمان معين، ومكان معين وظروف خاصة، حجةً على إخفاق بقية التجارب التي يمكن للإنسان أن يستقبلها في المدى الطويل، مع اختلاف الزمان والمكان والظروف.

هل نفهم من هذا، انهم لا يحسبون لهذه الأمور حساباً، ولا يعتبرون عنصر الزمن في حساب التطورات.. وإنما يقيسون الحاضر بالماضي والمستقبل بالحاضر.. وهكذا يحصرّون الزمن في دائرة معينة، لا تقبل التطور والتجديد والتغيير.

وبعد هذا.. لا نريد أن نهيم في متاهات النظريات، لنرد على هذه النظرة أو لنناقشها الحساب... بل نريد الاتجاه نحو الواقع في محاولة استنطاق لقصة التجربة في ميدان التقدم الحضاري للإنسان..

أما قصة التجربة في ميدان العلم.. فهي قصة الفكرة التي تتلقى الفشل تلو الفشل، فلا تقف ولا تتراجع، بل تظل صامدة في معركة البحث لتجرب وتجرب، حتى تنطلق النظرية، عن طريق الصدفة الخاطفة، في كثير من الأحيان، أو البحث الدائب المعمق الذي يتعثر بألف مشكلة، ويتخبط في أكثر من ليل دون أن يكل أو يمل.. وقصة التجربة في واقع الدعوات الدينية والاجتماعية، مليئة بقصص الاستشهاد والبطولة، وهي تتلقى الاضطهاد والعسف والتنكيل من قبل أعدائها وتواجه الصدمة تلو الصدمة، من أولئك الذين تحاول جاهدة أن ترفعهم إلى المستوى اللائق بهم في الحياة، وتنقذهم من واقعهم المظلم. ويتلقى روادها الضربات المتلاحقة، ويسقط الشهداء في الطريق.. ولكن الخطى تتقدم وتتقدم، وأخيراً تصل القافلة الصامدة إلى الهدف حيث القمة تظل شامخة في زهو الانتصار، لتجد الحياة وقد استسلمت لدعوتها، واستكانت لنظامها وتوجيهها، ولتلمح الفكرة تستوعب الحياة بكل ما فيها من مجالات الفكر والعمل. وما لنا نبعد كثيراً.. وفي حياة كل منا ألف قصة وقصة - عن تجاربه الشخصية - وهو يشق طريقه في الحياة ويركز أقدامه فيها، من أجل أن يكسب قوته ويحفظ عزة نفسه وكرامته ويغذي طموحه بالأمال الكبار والأحلام الجميلة فلا يجد أمامه - في أغلب الأحيان - إلا أبواباً مغلقة في وجهه، وأناساً لا يحترمون فيه كرامة الإنسان، وعقبات تتحدى فيه طبيعة التحدي

والمقاومة؛ فيتعثّر طموحه في كل منعطف وتتساقط أحلامه على أشواك الطريق، فلا يئأس ولا يتراجع، وإنما يجابه المصاعب بقوة، ويواجه العثرات بصبر، ويقابل اليأس والتشاؤم بالأمل، ويظل يتقدم... وتبدأ الحياة - بعد ذلك - لتفتح له ذراعيها فيجد عندها الطموح والحياة الكريمة العزيزة.

وهكذا كان الواقع، واقع التقدم الحضاري بكل ألوانه وأشكاله نتيجة عناد الإنسان وصلابته أمام الفشل، وصموده أمام التجربة، وعدم اقتناعه بقياس التجارب المستقبلية على ما مضى، وعدم استسلامه لدواعي اليأس والخذلان.

ولولا ذلك لوقف الإنسان - حيث هو - في مجاهل التاريخ، لأن التجارب الأولى - عادة - لا تشجع السائرين على مواصلة الخطى وإتمام الطريق، بل توحى لهم بالتراجع والوقوف حيث هم في بداية الطريق. وتلك هي طبيعة الحياة، وتلك هي سنة الله فيها، فهي لا تعطي قيادتها ولا تمنح كنوزها واسرارها إلا للصامدين الصابرين الذين يقابلون المأساة وهم يبتسمون ويصطلمون بالأهوال وهم يترنمون..

دروس التجربة

ولكن لماذا نجرب؟

وما هو دور التجربة في حياتنا - كمسلمين؟

أما الجواب عن السؤال الأول، فهو أننا نجرب لأننا نريد أن نعمل، ولن نستطيع العمل بقوة واتزان، إلا إذا عرفنا - بالتجربة - معالم الطريق ووعينا أهدافه وغاياته.

أما دور التجربة في حياتنا كمسلمين، فيتمثل في أكثر من أفق من أفاق المعرفة الخالصة..

فقد تكون التجربة محاولة لاكتشاف نظرية جديدة، عندما لا تكون الفكرة شيئاً ثابتاً في العقل، تماماً كمن يحاول أن يبحث وينقب، لأن هناك شيئاً ما في داخل

الأرض، أو مجاهلها، أو في أعماق البحار ومتاهاتها، من دون أن يدري على وجه التحديد طبيعة ذلك الشيء ونوعيته.

وربما كانت التجربة محاولة لاختبار صحة بعض الافتراضات الذهنية والاحتمالات الذاتية، التي لا يملك الإنسان فيها حجة مقنعة ورهاناً ثابتاً، فيحاول الوصول إلى ما يثبت له صحة هذا الافتراض أو خطأه.

وقد تكون التجربة محاولة لمعرفة الأجواء العامة التي يمكن للفكرة أن تعيش فيها، واكتشاف تأثير البيئة الزمانية والمكانية والاجتماعية على سير الفكرة، واختيار مدى مقاومتها لألوان التحدي التي تجابهها في ميدان الصراع في درب الحياة الشائك الطويل.

وهكذا تكون التجربة سبيلاً، للبحث عن الحقيقة، في الوقت الذي لا نملك سبيلاً لمعرفة بوضوح وجلاء. وعلى ضوء هذا.. نستطيع أن نحدد دور التجربة في حياتنا العملية التي تحاول أن تجعلنا أبعد عن الوقوع في الأخطاء، وأقل انحرافاً.. وذلك بما تمنحنا من معرفة توضح لنا معالم الطريق الذي نسلكه والهدف الذي نحاول بلوغه.

وإذا كانت القضية في هذا المستوى.. فربما نعرف حاجتنا إلى التجربة في كل وقت وزمان، لأن التجربة ليست كائناً مجرداً يخضع للمقاييس العقلية التي لا تقبل الجدل والمناقشة، بل هي كائن حي، يرتبط بما حوله من ظروف الزمان والمكان، ويخضع لتأثيرات المجتمع والبيئة التي يعيش فيها.

ولهذا فلا بد لنا من دراسة التجربة في ضوء هذه الظروف والاحتمالات.. ومن ثم الانطلاق نحو تلمس الفكرة التي نأخذها بحذر.. فلا نفق في متاهات الأحكام السريعة المرتجلة، التي لا تركز على أساس ولا تخضع لقاعدة فكرية ثابتة، والوقوف بها - حيث هي - في حساب الزمان والمكان.

وهكذا تكون التجربة نافعة لنا في حياتنا العملية والفكرية، وتؤدي دورها في خدمة القضايا التي نعمل في سبيلها.. لأنها تجنبنا المواقف السلبية تجاه عوامل الفشل والاختفاق، فبدلاً من أن يتحول الفشل إلى عامل لليأس والتشاؤم، يصبح موضوع دراسة تفتح الطريق أمام دراسة أوسع، ومعرفة أشمل توضح لنا طبيعة العمل في المستقبل وكيف نستطيع إبعاده عن نوازع الفشل.

وبهذا نعرف كيف تنهأوى الحجة التي يتذرع بها المتعاسون عن العمل ونفهم جيداً أن إخفاق التجربة - أية تجربة - لن يصلح دليلاً على فشل الفكرة العامة، بل أقصى ما هناك أنها تصلح دليلاً على عدم انسجام الظروف.

تجارب الأنبياء

ولو أغفلنا - في حسابنا - كل ما تقدم من الشواهد والدلائل على ضرورة الابتعاد عن الحكم على الفكرة من خلال إخفاق تجربة واحدة، أو الاستسلام لليأس عند الاصطدام بأول عقبة، لو أغفلنا ذلك كله، وأغمضنا أعيننا عن كل ما في الحياة، لكان لنا في تاريخ الأنبياء الذي يعرضه القرآن دروس - أي دروس - في الإصرار على التجربة، حتى يتحدى كل نوازع اليأس ما دام هناك مجال للأمل ومنفذ للتفاؤل.

وكانت قصة نوح النبي مثلاً قرانياً يحتذى في هذه القضية، فقد مكث في قومه - في ما يحدثنا القرآن - «ألف سنة إلا خمسين عاماً» واستنفد كل ما يملك من أساليب الإقناع وكل ما عنده من طرق الدعوة، من دون أن ييأس أو يكل أو يمل.. وامتدت تجربته وامتدت - عبر مئات السنين - تتنوع وتتشكل وتتلون بألوان وصور مختلفة... وجاءت النهاية بعد أن نفذ الرصيد وذاب أمام التجارب التي لا تدخل في نطاق العد والحصر، فوقف ليدعو بهذا الدعاء المؤثر الذي يمثل روح النبي الداعية الذي يبدو وكأنه يقدم حسابه لله ويعرض تقريره للخالق، في ما عمل وفي ما قدم من تجارب.

﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً *
واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا
ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتهم جهاراً * ثم إني
أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾^(١).

وتستمر تجارب الأنبياء وجهودهم في حلقات متصلة، لا تنتهي عند نبي إلا
ليبدأها نبي آخر بالدعوة إلى الإيمان بالله بشتى الوسائل والأساليب؛ حتى ظهر أمر
الله وانتشر، وأصبح دين الله قوة تحكم الحياة وتقودها برغم كفر الكافرين وضلال
الضالين..

وكانت نهاية التجربة النبوية على يد نبينا الأعظم محمد (ص)، الذي كانت حياته
سلسلة تجارب مريرة لم يقف فيها لحظة واحدة. وكانت سيرته - وهو في مكة - مثلاً
من أروع الأمثلة على الإصرار على الحق والصمود أمام عوامل الفشل والاختفاق.
وكانت تجاربه تتلون وتتنوع، حسب تنوع الأشخاص والأوضاع. وقد انتهى به
الإصرار على التجربة في أداء الرسالة والدعوة إلى الإيمان، أنه كان يدعو المشركين
إلى أن يسمعوا القرآن فحسب دون أن يكلفهم مهمة الإيمان في البداية.

ونجحت التجربة، وانتصر الصمود وانطلقت دعوة الله في أرجاء المعمورة حية
قوية، توجه الإنسان إلى مصيره النير في الدنيا والآخرة وتقوده إلى حيث الخير
والمحبة والسلام في ظلال الإيمان بالله والالتقاء برحمته ولطفه.

الفرج الإلهي

وإيمان بالله من أقوى العوامل التي تساعد الإنسان على الاستمرار في التجربة
حتى النهاية، لأنه يفتح له أبواب الأمل والتفاؤل في كل تجربة وفي كل موقف،
كنتيجة طبيعية للعقيدة الإلهية التي توحى للإنسان أن بعد العسر يسراً، وأن بعد

(١) سورة نوح؛ ٥ - ٩.

الضيق فرجاً، وإن الله قادر على أن يغيّر الأمور من حال إلى حال، وأنّ على المؤمنين أن لا يقنطوا من رحمة الله ولا ييأسوا من روحه فإنه ﴿لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وهكذا تشارك العقيدة في فتح أبواب الأمل أمام العاملين، لتساعدهم من الناحية النفسية والفكرية على أن يعاودوا التجربة من جديد كلما أخفقت، ويسارعوا إلى تجديدها كلما فشلت، حتى يأتي النصر من عند الله استجابة لوعده في قوله تعالى ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢).

تجارب الآخرين

تلك هي بعض الظلال التي نحاول أن نلقيها على دورنا في التجربة ودور التجربة في حياتنا.

أما موقفنا من تجارب الآخرين... فقد نجد الكثير منها قامت بها جماعات غير إسلامية، دينية وغير دينية، دفاعاً عن عقائدها ومبادئها؛ وقد نلمح - في الوقت نفسه - بعضها قامت بها بعض الجماعات الإسلامية - ذات الألوان المختلفة - من أجل أن يقود الإسلام ركب الحياة، وتتركز مفاهيمه وقيمه.

وقد نجح بعض هذه التجارب، وأخفق بعضها الآخر.

أما موقفنا من هذه التجارب فهو موقف الباحث الذي يحاول أن يستفيد من خبرات الآخرين وتجاربهم، ولكن بحذر ودقة، لئلا يقع في بعض الالتباسات التي قد تبعده عن هدفه.

تجارب غير إسلامية

وبالنسبة للتجارب التي قامت بها الجماعات غير الإسلامية، فلا بد لنا من

(١) سورة يوسف؛ ٨٧ .

(٢) سورة محمد؛ ٧ .

دراسة طبيعتها، ومدى علاقتها بالأفكار والمعتقدات التي يدعو إليها هؤلاء، من أجل أن نعرف أوجه النجاح والفشل، من حيث ارتباطها بأسلوب العمل من دون أن يكون له علاقة بالفكرة، أو القضية بالعكس، كأن يكون ذلك الأثر مرتبطاً بالفكرة وحدها دون الأسلوب، أو بالأسلوب والفكرة معاً.. فإن مثل هذه المعرفة تستطيع أن تقدم لنا الشيء الكثير عندما نريد أن نأخذ بعض هذه التجارب وندع البعض الآخر.

وتواجهنا في هذا المجال تجربتان: الأولى دينية والثانية غير دينية.

أما التجربة الدينية فتتمثل - بشكل واضح - في النشاط الذي يقوم به التبشير المسيحي في العالم. فقد نلاحظ أنه قد نجح إلى حد كبير في إيصال المسيحية إلى أفاق شاسعة من المعمورة، كما نلاحظ إنه قد استغل جميع أوجه النشاطات والخدمات الاجتماعية والثقافية وغيرها، سواء كان ذلك بإنشاء المستشفيات أو المعاهد أو المي�ام. ولم يقتصر على ذلك بل حاول أن يجعل من المسيحية طابعاً للأحزاب السياسية، كما هي الحال في بعض الدول الغربية.

وقد حاول القائلون على شؤونها أن ينظروا في تجاربهم السابقة ومدى ما تشتمل عليه من نقاط القوة والضعف، ليحوروا بعض المقررات السابقة ويبدلوا بعضها الآخر.

وأخيراً.. كان الموقف الإيجابي الذي اتخذه (المجمع المسكوني) في فتح باب الحوار بين المسيحية وبين الأديان والمبادئ الأخرى حتى الإلحادية.

وعلى أي حال، فقد يكون من الخير لنا أن نفتح على هذه التجارب وندرسها، لنستفيد منها في كيفية تأثير هذه النشاطات في مجال الدعوة، ومدى الأثر الذي يمكن أن يحتفظ به الحس الديني في حياة الناس، وقابلية الشعوب لتقبل الدين كأساس للقيم في حياتها العامة والخاصة.

ومن الجانب الآخر، نحاول التعرف على الأساليب المتبعة في دعوة الناس إلى

الإيمان بالمسيحية، من قبل دعاة التبشير، ومقدار نجاحها في الوصول إلى الغاية المقصودة، والاطلاع على الطرق التي يستعملونها تجاه الإسلام في المجتمعات الإسلامية، سواء في ذلك المجال الثقافي والتربوي أو الاجتماعي بشكل عام. ونحسب أن مثل هذه الدراسة الواعية، تفتح لنا آفاقاً جديدة، وتزودنا بخبرات واسعة، وتجعلنا نعي دور التبشير في مجتمعاتنا الإسلامية، ومخططاته المتجددة في كل آن، بشكل أعمق. الأمر الذي يجنبنا الانهيار والذوبان مع الشعارات البراقة والأساليب العاطفية، وبالتالي فقدان الأصالة في شخصيتنا المسلمة. وبهذه المناسبة، نحب أن نشير إلى بعض الاتجاهات التي تنطلق، من هنا وهناك، في محاولة للتوحيد بين الأديان، أو بالأحرى، لإيجاد تعاون وتقارب أقوى وأوثق من أجل تركيز القيم الدينية العليا.

إننا نحب أن نشير إلى هذا كموقف جديد، نحاول أن نتفهمه ونعيه ونحدد مواقع أقدامنا منه على ضوء من الدقة والعمق.

ففي الوقت الذي نحاول ألا نقلل من شأن هذه الخطوة وتأثيرها على مستقبل الدين في الأجيال الآتية، نود أن لا يكون هذا الاتجاه أداة للمساومة والمجاملة على حساب القيم الأصيلة للإسلام. فقد يكون من الخير لنا أن نعرف أن أي اتجاه للتقارب بين أي جهة وأخرى لن يكون واقعياً وعملياً إلا إذا كان كل من الطرفين ذا شخصية مستقلة، لا تغلبها نوازع الضعف ولا تتقاذفها رياح الهوى. أما إذا كان أحدهما ضعيفاً لا يملك إلا أن يبتسم ويجامل، من دون أن يعرف ما حوله من أحداث وحركات.. وكان الطرف الآخر قوياً يتقن استغلال الظروف واستخدام المناسبات واقتناص الفرص، فإن القضية تصبح - حينئذ - عملية خداع واحتيال في ثوب من الشعارات الزائفة.

لا بد لنا من أن ندخل في حسابنا كل هذا.. عندما نريد أن نعمل، ولا بد لنا من أن نعي طبيعة الموقف قبل أن نتقدم، ولن يكون ذلك، إلا إذا كنا نملك عمق الفكرة،

وسعة الأفق، وذكاء الحس، وأصالة التجربة وقوة الشخصية.

وأما التجارب غير الدينية، فتتمثل بالأحزاب العقائدية الإلحادية والمنظمات الكثيرة ذات الطابع الاقتصادي الخاص وغيرها. فقد نجحت في السيطرة على الحكم في بعض البلدان، واستطاعت أن تزرع قواها في بلدان أخرى وفشلت - في الوقت نفسه - في بعض المواقف.

أما علاقتنا بها، فتبدو - بوضوح - في دخولها إلى بلادنا الإسلامية وسيطرتها على قطاع كبير من أبناء أمتنا بشتى الأساليب، وفي اعتبارها قوة مناهضة للدعوة الإسلامية في العالم.

وعلى ضوء هذا، فلا بد لنا من الاطلاع على تجاربها في ميدان العمل وأساليبه، فقد نستفيد من ذلك في طرقنا العملية الخاصة، وفي تعرف أساليبها التي تتبعها في التبشير بأفكارها في مجتمعاتنا الإسلامية الخاصة ومدى نجاحها في تحقيق الهدف المقصود.

تجارب إسلامية

وهناك تجارب إسلامية قامت بها جماعات كثيرة من المهتمين بالعمل الإسلامي، فقد حدثت عدة محاولات جادة في تركيز العقيدة الإسلامية في النفوس ونشر تعاليمها بين الناس.. وتعددت الاتجاهات؛ فكان الجانب الثقافي يستأثر باهتمام بعضهم وذلك عن طريق فتح المدارس والمعاهد، التي تعنى بتربية الناشئة تربية دينية بالإضافة إلى التربية العلمية الحديثة... ويتمثل بعضها في الجانب السياسي، الذي يستهدف إقامة حكم إسلامي في داخل بلاد المسلمين. وهناك فئة ثالثة تعمل على الصعيد الاجتماعي العام.

وقد أخفق بعض هذه المحاولات ونجح بعضها الآخر.. حسب اختلاف الظروف والأوضاع.

فلا بد لنا من أن نعرف، لماذا نجح هذا، وأخفق ذاك؟ وما هي عوامل الخطأ والصواب في التجربة؟ ذلك هو ما نستطيع أن نعرفه في دراسة التجربة التي عاناها هؤلاء، لنتفادى الأخطاء التي وقعوا فيها، من أجل أن نكون أكثر وعياً لواقعنا، وأبعد عن الانحراف في مجال العمل.

وماذا بعد ذلك؟

إن علينا أن نجرب ونحن ندعو، ونجرب ونحن نعمل.. ونجرب ونحن نفكر.. ونجرب ونحن نضع الخطط وننفذ المشاريع.. ونجرب حتى لا يبقى هناك مجال للتجربة.. حتى يكون العمر كله تجربة في سبيل الله.. وفي سبيل دينه وشريعته.. وهو - سبحانه - ولي النصر والتوفيق والسداد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

مشاريع دينية بلا دين

أسوارنا تتهاوى

في غمرة الرياح الهوجاء التي اجتاحت، بسمومها اللافة واندفاعاتها المجنونة، عالمنا الإسلامي؛ أفاق المسلمون على الواقع الجديد، يتطلعون إلى نتائجه ويفكرون في أسبابه، ويتابعون خطاه، وهو ينشر مفاهيمه ويبشّر بقيمه، ويفسح الطريق إلى تعاليمه، لتدخل في حياة الناس وتأخذ عليهم أحاسيسهم وأفكارهم. ولم يكن هذا الواقع، إلا الصورة الحية للحضارة المادية، التي تسلفت الأسوار لتغزو تاريخنا، وتدمر كل قيم الروح في حنايانا.

وكانت مفاجأة.. أن تنهار الأسوار أمام هجماته الكاسحة، وتتهاوى القيم أمام ضرباته صريعة.

وبدأ التيار يجرف كل ما أمامه من مفاهيم وقيم.

وأخذ المسلمون يتطلعون - بأمل - إلى فجر يوم جديد، يستعيدون فيه كياناتهم، وينطلقون معه إلى أهدافهم الكبرى، وقيمهم الشامخة.

وبدأت المحاولة تتخذ لنفسها أشكالاً متعددة ومظاهر متنوعة.. ومضى العاملون في الطريق، يستنطقون التجربة إثر التجربة، ويستلهمون المحاولة بعد المحاولة.. وتعثرت الخطى في البداية، وانحرفت في منتصف الطريق. وابتعدت عن أهدافها.. بعيداً بعيداً.. في ما قبل النهاية.

وما زالت الأسوار تتهاوى أمام اندفاعات التيار.

بين الشكل والمضمون

وعاشت التجربة في حياتنا، كما عشنا الارتجال في الأهداف والوسائل. كانت «الصورة» هي كل شيء في حساب أكثر العاملين.

«الصورة».. كما هي متمثلة في واقع الانحراف دون تغيير أو تبديل. وكانت فكرة «المدرسة» هي منطلق العمل في تجاربنا.. وبداية الطريق نحو الغاية. فالتثقيف العلمي، إذا امتزج بالتوجيه الديني، وانطلق في اتجاهه، أمكن للحياة أن تسير معه في دروب القيم.

تلك هي وجهة النظر في الفكرة التي تقول: «لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال»

ولكن كيف تكون «المدرسة» محتوى ومناهج؟ أو بالأحرى.. كيف يمكن لنا أن نحفظ للناشئة عقيدتها ودينها ونبلغ بها هذه الأهداف في هدوء واطمئنان؟..

هل هناك مناهج دينية، ومخططات تربوية، تستهدف إيجاد الانسجام بين الخطى والأهداف.

كان ذلك كله.. سابقاً لأوانه في نظر بعض العاملين من أصحاب المشاريع، فالمهم - في البداية - أن يقوم المشروع بناية شاهقة تتحدى ناطحات السحاب، وان يجمع - بعد ذلك - أكبر عدد ممكن من الطلاب، ليستطيع أن يحتفظ لنفسه بالدخل المناسب الذي يدر عليه الأموال اللازمة له في استمرار وجوده. وأن تكون الهيئة التعليمية التي تشرف على وضع المناهج وتطبيقها من الأكفاء الذين يحسنون الارتفاع بالمستوى العلمي للمدرسة، وليس من المهم أن يكونوا ملحدين أو منحلين أو غير ذلك.

وأخيراً.. لا بد من استاذ (يُعَلِّم) الدين.. ولا مانع من أن يكون (أمياً) في ثقافته الدينية.. فالمهم أن يحفظ ويستظهر الطلاب بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية،

وبعض الأحكام الشرعية.. وهذا كل شيء.. فليس في الامكان أبدع مما كان.

وهكذا يتحول المشروع إلى غاية بعد أن كان وسيلة.. وتعود الغاية من إقامة المشروع مجرد درس متواضع لا يقدم ولا يؤخر.

تلك هي «بعض» الصورة في ما لدينا من «مشاريع دينية». وذلك هو جزء من الواقع الحي الذي تهرب فيه الغاية، ويبتعد فيه الهدف، عندما ينحني العاملون للتيار في استسلام وإذعان. ويندفعون معه بمشاريعهم التي انطلقت من أجل أن توقف اندفاع التيار، أو تخفف سرعته.

ومرة ثانية تفرض الحقيقة نفسها علينا.. في حساب الأهداف والوسائل، ويبقى الارتجال هو السبب الأعظم في نتائج المشكلة..

وربما نستطيع أن نعتبر أن الاندفاع العاطفي، والروح الحماسي، هما المنطلق للخطي في أغلب الأحيان.

كان الميدان خالياً ينتظر الفارس الذي لم يكن بوسعه إلا أن يتصرف.. وتصرف بحماسة الفروسية، من دون أن ينتبه إلى العقبات التي تعترضه في الطريق، وبالأحرى، من دون أن يدرس طبيعة الميدان الذي يريد الاندفاع فيه. وكان من الطبيعي جداً.. أن يكبو الجواد، ويتعثّر أمام الصخور الناتئة والهوى العميقة التي تملأ الميدان.

الإرث الشخصي

ربما نستطيع، في محاولة ثانية، لفهم القضية.. أن نجد في «الفردية» عاملاً مهماً في المشكلة، فقد وجدنا بعض المشاريع. تمثل، في ما تمثل، في أكثر الأحيان فرداً أو أفراداً معدودين، يتولون بدورهم مهمة قيادة «المشروع» ومباشرة كل ما يتعلق به من الأعمال والتصرفات، في الوقت الذي لا يملك فيه هذا الفرد وهؤلاء الأفراد،

الطاقات الحية التي تستوعب كل جهاته ونواحيه.. الأمر الذي يجعل القضية عرضة للتسيب والفوضى والارتباك.. ويمهد لاعتبار القضية إرثاً شخصياً يتوارثه الأبناء والأحفاد، بما تهيئه لهم الفردية من السيطرة والإشراف التام على المشروع.

وقد لا نعدم في كثير من الأحيان... الصوت الذي يقول: إن من العدالة والإنصاف والوفاء، لجهود القائمين على هذه المشاريع، أن نجعل لأبنائهم وأقربائهم (حصة معينة) في الإشراف والإنتاج.. كأن القضية تعيش في مستوى الاعتبار الشخصية التي تجعل لكل عمل ثمناً مادياً.. وهكذا رأينا كيف تهاوى كثير من هذه المشاريع على مذبح شهوات الأبناء والأحفاد.

التجيير المرفوض

وقد نجد - في محاولة ثالثة - ان المشكلة قد تتمثل في فقدان الوعي الرسالي لطبيعة المهمة وواقع الرسالة، مما يوجب حدوث كثير من الالتباسات في كثير من القضايا.. فقد يستسلم أصحاب المشروع إلى صورة ساذجة من صور الاندفاع الديني التي ينفذ منها الكثيرون من أعداء الدين إلى مخططاتهم القريبة والبعيدة، مستغلين في ذلك سذاجة المشرفين، وجهلهم بالواقع الحياتي الذي يعتمد سياسة اللف والدوران والالتفاف حول الشعارات البراقة أساساً للعمل في كل المجالات.

ومن هنا، قد يلتفت نظرك - وأنت ترصد خطوات هذه المعاهد والمشاريع - سيطرة الاتجاه الإلحادي، في بعض الجوانب، على مناهج التعليم وخطواته، والانحراف في البعض الآخر، والاهتزاز في كثير من الأحيان.. نتيجة بعض التصرفات الخاصة للمستغلين من أعداء الدين دون أن يلتفت القائمون على المشروع لذلك.. بسبب بعض البراقع واللافتات الخادعة التي تكاد تكشف عما تحتها، لو كانت هناك عين يقظة نفاذة تحاول النفاذ إلى ما وراء الستار.

الحياد المزعوم

وقد نجد بعض المشرفين على هذه المعاهد، ممن يملكون الثقافة الإسلامية الناضجة، والوعي الفكري المنفتح ولكنهم يحاولون أن لا يكونوا عاطفيين في الاتجاه الإسلامي للتربية.. وإنما يعتبرون «الموضوعية» أساساً للعمل الهادئ الناجح.

ولكن «العاطفة» في مفهومهم قد تختلف عنها في مفهومها العام، فهم يحاولون الابتعاد تماماً عن كل عوامل الإثارة للمشاعر الدينية، فهي - في نظرهم - لا تنسجم مع المستوى الثقافي للمعهد، والصفة العملية الهادئة الرصينة التي يحملها.

وهم يتجنبون - كثيراً - تشجيع الاتجاهات الإسلامية التي تنطلق بها أفكار بعض الطلاب، حذراً من أن يسيء ذلك إلى هذا أو ذاك ممن ينتمي إلى الحزب الفلاني، والعقيدة الفلانية.. لأن المعهد يجب أن يكون «موضوعياً» فلا يعطف على فئة دون فئة، ولا يشجع اتجاهاً على اتجاه، حفاظاً على صفة الحياد التي تقتضيها طبيعة «الموضوعية»، كأن القضية قضية «معهد» يجب أن ينجح، لا قضية فكرة يجب أن تسود وتتركز.

وربما يحملهم هذا الشعور بالاتهام، أو بالأحرى «عقدة الموضوعية»، إلى أن يجاملوا الاتجاهات غير الإسلامية، في مقابل الاتجاهات الإسلامية ليثبتوا أنهم «غير عاطفيين».

أما إذا حاولت أن تسألهم عن «الهدف الإسلامي» الذي انطلق المعهد على أساسه فإنك واجد حتماً منهجاً طويلاً عريضاً يدرس فيه الطلاب علوم الإسلام والثقافة الإسلامية.. تماماً كما يدرسها أي معهد متخصص بالدراسات الإسلامية في أميركا أو لندن.

التربية الواعية

إن الاتجاه «العاطفي» - في ما نفهم - هو الانطلاق في العمل على أساس غير

مخطط وغير مدروس، أما الانطلاق في العمل على خطة مدروسة واضحة المعالم، هادفة واعية، تستخدم طبيعة الإثارة في بعض الأحيان من أجل إيجاد الأجواء الملائمة التي يتنفس فيها الطلاب روحانية الدين، ليستطيعوا أن يهضموا الثقافة الإسلامية في أجواء إسلامية، فقد يعطيهم الكثير الكثير من المعاني التي لا يستطيعون فهمها ولا الإحساس بها بعيداً عن هذه الأجواء.

إن الثقافة الإسلامية لا تكفي لإيجاد جيل مسلم يلهب الإسلام روحه كما يلهب عقله، ويثير الدين ضميره كما يثير فكره، بل هي - لو خلت من الأجواء الدينية - مجرد معلومات جافة لا تزيد على أن تملأ ذهن الطالب وفكره، بالنظريات الفلسفية أو الأخلاقية أو التشريعية، من دون أن تلامس حياته.. لأن الانسجام الحياتي مع أي فكرة لا يتحقق إلا بالتربية السلوكية الواعية التي ترقب الخطى كما ترقب الخطط، وتبحث عن الوسائل كما تبحث عن الأهداف.

وأخيراً نحن هنا أمام الحقيقة المؤلمة وجهاً لوجه.

إن مشاريعنا الدينية بدأت تهرب منا رويداً رويداً.. في عملية التفاف سريعة، لتعود بعد ذلك منطلقاً للاتجاهات اللادينية التي تحارب قواعدها الدينية في الداخل.

فماذا نفعل؟

ربما يكون من بين الحلول التي تواجهنا في البداية.. أن نبدأ القضية في عملية ثورة إصلاح وترميم، لأن ذلك هو السبيل الذي يجعل الحل في مستوى المشكلة..

وليست الثورة.. هنا.. إلا التعبير الحي عن المحاولة الواعية، للانطلاق من الجذور التي عشت فيها المرض والأعماق التي استنفقت فيها الداء.

التكامل المطلوب

نحن نعلم - مما عرضناه - ان من بين الأسباب التي أدت إلى انحراف هذه

المشاريع عن أهدافها هو فقدانها لوعي الرسالة في تكوينها الذاتي وبنيتها الأصلية.. فهي لا تمثل - في واقعها الفعلي - إلا مؤسسة كبقية المؤسسات التي تفتح أبوابها لخدمة المناهج والمخططات التي تقررها الهيئات المشرفة على التربية.. ومن هنا فلم تعد مهمتها تكوين جيل متدين مثقف يعي قضية دينه في حياته، كما يعي الثقافة العلمية في مراحل تطوره، بل أصبحت تهتم بتكوين جيل من حملة الشهادات العلمية فحسب. من هنا لا بد لنا في المرحلة الأولى، من تغيير هذه النظرة، باعتبار المدرسة أداة للتثقيف والتوجيه الديني، الذي يستهدف إيجاد جيل مؤمن يحمل رسالة العلم بيد ورسالة الإسلام بيد أخرى. ومن الطبيعي لهذه النظرة.. أن تستوعب كل جوانب المنهج فتطعمه بهذه الروح.

وعلى سبيل المثال.. نحاول رسم بعض ملامح هذه الصورة إذ قد يحتاج الطلاب - في وسائل الإيضاح - إلى استخدام بعض الأمثلة التي يحاول «المعلم» من خلالها تقريب الفكرة إلى أذهانهم.. فنحاول التقاط هذه الأمثلة مما لدينا من الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية التي تجمع إلى جانب شرح الفكرة المقصودة توجيه الفكرة إلى الخط القرآني الأصيل.. أو من بين الأمثلة التي تشير إلى جانب من جوانب العقيدة والشريعة. أما إذا كان الدرس نظرية اجتماعية، أو نفسية، أو تربوية، فتتلخص المحاولة في عرض بعض النظريات الإسلامية في الموضوع.. سواء منها النظريات التي تحمل مضموناً قرآنياً أو نبوياً، أو النظريات التي استنتجها بعض المفكرين الإسلاميين مما استفادوا من واقع المفاهيم الإسلامية.. لئلا يبقى الطالب غريباً عن مشاركة المفاهيم الإسلامية لتطور الحياة ونموها.

وقد نحتاج - في تركيز هذا الهدف - إلى إيجاد جو ديني داخل المدرسة، يحمل الطلاب على تأدية فريضة الصلاة عند حلول وقتها داخل المدرسة أو المسجد، إذا كان قريباً، ويعلمهم أن يبدووا يومهم المدرسي، أو سنتهم المدرسية، بأناشيد دينية مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه، يتوجهون فيها إلى الله سبحانه، ويخلصون له..

شريطة أن يكون ذلك بطريقة إلزامية، تقف بين الشدة واللين.. من أجل فرض النظام من جانب، وعدم الإساءة إلى شعور الكرامة في الطالب من جانب آخر.

اختيار المعلم

وقد يكون من غير المألوف.. أن نعلم إلى استخدام المعلمين والمربين من دون النظر إلى شخصياتهم الدينية، ومدى ارتباطهم بالتحاليم الدينية وبعدهم عنها، لأن للمعلم أكبر الأثر في الوصول بالتوجيه إلى هدفه.. لأن شخصيته - كموجه - تجعل منه المثل الأعلى للطلاب، ولا سيما في السنين الأولى... الأمر الذي يجعلهم يقلدونه في كل أفعاله وأقواله، كمثال مقدس، يحتذى ويتبع.

وعلى ضوء ذلك.. فلا بد لنا من اختيار الأساتذة الذين تتمثل فيهم الكفاءة الدينية إلى جانب الكفاءة العلمية، والتشديد على التزامهم الديني فكرياً وعملياً.

مشاركة الطالب

ولعل من بين القضايا التي تستطيع خدمة الهدف.. أن نعلم إلى ما عندنا من مناسبات دينية، فنحاول إثارتها في جو المدرسة، باحتفالات محبة إلى نفسية الطالب، ولو بالعمل على أن يشارك فيها بنشيد أو كلمة من وحي المناسبة.. الأمر الذي يوثق علاقته بالقضية التي تمثلها المناسبة، ويعمق شعوره بطبيعة المناسبة وتأثيرها الديني في حياته.

وبكلمة واحدة.. العمل الدائب على اختيار أفضل الطرق التي نستطيع أن نصل بها إلى ذهنية الطالب، من أجل غرس العقيدة في فكره وإثارتها في حياته.

مأسسة المشروع

وقد وجدنا - في ما سبق من حديث - أن عنصر «الفردية» ربما يكون من بين

العناصر التي أثرت وتؤثر، في فقدان الاشراف الديني الكامل على المشروع، وفي النتيجة السيئة التي تمهّد للفوضى والتسيب والارتباك؛ لأن الفرد لا يملك الطاقات الكافية للإشراف الكلي على المشروع، فيحاول أن يملأ ذلك الفراغ، ويسدّ العجز، بأقرب الناس إليه وأوثقهم به وهم أولاده وأقرباؤه، لثقتهم بهم وبأنهم لا يريدون به، وبالمعهد شراً. وهكذا تبدأ مشكلة «الإرث الشخصي» للمشاريع.. وعلى ضوء ذلك فلا بد من تأليف لجان متعددة وهيئات متنوعة يوكل إليها أمر الإشراف على جهات هذه المشاريع، المالية والإدارية والدينية والتشديد على طبيعة الرقابة الدينية؛ ولا مانع من أن يكون للفرد المؤسس، أو الأفراد المؤسسين، بعض الإشراف على أعمال اللجان، بحيث تكون مسؤولة أمامه عن كل ما تقوم به من أعمال، كما لا بد لنا من أن نجعل لهذه اللجان حق الرقابة على تصرفات هؤلاء الأفراد ولكن ضمن نطاق قانوني يحفظ لكل ذي حق حقه، ويضع الأمور في نصابها الصحيح.

ونحسب ان ذلك يساعدنا على الاحتفاظ بحق الهيئة المؤسسة في الإشراف، إلى جانب إعطاء المشروع حقه من الرقابة والرعاية. ونعتقد أننا نستطيع بذلك أن نتفادى طبيعة السرعة والارتجال التي قلنا إنها تبقى السبب الأعظم في القضية.

رسالية الهدف

وأخيراً.. ان علينا أن نضع نصب أعيننا دائماً.. ان هذا المشروع، أو ذاك، إنما انطلق باسم الدين، وبأموال دينية في أغلب الأحيان، فلا يجوز، بحال من الأحوال، أن نحوله إلى مشروع اجتماعي مجرد أو علماني صرف، لأننا سوف نفقد الغاية من وجوده، وهي إنشاء جيل مؤمن بالله وبرسالته، متعلم مثقف يجري ويعمل في سبيل استمرار الوجود الرسالي لدينه وعقيدته.

والا.. فلنحاول أن نكشف عن الوجه الواقعي الصحيح للمشروع، ولنجنب

أنفسنا وواقعنا من الزيف، حذراً من أن نعيش حياتنا دائماً وراء البراقع التي قد تكشف كثيراً عما تحتها.

وفي نهاية المطاف.. نحسب أن الإنسان الذي يؤمن برسالته ويقضيته لا يمكن أن يخلج منها في أي حالة من الحالات.. فلنكن صريحين برسالتنا، جريئين في العمل على تركيزها في واقعنا فكرة وعملاً وحياة... لنكون في مستوى القمة من وجودنا.. مستوى أصحاب الرسالات الذين يعيشون لرسالتهم، ويجاهدون في سبيلها، ويفنون من أجلها ﴿.. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾^(١).

* * *

(١) سورة التوبة؛ ١٠٥.

ما خالف كتاب الله فهو زخرف

المقياس الصحيح

قال الإمام الصادق (ع): كل شيء مردّه إلى كتاب الله والسنة. وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف.

أطلق الإمام الصادق هذه الكلمة في بعض أحاديثه، ليضع بها الحد الفاصل بين الحقيقة الإسلامية الأصيلة، وبين الزيف الخادع المزخرف، وليجعل منها المقياس الصحيح الذي نقيس به صحيح الحديث من كاذبه، وباطل الأمور من حقها لنلا تتلاقفنا الأهواء وتلعب بنا الرياح.

كان الإمام الصادق (ع) يتحدث بهذا الحديث في معرض التحذير من أولئك الوُضّاع المرتزقة الذين ابتلي بهم الإسلام في كثير من فتراتهِ، فدرسوا ما شاءت لهم أغراضهم في ثنايا الأحاديث التي تتناول شؤون الإسلام عقائد وأحكاماً.. حتى عادت الأحاديث تركة مثقلة بالدس والتحريف اللذين نلتقي فيهما بالكثير الكثير من المفاهيم الغريبة عن روح الإسلام وحقائقه الأساسية العظيمة..

كان الإمام الصادق يحدثنا عن هؤلاء وعما فعلوه في سبيل حرف الخط المستقيم للإسلام، وفي سبيل البعد به عن أهدافه وانطلاقاته. كان يحدثنا عنهم ويحذرنّا - في أكثر من حديث - من أن نقع فريسة فكرية لأغراضهم وأهدافهم.. أن نخدع بالباطل وهو يلبس ثوب الحق، أو نؤخذ بالكذب في مظهر الصدق.

ولم يكتف بالتحذير المجرد.. بالإشارة إلى وجود هذه النماذج البشرية في حياتنا العقائدية وتاريخنا الديني.. بل حاول أن يرشدنا إلى الميزان الذي نميز به الحق من الباطل، والمقياس الصحيح الذي نرجع إليه كلما التقينا بالشبهات في طريقنا. فكان كتاب الله هو هذا الميزان والمقياس الذي نرجع إليه ونأخذ به. فهو الحقيقة التي لم يلحقها الزيف ولم يعلق بها الباطل. فهي خالدة بأصالتها ونقاؤها، لم يعلق بها غبار الشك، ولم يعرض لها ضباب الزيف.

ومن هنا كانت مفاهيمه التي يدعو إليها، وتشريعاته التي يطلقها، وخطته العامة في الحياة، والنفس والاجتماع والنظام الكوني بوجه عام.. هي الحقائق الأولى والأخيرة لهذا الدين.. وهي الصورة الوضيئة لواقعه وحقيقته.

وإذا كانت القضية بهذا النحو.. فمن الطبيعي أن نعرض عليه ما عندنا من هذه التركة المثقلة من الأحاديث.. أن نرجع إليه كلما دأهنا ظلام الشك أو واجهنا ضلال الباطل. فإذا التقينا بمفاهيمه الوضاعة الصحيحة في هذه الأحاديث.. فحسبنا بهذا دليلاً على صدقها وأصالتها وبعدها عن الزور والتزوير. أما إذا افتقدنا تلك المفاهيم في ما نقرأ من حديث أو في ما يعرض علينا من سنة.. فلم نلمح روحها وطهرها وصفاءها في ما نقرؤه وفي ما يعرض علينا، بل وجدنا العكس من ذلك تعقيداً وارتباكاً واضطراباً في الفكرة والأسلوب.. أما إذ كان هذا هو وقع الحديث.. فلا نحتاج بعد ذلك إلى بحث في إثبات بطلانه وكذبه.. لأنه يبتعد عن المنطلق الذي تنطلق منه مفاهيم الدين وينحرف عن الخط الواضح المستقيم الذي يسير فيه..

وعليه فلا يمكن أن يكون صادراً عن القائمين على أمر هذا الدين المجاهدين في سبيله، أولئك الذين عاشت إرادتهم في حياتنا.. من أجل أن يصل هذا الدين إلى شاطئ الحياة الآمن.

كشف التحريف

وهكذا ابتعدنا بهذا الحديث الذي أطلقه الإمام الصادق (ع) في حياتنا الدينية

والفكرية، عن جو الكذب والدجل والنفاق والدس والتحريف، الذي يبرز لنا في صورة براءة مزخرفة.. فقد جاء هذا الحديث ليقول لنا: إن ما نراه من هذا البريق، وهذا الإغراء.. لا ينطلق من الإشراق الداخلي للفكرة، ولا يركز على أساس متين للواقع.. فإن الظلام يسود الداخل، أما البناء فهو لا يقوم على أساس..

أما ما نراه ونلمحه، فهو لا يخدع إلا السذج والبسطاء من الناس.. لأنه مجرد زخرف خارجي.. لا يلبث أن يزول عندما يتعرف الواعون على ما يخفيه في داخله من كذب وزيف وظلام.

ميزان الحياة

ذلك هو واقع القضية وميزانها في الأحاديث التي تمر بنا في ما نقرأ وفي ما نسمع. ولكنه لن يتقصر على هذا المجال.. فليس هو مقياساً محدوداً، لقضية واحدة من قضاياها وان كانت من الأهمية بمكان. إنه لا يقتصر على مجال التمييز بين صحيح الحديث وفاسده وإنما يتسع ويتسع، حتى ليستوعب الحياة في جميع مجالاتها الفكرية والاقتصادية والأخلاقية.

فهو لم يجعل كتاب الله مقياساً لباطل الحديث وحقه، إلا لأن هذا الكتاب يمثل المفاهيم الأولى والأخيرة لهذا الدين، مما يجعل من غير الممكن في أي حال من الأحوال أن يكون بعض الحديث حقاً.. مع اختلافه مع طبيعة هذه المفاهيم وواقعها.

وإذا استطعنا أن نلمح هذه الحقيقة في كتاب الله الخالد، وإذا جرينا معه في قوله الكريم ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١) فوعينا أصالة مفاهيمه وامتدادها في دروب الحقيقة الكلية الخالدة؛ فلا نستطيع إلا أن نجعل منه مقياساً لحياتنا.. وبالتالي لإسلامنا. وهو يتحرك في أفكارنا عندما نفكر.. وفي عواطفنا عندما نفعل ونتأثر ونحب ونبغض... وفي أخلاقنا عندما نسير في حياتنا

(١) سورة فصلت؛ ٤٢.

على قاعدة معينة في السلوك وفي النظرة الخلقية العامة.. وفي تشريعاتنا القانونية عندما نحاول أن ننظم حياتنا على أساس جديد، ونهج جديد.. وفي اقتصادياتنا عندما نحاول إخضاعها لمنهج اقتصادي معين من بين المناهج التي تعيش في الحياة الحاضرة.. وفي حياتنا بشكل عام عندما نحاول أن نلونها بلون خاص، مما تعارف الناس على تلوين حياتهم به من مبادئ، ودعوات حديثة أو قديمة..

إننا لا نستطيع إلا أن نلتفت إلى هذه الكلمة الخالدة، لأنها تأبى إلا أن تجري معنا في دربنا الطويل، لتقينا من الانحراف إلى اليمين أو الشمال ولتحفظ لنا خطانا على الصراط المستقيم الواضح..

فهي تلتفت إلينا كلما هزتنا دعوة جديدة، أو فكرة مبتدعة، لتقول لنا: إن ما خالف كتاب الله فهو زخرف... وإن علينا أن نعرضها على كتاب الله قبل أن نقرر موقفنا منها.. من المعارضة والتأييد.

كما تلتفت إلينا كلما بعثر الدرب خطانا ذات اليمين وذات الشمال.. فانطلقنا مع الخطى العمياء دون هدى ودون وعي، لتقول: (ما خالف كتاب الله فهو زخرف) وإن علينا أن نعيد النظر في دربنا وفي خطانا الحائرة القلقة، لأنها مخالفة لكتاب الله فإن الكتاب يقول:

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَرُوا بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) ، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢) .

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣)

(١) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

وإذا قال الكتاب كلمته.. فيجب أن ينصت السامعون، ويهتدي الضالون، ويطمئن الحائرون القلقون.

وهي - بعد ذلك - تلتفت إلينا إذا دهمنا اليأس، فخذلتنا عزائمنا وضعفت قوانا.. ونظرنا فإذا بالحياة تفتح ذراعيها لأعداء الله لتعطيهم ما تحمله من نصر وظفر.. ولتجعلنا في جانب الضعف والوهن وقلة العدد..

إنها تلتفت إلينا لتقول لنا: إن هذا الموقف الذي نقفه مخالف لكتاب الله، لأنه يقرر حق المؤمنين في النصر وفي الحياة الحرة الكريمة التي سيصلون إليها إذا ساروا في طريق الله.

﴿إيا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾^(١).

﴿لا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل﴾^(٢).

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾^(٣).

وهكذا تستوعب هذه الكلمة حياتنا بكل ظواهرها، لأن كتاب الله يستوعب كل ما في هذه الحياة من ظواهر وحوادث وحالات.. فليست هناك ظاهرة إلا وللكتاب تفسير لها، ولا حادثة إلا وللقرآن حديث عنها ولا حالة إلا وللوحي سبيل إليها..

ومتى كانت القضية في هذا الشمول وهذا الاستيعاب.. فإن باستطاعتها أن تحدد نظرتنا إلى كل الأشياء والحوادث التي نعيشها في حياتنا اليومية والتي تطرأ عليها في جميع نواحيها العامة والخاصة.

فكل تشريع مخالف لكتاب الله هو زخرف.. لأنه لا يستمد وحيه من مصلحة

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) سورة القصص: ٥.

الإنسان الحقيقية، لأنه لا يفهم واقع الإنسان، ولا يعرف جميع حاجاته الروحية والمادية، وإنما ينظر إلى بعض الجوانب دون بعض... ومن هنا يظل دائماً بحاجة إلى التحوير والتبديل تبعاً للحالات الطارئة التي لم يكن المشرع قد راعاها عند تشريعه..

أما الكتاب فهو مستمد من الله، خالق الإنسان والعالم بما في داخل ذاته وخارجها دون أن يكون هناك ساتر يستره أو حاجب يحجبه، ولذا فليست هناك حالات طارئة تفرض التغيير والتبديل، وإنما هو التشريع الذي يتفق مع جميع ضرورات الزمان والمكان.

وكل دعوة أو فكرة تخالف كتاب الله وتختلف معه في قليل أو كثير هي زخرف.. لأنها لا تلتقي مع دعوة الله التي تتصل بالواقع الروحي والمادي للإنسان.

ومن هنا فإن علينا أن نرفض بكل قوة وبكل إصرار.. كل دعوة لا تقوم على أساس من قيم الإسلام، لأنها تخالف كتاب الله الذي يقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

أما الأعمال التي نقوم بها في حياتنا فيجب علينا أن نعرضها على كتاب الله، لنعرف مدى موافقتها للقرآن ومخالفتها له، لنرفض ما يخالفه ونسير على ما يوافقه.

مفاهيم قلقة

وأخيراً.. فإن على المسلمين - أينما كانوا - أن يلتفتوا بالكتاب الكريم الخالد في جميع أطوار حياتهم وشؤونها وأن يحددوا موقفهم من المبادئ - أياً كانت - تبعاً للمفاهيم والتشريعات التي قررها كتاب الله من دون أن ينخدعوا بالشعارات الكاذبة والمفاهيم القلقة الحائرة المطاطة. كما أن عليهم أن يعيشوا المفاهيم القرآنية بوعي

(١) سورة فصلت: ٣٣.

وعمق، وان لا يتركوا أي مجال للدس والتحريف والتضليل. بل عليهم أن يكونوا دائماً في حذر من الأحابيل والأضاليل التي يحاول أعداء الله جاهدين، أن يحرفوا بها الإسلام ويبعدوه عن هدفه.

ولتكن هذه الحقيقة التي قررها الإمام الصادق (ع): (ما خالف كتاب الله فهو زخرف) نصب أعينهم، فهي طريقهم في الحياة وهي سبيلهم إلى الرشاد.

إننا نعتقد أن التحريف الفكري الذي يحاول الكثيرون أن يحرفوا به المفاهيم الإسلامية حتى يجعلوها مهياة لتقبل أي فكرة جديدة، لا يقل خطورة عن التحريف والدس الذي عاشه المسلمون في صدر الإسلام، وجاء الإمام الصادق (ع) يحدثنا بخطورته ويحذرنا من عواقبه.

ومما يزيد القضية عمقاً، أن هذا التحريف الجديد للمفاهيم الإسلامية يتخذ صفة المحافظة على الدين والرعاية له وصيانتة من الجمود والتحجر.

وختاماً لكلمتنا هذه نود أن نقول لهؤلاء الذين يحاولون أن يجعلوا من الإسلام ستاراً ينفذون منه إلى أغراضهم وأهدافهم، نود أن نقول لهم، إن الإسلام وحدة قائمة بذاته.. فلا تجزئة فيه ولا انقسام.. ولا تفريق بين جانب وجانب. وليس هو مجرد أهداف تتفق مع كل وسيلة، بل هو الهدف والوسيلة معاً. لذلك فإذا شئتم السير مع الإسلام فيجب أن تكون وسائله هي التي توصلكم إلى الأهداف.

إما إذا شئتم أن تأخذوا الهدف أو تتظاهروا بأخذه، وتتركوا الوسيلة؛ فاستريحوا قليلاً وفكروا قبل أن تستعيروا له اسم الإسلام. لأنه لن يكون إسلاماً على كل حال، لأنه مخالف لكتاب الله (وما خالف كتاب الله فهو زخرف).

* * *

لنحترم قدسية الكلمة

قيمة الكلمة

ما نهدف إليه، ونلح على أن يكون، هو أن نحترم الكلمة؛ أن نحترم كلمتنا عندما تنطلق من الفم، أو يعرف بها القلم. ذلك لأن الكلمة، في حياة الأمة وتاريخها، هي المقياس الدقيق لتقدمها الحضاري والحياتي بما تمثله من ذهنية الأمة وقابليتها.

ومن هنا كانت اللغة، بمفرداتها ومشتقاتها ومتنوعاتها، ميزاناً يزن به العلماء عظمة الأمة وشخصيتها، من الناحية العلمية والنفسية والروحية والثقافية والاجتماعية، لأنها تعبر تعبيراً صادقاً عن هذه المعاني.

لهذا.. فإن انحدار الكلمة في حياتنا نذير بالمرحلة الخطيرة التي يمر بها تاريخنا والمهوى السحيق الذي ينحدر إليه. وهذا ما نحاول أن نتحاشاه ونشدد على أن لا يكون ونعمل على أن يزول من حياتنا، في جميع مجالاتها الحيوية.

الإجرام الشائع

هناك من يقول: ما المانع من أن نطلق الألقاب والنعوت على من لا يستحقها، ملاحظة لبعض «الاعتبارات» الاجتماعية، ما دام ذلك لا يؤثر شيئاً فإنها لا ترتفع بصاحبها عن مركزه، حيث هو في الحياة؟

إننا نقول لهؤلاء...

إن هذا لا يصلح مبرراً. فهذا الأسلوب يجرم في حق الكلمة فيفقدتها حيويتها ومعناها وعندها تموت، لأننا أبعدنا عنها روحها الطيب الخير وألبسناها الروح الشرير الخبيث.

وكما يجرم في حق الكلمة كذلك يجرم في حق الأمة، لأن اللقب يحمل في حياتنا مهمة التعبير عن الدرجة العلمية والدينية والاجتماعية والسياسية، وعن التطور الحياتي لهذه الأمة. فإذا أبعدناه عن محله فسيكون غير ذي معنى في تاريخنا التطوري والحضاري.

لهؤلاء نقول:

من يقتل كلمة يقتل حضارة، يقتل تاريخ حضارة. ومن يقتل حضارة يقتل أمة، لأن أمة بدون حضارة لا وجود لها في حساب التاريخ.

موقف الإسلام

لننظر إلى الإسلام، ديننا الحق الذي نحاول السير على هديه، وإخضاع حياتنا لمفاهيمه.

ديننا هذا احترام الكلمة وجعلها مسؤولة. وعندما تكون المسؤولية يكون الاحترام. الكلمة التي تسيء إلى الغير محرمة لأنها شريرة. والكلمة التي تخالف الواقع محرمة لأنها تشوه الحقيقة وتزيّف الحياة. والكلمة التي تولد الشحناء والبغضاء بين صفوف المجتمع الواحد، وتتحامل على الآخرين محرمة، لأنها تحطم العلاقات الإنسانية والإخوانية وتسيء إلى طبيعة الحياة. والكلمة التي تؤيد الظلم والطغيان وتتنزّل إلى الجائر محرمة لأنها تشارك في هدم العدل وإقامة الظلم.

وماذا بعد ذلك؟

إنه جعلها التعبير الحي، عن نبي من أعظم أنبياء الله تعالى ﴿... بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾^(١). وجعل الكلمة الطيبة، الكلمة الحانية التي تواسي اليتيم وتونس الحزين وتدخل السرور إلى الآخرين، مفتاحاً لدخول جنة الله وللحصول على مرضاته. فكم هي عظيمة هذه الكلمة!؟

الكلمة بين الحق والباطل

لننظر إلى تاريخنا.. الذي لا نزال نقرؤه ولا نعيشه. ندرسه ولا نحياه. نكتبه ولا نعيه.

ولو عشنا هذا التاريخ ووعيناه، لعرفنا قيمة الكلمة ومدى تأثيرها في جانب الخير والشر.

لقد كانت الكلمة الطيبة الحانية الموجهة رسالة السماء إلى الأرض، حملها الأنبياء من عهد آدم (ع) إلى محمد (ص)، فرسموا بها الطريق للبشرية نحو السعادة والسلام.

وكانت الكلمة المخادعة المخاتلة الجبانة تصنع مأساة القيم في التاريخ.. هذه الكلمة التي انطلقت لتؤيد الحكم الجائر، شاركت مشاركة فعالة في إيقاف عجلة الإسلام عن أن تتقدم وتدور.

والكلمات التي انطلقت لتؤيد أبا سفيان وأبا جهل وأعوانهما، هي التي صنعت مأساة ياسر وسمية وغيرهما ممن عذبوا واستشهدوا في سبيل الله؛ وهي التي صنعت المآسي الأخرى التي عاناها المسلمون - في صدر الدعوة - من تشريد وتعذيب، هذه المآسي التي نستعيدها في ذكرى المبعث النبوي الشريف.

والكلمات التي انطلقت لتؤيد يزيد بن معاوية، هي التي صنعت مأساة كربلاء

(١) سورة آل عمران: ٤٥ .

التي نستعيدها في ذكرى الحسين (ع) في يوم مولده.

والكلمات التي انطلقت لتؤيد الحكم العباسي، هي التي صنعت مأساة الإمام موسى الكاظم (ع) التي نحياها في ذكرى شهادته.

لو لم يجد أبو سفيان ويزيد بن معاوية وهارون الرشيد وغيرهم من الطغاة، الذين شوهوا وجه التاريخ - في ميزان القيم - بما قاموا به من أعمال، لو لم يجد هؤلاء من يقول لهم إنكم على باطل، ولو وجدوا من يصرخ في وجوههم بكلمة الحق، لما تمكنوا من أن يصنعوا ما صنعوه من مأس، ولما استطاعوا أن يلعبوا ما لعبوه في التاريخ الإسلامي.

لسنا بصدد التحدث عن هذه الذكريات الثلاث في هذه الكلمة، وإنما نحاول أن نضرب منها مثلاً حياً لمن يسيئون لقيمة الكلمة.. لهؤلاء الذين يرون في الكلمة سلعة تعرض في المزاد، وسلباً يصعد بهم إلى درجات الجاه، وشبكة يصطادون بها السذج من الناس.

إننا نريد أن نقول لهؤلاء: إنهم حينما يضعون الكلمة بهذه المنزلة، لا يسيئون إلى إنسانيتهم وضمائرهم فحسب.. وإنما يسيئون إلى أمتهم، بما تحدثه كلماتهم من ترويج لفكرة باطلة أو تأييد لإنسان منحرف، أو تفريق لصف واحد، أو خدمة لاستعمار واستغلال.

إننا نريد أن نقول لهم: اتركوا هذا الأسلوب في الحياة. فإن تلك السلعة تكون صفقة خاسرة عندما يعي الإنسان قيمة الكلمة فلا يبقى لها مجال في سوق المزاد.. وإن ذلك السلم سوف ينكسر ويهوي بصاحبه إلى المدى السحيق، عندما يصبح للحقيقة أثرها في تقييم الرجال. وأن تلك الشبكة ستنمزق وترجع إلى صاحبها خاوية، عندما يعي مجتمعنا ذاته في إطارها الإسلامي النقي فلا يبقى مجال لخداعه.

ولسنا نطلق هذا الكلام جزافاً أو نعتمد على أساس خيالي، وإنما نحيلهم على التاريخ ليقرووه، ليعرفوا منه كيف تحولت تلك الكلمات التي أساء إليها أصحابها فباعوها في المزاد، إلى سياط تلهب ظهورهم ولعنات تصب عليهم، عندما وعى الإنسان شخصيته، وعرف الكلمة الطيبة من الكلمة الشريرة.

المردود الإيجابي

وختاماً نقول لهؤلاء ولكل من يحاول استخدام الكلمة في سبيل إرواء مطامعه وخدمة شهواته، لهم نقول: إن الكلمة الشريرة قد تؤدي دورها بادية ذي بدء وقد تصنع المأساة في تاريخ الإنسان.. ولكنها لا تلبث أن تنطفئ وتتحول إلى ﴿... كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾^(١). وتبقى الكلمة الطيبة. الكلمة الرسالة، خالدة خلود الحقيقة في الحياة.

إن كلمة الباطل التي أيدت أبا سفيان ويزيد وهارون لم تستطع أن تطفئ الإشعاع الروحي الذي امتد من كلمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكلمة الحسين (ع) وكلمة الكاظم (ع).. وإن أثارت بعض الضباب الخفيف بادية ذي بدء.

﴿فاما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾^(٢).

* * *

(١) سورة إبراهيم: ١٨ .

(٢) سورة الرعد: ١٧ .

شهر رمضان أجوائه - معطاته

المناخ الروحي

نحن الآن في شهر رمضان، نعيش عمرنا في واحة طيبة خضراء، نستروح جوها الندي المنعش ونتفياً ظلالها الوارفة المخضلة، في نشوة روحية طاهرة، ونتنفس في أسرارها الطيبة أنفاس الهدوء والطمأنينة، عندما ينطلق الإنسان مع ربه في مناجاة شاعرية عذبة، واقفة بين الخوف والرجاء، واثقة بعفو الله ورحمته.

«أدعوك يا رب راهباً راجياً خائفاً.. إذا رأيت - مولاي - ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت. فإن عفوت فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم»^(١).

وهكذا تسمو النفس الإنسانية أمام ربها في روحانية الدعاء وقداسية الموقف فتطمئن وتهدأ، ويتحول قلقها من مصيرها المجهول إلى اطمئنان وثقة وإيمان بعفو الله ورحمته ورضوانه. وعندها تشيع المحبة والوداعة والصفاء في أجواء النفس، لتنسكب في مجتمعها أخوة ومودة وإخلاصاً.

وهكذا يرتفع هذا الجو الروحي اللذيذ بإنسانية الإنسان، ويشعرها بمسؤوليتها عن المعاني الطيبة التي يعيشها هذا الجو الروحي في نفوس

(١) دعاء السحر للإمام زين العابدين (ع).

المؤمنين، فلا يشوهها بخطيئة، ولا يلوثها بجريمة.

قلنا: إننا نعيش عمرنا في واحة، تستريح بها النفس من عناء المادة ويسترجع بها الإنسان أنفاسه من سيره الطويل المجهد. ولكنها ليست الواحة التي يخلد الإنسان فيها إلى الاسترخاء والخمول والكسل، بل الواحة التي تتفتح فيها الروح على آفاق جديدة، من الحياة الروحية الكريمة، والجمال النفسي الطاهر، والخير، والإيمان، والسلام والكفاح من أجل أن يطهر الإنسان روحه من حيوانية الغريزة إلى إنسانية القيمة في إطار إنساني رائع، لا يشوه القيم ولكنه يركزها في عمليات الإبداع.

كل ذلك في طريقة طبيعية عملية، ككل وسائل الإسلام التي تحقق غاياته وأهدافه.

الإرادة الحرة

وكان الصوم وسيلة من وسائل الإسلام لتحقيق أهدافه وغاياته.

ومن أعظم أهداف الإسلام تربية الإرادة.. أن يملك الإنسان أن يقول نعم، وأن يقول لا، عندما تدهمه شهوته، أو تدعوه عادته أو يسخره ظالم أو مستهتر لخدمة أغراضه وشهواته.. أن يكون حراً في حياته فلا تستعبده رغبة، ولا تقهره شهوة، ولا يملك عليه مصيره إنسان - أياً كان ذلك الإنسان. أن يكون سيد نفسه، يملك أن يريد وأن لا يريد.

ووظيفة الإرادة في حياتنا هي وظيفة الضابط الذي يكبح جماح الغريزة ويخفف من غلواء الحيوانية النهممة التي تعيش في عروقنا ودمائنا فتستثير شهواتنا وغرائزنا.

وكان لا بد للإسلام من سبل وطرق عملية لتربية هذه الإرادة ورياضتها. وكان الصوم إحدى هذه الوسائل وأحدى هذه الطرق؛ ففي الصوم حد من طغيان الجسم

على الروح، والمادية على الإنسانية والعبودية على الحرية، ورياضة للإنسان.. أن يقول: لا، عندما تدهمه شهوته إلى الأكل أو الشرب أو الاستمتاع باللذات، أو تدعوه عادته إلى ذلك.

وعندما نلاحظ بدقة نوعية الأمور التي فرض الله - عز وجل - على الإنسان أن يمتنع عنها، وشدة علاقته بها في حياته اليومية، ومدى سيطرة العادة والحاجة الذاتية فيها، نعرف قوة مثل هذه الرياضة وطبيعتها العملية، وأثرها في تربية الإرادة. فإن رياضة النفس كونها من ضروريات الحياة، تجعل الإنسان أقوى على ترويض نفسها.

وهنا ندرك كيف يكون الصوم طريقاً للكفاح. فإن الكفاح في حياتنا إرادة للخير، وانطلاق لتحقيق تلك الإرادة.

وكان الصوم إلى جانب ذلك عبادة لله - تعالى - .. كبقية العبادات، يلتقي الإنسان فيها بربه فتتلاشى إرادته وتذوب إزاء إرادة الله سبحانه.

ولكنها لا تذوب لتموت بل لتحيا، ولتعود - بإيمانها وخضوعها لخالقها - أقوى ما تكون على مواجهة الأحداث في ميادين الصراع، ولتحقق في هذا التلاشي، الذي هو مثال العبودية الحققة لله، مبدأ قوة الإنسان ونقطة الانطلاق لحرية، لأن الإخلاص لله في العبادة وإطاعته في ما يأمر به وينهى عنه، يمثل في جوهره وحقيقته التحرر من الخضوع لأية قوة - مهما كانت - وراء قوة الله.

وهذا هو ما تعبر عنه الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

وبذلك كانت العبادة وكان الصوم، وسيلة عملية لتحرر الإنسان من عبوديته لأخيه الإنسان، ومن عبوديته لعادته وشهوته.

(١) سورة الفاتحة: ٥ .

الدرس النافع

هذه هي بعض القضايا التي يمكن أن نستفيد منها من الصوم حسب فهمنا له، ولكن لا مجال لهذه الاستفادة إذا اعتبرنا الصوم في حياتنا مجرد عادة كبقية العادات، أو مجرد عبء ثقيل كبقية الأعباء أو اعتبرناه حرماناً للإنسان وحداً من حريته، لا مجالاً لاسترداد الإنسان حرية إرادته وحرية تفكيره.

إننا إن فعلنا ذلك فنظرنا إليه، كما ننظر إلى أية عادة من عاداتنا التي نؤديها دون إدراك لضرورتها، فلن نستطيع أن نأخذ منه شيئاً، لأنه لا يستطيع - حينئذ - أن يعطينا شيئاً، حيث يصبح عادة كبقية العادات التي نحتاج إلى الكثير الكثير من الجهد لإصلاحها وعودتها إلى مجالها الطبيعي كأداة للخير لا للشر.

والحديث عن شهر رمضان يجرنا إلى الحديث عن بعض النماذج الحية في مجتمعنا المسلم، وكيف تعيش في شهر رمضان حياتها العملية؟ هذه النماذج التي قد نجد في بعضها صورة للجهل الأعمى بالدين وأهدافه.

ازدواج الشخصية

في مجتمعنا هذا، نلمح الكثيرين يحيون اللهو والعريضة والخلاعة في سائر أيام السنة، حتى إذا جاء شهر رمضان، لبسوا المسوح، واتجهوا للعبادة والاستغفار والدعاء. فإذا أقبل العيد عادوا إلى حياتهم الأولى ومنشدهم ينشد:

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

كأن للعبادة موسماً خاصاً كبقية الأشياء التي يكون لها مواسم، ثم تفقد معناها في خارج وقت الموسم.

هؤلاء الناس يفهمون الدين مجرد طقوس وتقاليد وعادات موقته بأوقات معينة، ونستطيع أن نلمح في حالتهم الصورة الحية للشخصية المزدوجة.

ضياع الهدف

وفي مجتمعنا هذا، يعود شهر رمضان عند الكثيرين من مجالاً للسهر والسمر واللهو البريء وغير البريء، فلا تشعر - وأنت في هذا الجو - أنك تعيش في هذا الشهر العظيم الذي أعده الله تعالى ليكون مجالاً لتركيز الشخصية الإسلامية. هؤلاء الناس لا يعيشون حياتهم إلا على سبيل اللهو والهزل ولا يطبقون السير على الأسس الجدية العملية.

تفويت الفائدة

وفي مجتمعنا هذا.. يصوم الكثيرون، ويمسكون طيلة النهار عن الأكل والشرب واللذات الأخرى. فإذا جاء وقت الافطار، اندفعوا يعبون من تلك اللذات التي يحسبون انهم حرموا منها طيلة النهار، فيحاولون التعويض عما فاتهم منها، غير مدركين لمغزى الصوم، أو الامساك. هؤلاء الناس لا يصومون لما في الصوم من ارتفاع بإنسانيتهم، وتطهير لأجسامهم، وتحرير لإرادتهم، بل انهم يصومون لإسقاط الواجب الذي لا يدركون فائدته ووجه الحاجة إليه، تماماً كما يمتنع الناس عن الزنى مثلاً لأن القانون يحرم ذلك، لا لأن قيمهم ومثلهم ووعيهم لفساده، تفرض عليهم ذلك.

تخمة البطون

وفي مجتمعنا هذا، تنتوع المأكولات وتتميز عن بقية أيام السنة، عندما يحل هذا الشهر العظيم، وتتعدد الموائد إكراماً للصائمين، ولكنها لن تستقر إلا في بطون الوجهاء والأغنياء والمفطرين الذين يجدون في هذا الشهر فرصة طيبة للأكل وملء البطون والجاه والشهرة، في حين أن الصائمين والفقراء والمغمورين من عباد الله الصالحين لا ينالهم منه إلا القليل القليل.

هذه بعض النماذج.. نعرضها ونقدمها «هدية» لمن يعلقون على ما يكتب عن الصوم وفوائده بأنهم لا يلمسون هذه الفوائد في حياتهم عندما يصومون.

إننا نقدم هذه النماذج لهم، مكتفين بأن نقول لهم: إن وجود مثل هذه النماذج في حياتنا كفيل بالجواب عن هذا التعليق وعن فقداننا لفوائد الصوم في حياتنا العملية، وكيف أصبح عندنا مجرد عادة ميتة.. مجرد تقليد من تقاليدنا الكثيرة التي تؤديها من غير حرارة ومن غير إيمان.

الدعوة الخاصة

وفي هذا الشهر وفي كل ليلة، لم يزل المسلمون يرددون في دعاء الافتتاح الفقرات المباركة:

«اللهم إِنَّا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة. اللهم ما عرفتنا من الحق فحملناه، وما قصرنا عنه فبلغناه، اللهم أَلَمْ به شعثنا، واشعب به صدعنا، وارثق به فتقنا، وكثّر به قلتنا، وأعز به ذلتنا، وأغن به عائلنا، واقض به عن مغرمنا، واجبر به فقرنا، وسدّ به خلّتنا، ويسرّ به عسرنا، وبيض به وجوهنا، وفكّ به أسرنا، وأنجح به طلبتنا، وأنجز به مواعيدنا، واستجب به دعوتنا، وأعطنا به سؤلنا، وبلغنا به من الدنيا والآخرة آمالنا، وأعطنا به فوق رغبتنا. يا خير المسؤولين وأوسع المعطين.. اشف به صدورنا، وأذهب به غيظ قلوبنا، واهدنا به لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وانصرنا به على عدوك وعدونا، إله الحق أمين يا رب العالمين».

إنها الدعوات الحارة الخالصة.. تنطلق مع خفقات قلوب المؤمنين بآمالهم والامهم في العصر الحاضر وفي كل عصر يعبث الظلم فيه بمقدرات المسلمين ويتلاعب بأحكامهم ومبادئهم.

إنها الدعوات المؤمنة بإسلامها وضرورته للحياة كقاعدة للفكرة والعاطفة والحياة.

حقوق الله الآمال، وأجاب الدعوات؛ إنه سميع الدعاء قريب مجيب وهو ولي التوفيق.

تقاليدنا.. وأعيادنا

التقليد الأجوف

عندما تتحول الأمة إلى مجرد «حارسة» لحرم العادات والتقاليد الموروثة، فمعنى ذلك أنها تدنو من النهاية، وتبدأ السير في طريق التلاشي والانهيار.

لأن التقاليد والعادات، وإن كانت ذات صلة وثيقة بحياة الأمم وتاريخها بما ترمز إليه - في ذاتها - من قضايا دينية واجتماعية وغيرها، إلا أنها فقدت هذه الصلة، عندما أصبحت مجرد عادات وتقاليد، لا تعني ولا تمثل شيئاً، حتى في نظر أولئك الذين يبنون حياتهم عليها من دون أن يؤمنوا بفائدة منها أو منفعة.

وليس ذلك إلا لأنها فقدت الحرارة التي تمدّها بالحياة بسبب ما تراكم عليها من ضباب العصور المظلمة وجليدها، الذي جمد كل ما في داخلها من حيوية وإشراق.

بث الروح

ولسنا نهدف من وراء هذا الكلام إلى هدم هذه العادات والتقاليد، وعزلها عن نطاق حياتنا.. فإننا إن فعلنا ذلك، نكون قد فرطنا في ثروة كبيرة من ثرواتنا التي تعتمد عليها مقوماتنا كأمة.

ولكننا نهدف إلى أن نبعث فيها الحياة والدفء والنضارة، لتشارك في دفع عجلة

الحياة من حولنا، ولتكون عاملاً من العوامل الفعالة التي تتحرك في حياتنا وأعماقنا ومشاعرنا، فتبعث فينا الوعي واليقظة والانطلاق نحو العمل الجدي المنتج، ولتحمل المعاني والقيم الإسلامية الخالدة التي كانت تتمثل فيها عندما دخلت حياتنا لأول مرة.

إننا نهدف إلى أن لا تكون تقاليدنا، التي تمثل جزءاً من شخصياتنا، مجرد تقاليد جوفاء ميتة، تثقل حاضرننا، بدلاً من أن ترفعه وتوجهه وتشرق في أفقه.

معاني العيد

والعيد - في حياتنا - أحد هذه التقاليد التي نعيشها الآن، كما نعيش أي تقليد أجوف، فقد معناه وأصبح عبثاً لا فائدة منه سوى ما يجنيه العابث من عبثه. فقد دأبنا على أن نرى في العيد مجرد يوم من الأيام، لا يختلف عنها، إلا برسمياته وشكلياته.. ولذا فلا نحاول أن نحياه إلا في نطاق هذه الرسميات والشكليات لا أقل ولا أكثر.

أما العيد «الرمز» الذي يشير إلى قيمة إنسانية، أو فكرة مبدعة. العيد الذي نحيا فيه «التفاؤل» كجزء من المنهج العملي الذي يحاول الإسلام أن يشيعه في مجتمعنا، عملاً بقول النبي الأعظم (ص): (إني أحب الفأل الحسن وأكره الطيره)^(١).

أما العيد الذي تعيش فيه الأمة السلام والمرح والطمأنينة، في وحدة روحية خاشعة.. فتنتقل هذه المعاني الكبيرة إلى داخل حياتها، لتشيع فيها الاستقرار والفرح الروحي والهدوء. أما مثل هذا العيد، فإننا نفتقده في أعيادنا، التي نعيشها ونحياها. فإننا لا نزال نتمثل العيد، في الصورة التي يتمثلها الأطفال للعيد - في نفوسهم وفي حياتهم - من ملابس جديدة، إلى حلوى وألعاب ونحو ذلك.

وهذا ما يطلعنا على ظاهرة جديدة من ظواهر حياتنا الاجتماعية وهي ظاهرة

(١) البحار، ج ٩٥، ص ٢، رواية ٢، باب ٥٣.

الطفولة، التي لا تزال تعيش في أعماقنا، وتوجه تصرفاتنا وحركاتنا، حتى لا نكاد نفقه من المعاني الكبيرة، إلا النذر اليسير.

ومن هنا فنحن بحاجة ماسة إلى أن نعيد النظر في كثير من مفاهيمنا المتداولة في ما بيننا للحياة، ومن بينها المفهوم الروحي للعيد.

والعيد في ما نفهم، هو الفرصة التي جعلها الله للإنسان، ليدلل على سمو إنسانيته في مجال القيم، وليشعر - وهو في هذا الجو الروحي اللذيذ - بالأخوة التي تربطه بأخيه الإنسان في فرحة الحياة، وبالوحدة الشاملة في المشاعر.. حتى ليشارك مع الطفل الصغيرة في مرحه، ومع الشيخ الكبير في سروره، ومع الشاب المنطلق في أشواقه وأحاسيسه ومشاعره.

وهنا نجد التفسير الصحيح، لما ورد في الأحاديث المأثورة من استحباب التزاور، والإحسان إلى الإخوان، والصلح في ما بينهم، وغير ذلك من الأساليب التي تجلب المودة والمحبة والصفاء في أيام الأعياد.

وهذا هو أحد المعاني التي نستفيد منها من الأعياد، لو أردنا الاستفادة مما تحمله من معانٍ وقيم.

فهل نحن سامعون؟؟.

* * *

قضية وأسلوب

كتب الكثيرون عن الإسلام، عن حلوله الكثيرة لمشكلات الإنسان، عن نظريته العميقة التي تنفذ إلى أعماق المشكلة فتعالجها بوعي ودقة وعمق. وبشر الكثير منا بالمفاهيم الإسلامية، بالتشريعات التي أطلقها الإسلام في حياة الإنسان لتنظم حياته، لتبعث فيها الهدوء والطمأنينة والاستقرار، لتجعله يحس بإنسانيته وبقيمتها في ميزان القيم.

وبين هذا وذاك، بدأت النظرة إلى الإسلام تتبلور وتتضح في أذهان الناس الذين بدأوا يحسون في هذا الدين حركة وحيوية وحياة.. وبدأوا يعيشون مفاهيمه - في داخل ذواتهم - مبادئ يقظة ومنطق حياة.

ولكن هل نجح هؤلاء الذين كتبوا والذين بشروا، في أن يجعلوا الإسلام يعيش في حياة الناس ويتحرك في داخلها؟ هل استطاعوا أن يحددوا معالم الطريق ويرسموا آثاره؟

ليس باستطاعة هذه الكلمة أن تجيب على هذا السؤال، لأنه يلتقي بأكثر من قضية ويقف في أكثر من منعطف. ولكننا نستطيع أن نشير إلى قضية واحدة لا نزال نعاني منها في حياتنا الإسلامية ولا تزال تلتقي بنا في كل مدى جديد نسلكه وفي كل أفق نتطلع إليه. ونعني بها قضية الأسلوب. فلا يزال الأسلوب يعوزنا في طريق الدعوة إلى الله. الأسلوب في التفكير والأسلوب في العمل والأسلوب في

عرض قضايانا العامة.. ولا يزال الأسلوب يثقل ضمائر الجماهير، التي تتطلع إلى حل جذري لمشكلاتها من دون أن يصطدم بعقيدها وإيمانها.

فهي تعلم - حق العلم - طبيعة المفاهيم والحلول التي تفرضها العقيدة ويمليها الدين. ولكنها تجهل تماماً الأساليب التي تسلكها نحو الوصول إلى هذه الحلول وتلك المفاهيم.

ومن هنا ينفذ الضلال، ويظهر الكفر وينحرف الدرب عن هدفه والقافلة عن دربها المستقيم.

لم نقصد معالجة هذه المشكلة، وإنما حاولنا الإشارة إليها - مجرد إشارة - أملاً في أن نوفق إلى معالجتها في مجال آخر.. أو يوفق إلى ذلك بعض المفكرين الذين يعيشون قضية الإسلام عقيدة ونظاماً ورسالة للفكر والعاطفة والحياة.

* * *

مجتمعنا والقرآن

الحقيقة النهائية

للقرآن في حياتنا قيمة القاعدة الفكرية والروحية التي تركز عليها عقيدتنا - كمسلمين - والمنطلق الذي تنطلق فيه أفاقنا في الميدان الاجتماعي والحضاري، والمنهج الذي ينظم حياتنا على أساس متين من العدالة والاستقامة، وهو - قبل كل شيء - وبعد كل شيء - كتاب الله الخالد الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١) فما يقرره ويحكم به، يُعتبر حقيقة نهائية في نظرنا إذا أحسنّا فهم ما يقرره وما يحكم به.

وبهذا كان مقياساً نحاكم على أساسه أية فكرة وأية عقيدة ونحدد قيمتها من حيث صحتها أو أصالتها في الإسلام أو فسادها وبعدها عنه.

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نقرر أن الابتعاد عن القرآن لا يعطي إلا نتيجة واحدة، هي الابتعاد عن الإسلام عقيدة ووعياً وحياة. فلا يمكن لأي إنسان أن يفهم الدين الإسلامي إذا لم يحمل في فكره وفي روحه ثقافة قرآنية واعية، تضع أمامها قبل كل شيء، أن القرآن أنزل من قبل الله ليكون منطلقاً للسمو الروحي والفكري والاجتماعي والخلقي، لا ليكون كتاباً يُقرأ للتبرك أو للاستمتاع بأسلوبه وتعبيره الأدبية، أو للحفاظ من الحسد ونحو ذلك؛ ولذا فإن فهم الإسلام مرتبط بفهمه لأنه يعطي الرأي الصحيح للإسلام في مشكلات الحياة ووقائعها... وينظم العقيدة على أساس متين.

(١) سورة فصلت: ٤٢ .

الهوة العميقة

لم نقصد من حديثنا هذا أن ندرس عظمة القرآن وقيمته، فذلك بحث له مجاله الواسع، ومداه الطويل؛ وإنما نقصد أن نشير وننبه إلى عمق الهوة التي تفصل بين قيمة القرآن وأثره في مركزنا الحياتي، وكيف ينبغي أن نكون، وبين الواقع الذي نحياه للقرآن في أوضاعنا التي ندرج عليها الآن.

فقد كان القرآن عند المسلمين الأقدمين يثير فيهم الحركة والحياة والتطلع إلى المستقبل الذي يحتضن عزة الإسلام وشرفه ومكانته في العالم، ليبعث النور والهداية في أرجاء المعمورة.

أما نحن فقد تجمدت نفوسنا، حتى لم تعد تلمح فينا إلا الانكماش والتضاؤل والخوف والقلق والانهازامية وغير ذلك من أسباب الفشل وبوادره. ومرد ذلك في ما نفهمه إلى أنهم كانوا يحيون القرآن، في ما يوحي وفي ما يوجه، فكرة وإيماناً وارتفاعاً بالنفس الإنسانية إلى أبعد مجال. أما نحن، فنعيش القرآن الفاظاً وتعاويز وغير ذلك من دون أن نلتفت إلى أغراضه وأهدافه ومن هنا فقد القرآن عند الكثيرين منا احترامه اللائق به - عملياً - وإن كنا نعظمه عندما يفسح لنا مجال الكلام.

نموذج واقعي

ولنضرب مثلاً على ذلك نستمد من حياتنا الاجتماعية التي نعيشها اليوم. فقد أصبح من المتعارف في الاحتفالات التي نعقدّها لمناسبات خاصة أو عامة وفي الفواتح التي تقام لقراءة الفاتحة عن روح الميت وتعزية ذويه قبل كل شيء؛ أن يتلى القرآن فيها فيقتصر على فترة خاصة له في الحفلات ويستمر في تلاوته طيلة الوقت في الفواتح.

وإلى هنا، والقضية لا تلفت النظر ولا تبعث على الدهشة، بل الأمر طبيعي لأن مثل هذه الاجتماعات مجال طيب لبعث الدعوة إلى الله وإلى دينه القويم فإنها لا تيسر في كل وقت، وليس كالقرآن حديث يدعى به إلى الله لأنه كلام الله ووحيه.

وهكذا كان القرآن هو عنوان هذه الاجتماعات بالإضافة إلى قيمته الروحية وقديسيته التي قد تنفع الميت فيما إذا قرئ عنه وأهدي ثوابه إليه.

ولكن الذي يلفت النظر، هو هذه الضوضاء وهذا الصخب الذي يدور في المجلس أثناء قراءة القرآن من دون التفات عملي - ولو بسيط - إلى أن هناك قرأناً يُقرأ أو إلى أن هذه الآيات التي تتلى هي التي أطلقت صيحة الهدى وأرسلت أشعة الحضارة في العالم أجمع، وهي التي دفعت عجلة الحياة إلى الامام وهزت عروش الظالمين والكافرين ومزقتهم شر ممزق.

هذا والقارئ يقرأ الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١) والنزاع ينشب، ويحتمد في ما بيننا في أن الأمر هنا للوجوب أو للاستحباب، وينتهي عن نتيجة أو لا نتيجة؛ والعاملون في المجلس يدورون في جنباته ليقوموا بتوزيع ما أوكل إليهم توزيعه من قهوة أو شاي أو سجائر أو ماء ونحوه ويرتفع الدخان حتى يكاد يأخذ بأنفاسك.. وهنا قد يحلو لك أن تتطلع إلى القارئ وهو ينفث الدخان من فمه بين أونة وأخرى أو يتحدث إلى من حوله أو ينبه المجلس إلى قدوم شخصية محترمة، حتى لا تحس بأي لون من ألوان الهدوء التي يتطلبها الاستماع إلى القرآن. والقارئ يقرأ؛ والمجلس مشغول بصخبه وضجيجيه. وهنا يهدأ الضجيج ويسود الصمت، حتى لا تكاد تحس إلا بتصاعد الأنفاس ويصمت القارئ فينقطع عن تلاوته ويمتنع العاملون في المجلس عن توزيع ما اعتادوا توزيعه.. ويتجه الجميع إلى حيث المنبر فإذا بالخطيب أو الشاعر أو الناثر يلقي كلمته الرائعة أو الخالدة - ما شئت عبر - وتتعالى أصوات الاستحسان ولا سيما إذا اتجه إلى الناحية الإسلامية وتحدث عن أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم من دون أن يلتفت إلى أن من أسباب التأخر وهذا الانحطاط هو هذا الابتعاد عن القرآن. حتى أنهم يهتمون بمعرفة كلام الخطيب والاستماع إليه أكثر بمراحل مما يعطونه من الاهتمام للاستماع إلى أي الذكر الحكيم فضلاً عن محاولة تفهمه ووعيه.

(١) سورة الأعراف: ٢٠٤.

وأذكر أن بعض الفضلاء، أو الذين يعون دقة المرحلة التي نمر بها ويقدرّون قيمة القرآن وقديسيته عملياً، قام خطيباً في بعض هذه الاجتماعات مندداً بهذا الوضع الشاذ الذي يولي الاحترام لكلمة أو قصيدة - ربما تكون سخيّة - أكثر مما يوليه لأي من الذكر الحكيم، فلم يكن من الكثيرين إلا أن قابلوا هذا الحديث ببسمات السخرية والاستهزاء - وربما نسبته المعتدلون إلى البساطة والسذاجة.

وهذا يدلنا - بكل أسف - على أن القضية قد وصلت إلى الحد الذي أصبحت فيه (مرضاً مزمناً) لا بد من معالجته.

هذا أحد المظاهر التي تعطينا فكرة عن سلوكنا العملي نحو القرآن، وهو مظهر عام تشترك فيه الطبقات كافة في بعض البلدان الإسلامية.

وهناك مظاهر أخرى نعرض عن ذكرها مكتفين بتقديم هذا النموذج، لأنه يكفل لنا تصوير الواقع السيئ الذي نعيشه بوضوح.

مواجهة الأخطاء

ونريد في ختام هذا الحديث أن ننبه إلى خطر هذه الظاهرة في حياتنا، وإلى خطر التهوين من شأنها، لأن مثل هذا السلوك يؤثر على قيمة القرآن بشكل لا إرادي في نفوس أبنائنا وجيلنا، الذي أصبح الكثيرون من أفراد لا يرون في القرآن إلا ما تراه عجائزنا من أنه لا يصلح إلا للحفظ من العين أو للتبرك وطلب الرزق ونحوه؛ وليس ذلك إلا لأنهم درسوا هذه الفكرة عملياً على أساس السلوك الاجتماعي العام.

وأخيراً.. إن من الضروري لنا، في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها الأمة الإسلامية، أن نفتح أعيننا على أخطائنا وعاداتنا لنناقشها الحساب على أساس المنهج الإسلامي السليم في السلوك والتربية.. وإلا فقد يأتي الوقت الذي تقضي فيه هذه الأخطاء - إن استمرت - على كرامة الإسلام وقديسيته، لا سمح الله، لأنها تسبب إلى روحه وتشوّه جماله.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الكتاب مسؤولية المؤلف والناشر

حساسية الموقف

عندما يمسك المؤلف قلمه ليخط أول حرف في كتابه، فإنه يضع نفسه في موقف لا يخلو من الخطورة، وطريق لا يأمن على نفسه من الانزلاق في منحدراته الخطرة ومزالقه الكثيرة، لأن تلك الحروف التي يرسمها على صفحات الورق قد تتحول إلى أفاعٍ خبيثة تنفث السم في جسم الأمة، أو نيران هائلة تأتي على الأخضر واليابس وتضع الأمة على حافة الهاوية عن قصد أو غير قصد، وذلك بما تثيره من قضايا شريرة، سواء في مدلولها الفكري، أو في معطياتها الاجتماعية والسياسية، أو في الحساسيات التي تثيرها بين أونة وأخرى. وقد تتحول - وهذا ما نريده ونهدف إليه - إلى مشاعل خير ورسل سلام تنير للأمة سبيلها في الدياجي المدلهمة وتصل بها إلى شاطئ الأمن والسعادة.

ومن هنا كان على المؤلف، الذي يعيش مسؤولية الكلمة، أن لا يستسلم لشهوة الكتابة في كل شيء يخطر على باله، وفي كل فكرة تتحرك أمامه، بل لا بد له من أن يدرس طبيعة الفكرة بعمق ويتعرف ما تحمله من قضايا الحق والباطل، وما تتركه من تأثيرات سلبية أو إيجابية في حياة الأفراد والمجتمعات؛ فيملك أعصابه ومشاعره عندما يريد أن يكتب، ليكون للفكرة هدوء العقل، وليعيش الأسلوب هدوء الفكرة ويحافظ على صفة الحذر عندما يختار موضوعه، أو الطريقة التي يعالج بها ذلك الموضوع، فقد يكون لنوعية الموضوع وطريقة معالجته أثر كبير

في الهدف الذي يهدف إليه الكاتب من خير أو شر.

وقد نشعر بالحاجة إلى هذا التأكيد عندما يتعلق الموضوع بقضية الحديث عن الدين بشكل عام، والإسلام بصورة خاصة؛ فإن المسؤولية تتعاظم وتكبر وتمتد في اتجاهين: الاتجاه الذي يقف فيه الإنسان أمام الله عندما ينسب إلى دينه حكماً لم يشرعه الله، أو مفهوماً لم يبينه الله، أو عقيدة لم ينزلها على نبيه وذلك من خلال السرعة في دراسة الدين وتحليل قضاياها، مما يؤدي إلى إصدار نتائج سطحية سريعة، يعوزها العمق والشمول. الأمر الذي يشوه صورة الدين لدى أتباعه، فيشوه مفهومهم للحياة من خلال انحرافهم عن الفهم الصحيح للإسلام، ويمنح أعداءه الفرصة الذهبية لمهاجمته من الداخل على أساس المفاهيم المشوهة التي يقدمها الباحثون الارتجاليون..

الطريقة القرآنية

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الموضوع الذي يتمثل بالتقول على الله بما لم يقله، بطريقة عنيفة توحى بخطورة القضية في حساب المسؤولية على أساس طبيعة النتائج العملية التي تتركها على حركة الرسالة في الحياة، فاختار للتعبير عن ذلك أسلوب مواجهة القضية في إطار صدورها من النبي محمد (ص) كفرضية مطروحة للأيحاء بالمستوى الكبير الذي تبلغه وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(١).

وتلك هي الطريقة القرآنية في كل القضايا التي تبلغ المستوى الكبير في الأهمية من خلال النتائج الخطيرة التي تحدثها في حياة الناس، كما في الآية الكريمة التي تتحدث عن الإشراك بالله وتأثيره على إحباط كل الأعمال المتقدمة التي عملها

(١) سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٧ .

الإنسان؛ وذلك قوله تعالى مخاطباً رسوله (ص):

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

ونلاحظ أن الآية توحى بأن هذا الخطاب كان موجهاً إلى كل الأنبياء الذين سبقوا النبي محمداً (ص)، مما يعطينا انطباعاً واضحاً بأن هذا الأسلوب الذي يخاطب الأمة من خلال الأنبياء ليس أسلوباً جديداً مع النبي، بل هو أسلوب النبوات كلها، لأنه يلتقي بطبيعة التأثير العميق للفكرة.

وقد لا نجد حاجة إلى التأكيد أن القضية لا تقتصر على القول العمدي الذي يكذب فيه الإنسان عمداً على الله أو على رسوله، بل تشمل الموارد التي يستند فيها الكذب إلى التقصير في البحث والتفكير والدراسة، مما يفوت على الإنسان كثيراً من المقدمات الطبيعية التي توصلنا إلى النتائج الصحيحة؛ لأن الآية انطلقت في مجال الإحياء بخطورة القضية التي تستدعي مزيداً من الاهتمام والتحفظ والتفكير.

وعلى ضوء ذلك، كان الفقهاء الصالحون يتخرجون من الفتيا بشكل ملحوظ، خوفاً من أن يقعوا في محذور الإفتاء بغير ما أنزل الله عن غير قصد، كنتيجة للتقصير في مقدمات البحث، أو للغفلة عن بعض القضايا المتعلقة بالموضوع، وقد يتحدثون عن ذلك في الوصايا التي يقول فيها بعضهم: «فر من الفتيا فرارك من الأسد» ويحاولون - في إطار ذلك - في إجازات الاجتهاد التي يمنحها الأساتذة لطلابهم، الحديث عن لزوم الاحتياط في الفتوى لئلا يشعر هؤلاء «المجتهدون الجدد» بزهو الاجتهاد، الذي يدفعهم إلى ممارسته بشكل سريع يفقدهم الرؤية الواضحة العميقة للحكم الشرعي، فيذكرونهم بالله وعقابه في نطاق الحديث عن الاحتياط وضرورته في هذا المجال.

(١) سورة الزمر: ٦٥ .

وقد نجدهم يؤكدون أن المجتهد لن يكون معذوراً في خطئه فضلاً عن أن يكون مأجوراً، إذا كان الخطأ ناتجاً عن تقصير في المقدمات، بل قد يكون مأثوماً على ذلك انطلاقاً من القاعدة الفقهية المسلمة في ما بينهم «إن الجاهل المقصر بمنزلة العامد» ولا يفرق في ذلك بين الجاهل الذي يدفعه تقصيره في جهله إلى الانحراف في عمله وبين العالم الجاهل بالواقع الذي كان تقصيره موجباً للانحراف في فتواه؛ وبهذا لن تشمل الكلمة الماثورة التي تقول إن للمجتهد أجرين إن أصاب وأجرأ واحداً إن أخطأ.. مثل حالات التقصير.

شمول القضية

وقد يظن البعض أن القضية تعيش في نطاق الفتوى الشرعية التي تحدثت عن الحكم الشرعي بصورة مباشرة، ولكننا لا نوافق على ذلك، لأن القضية هي أن ننسب إلى الله شيئاً لم يقله أو لم ينزله على نبيه من دون فرق بين أن يكون هذا الشيء حكماً شرعياً أو مفهوماً أخلاقياً، أو نظاماً اقتصادياً أو اجتماعياً. وكيف يمكننا التفريق بين الكلمة التي تقول إن الله حرّم على الإنسان الاستمتاع بطيبات الحياة أو أنه كره له ذلك؟ وبين الكلمة التي تقول إن مفهوم الزهد في الإسلام يمثل الفكرة التي تتنافى مع التمتع بلذائذ العيش وطيباته وإن كان الإنسان قادراً على ضبط نوازعه وغرائزه أمام مغرياتهما؟ وهل نعقل هناك فرقاً بين من يقول إن الإسلام يتبنى النظام الاشتراكي وبين من يفتي بحرمة تملك وسائل الإنتاج للأفراد؟ إن القضية واحدة في كلا المجالين، لأنها تتمثل في إدخال شيء في الدين في الوقت الذي لا يجزم قائله بأنه داخل في صلب الدين، أو أنه لم ينطلق في جزمه من مقدمات أساسية صحيحة.

استنتاجات ذاتية

وعلى ضوء هذا فقد تقتضينا الأمانة الفكرية للإسلام أن نعالج الأفكار

الإسلامية، أو الأحكام الشرعية، من موقع المسؤولية التي تعيش القلق الروحي أمام الحقيقة. فلا يفرض أحدنا النتائج التي يتوصل إليها، كنتائج حاسمة نهائية، بل يعتبرها استنتاجاً ذاتياً قابلاً للأخذ والرد والتغيير والتبديل في المستقبل من خلال تفكيره أو تفكير الآخرين؛ فقد يختلف الإحياء في التعبير بين الأسلوب الذي يجعل القضية رأي الإسلام النهائي، وبين الأسلوب الذي يجعلها وجهة نظر شخصية في فهم الإسلام، لأن الأسلوب الأول يضع الفكرة في إطارها الثابت النهائي، بينما يضع الأسلوب الثاني الفكرة في إطار متحرك مرّن لا يمنع الآخرين من التفكير الجديد الذي يبحث عن وجهة نظر أخرى.

وقد يفيدنا - في هذا الجو - الإشارة إلى طريقة الفقهاء في التعبير عن الفتوى الشرعية في بعض الموارد بكلمة «لا يبعد حرمة ذلك أو حليته» أو «الظاهر» أو «الأقرب»، أو غير ذلك من الكلمات التي توجي بالمرونة في تقرير النتائج الفقهية والإفساح في المجال للتفكير في نتائج مغايرة من وجهة نظر أخرى.

ضوابط حاكمة

وقد لا يختلف الأمر كثيراً عندما يتعلق البحث ببعض الشخصيات المقدسة الموجودة في التاريخ، سواء في ما يتعلق بعرض فضائلهم وكراماتهم أو في ما يتعلق بالحديث عن كلماتهم وأحاديثهم، لأن القضية تتصل بالجانب العقيدي، في تصورنا للطبيعة المقدسة التي تتمثل في شخصية النبي أو الإمام أو الأولياء الذين يتمتعون بقداسة روحية لدى المؤمنين، الأمر الذي ينعكس على التصور الديني لقضية النبوة والإمامة، في اعتبارها قضية يتحول فيها الإنسان إلى كائن غيبي يتحرك في حياته من خلال الأسرار القدسية، والآفاق غير المنظورة بشكل مستمر، سواء ذلك في خصائصه الذاتية أو في علمه الغيبي أو في غير ذلك من الأمور، أو اعتبار النبوة والإمامة قضية تتحرك في نطاق إعطاء إنسان، مميز في خصائصه البشرية، امتياز الاصطفاء من قبل الله لحمل الرسالة، أو لحراستها في المجال

الفكري وحمايتها من الانحراف في مرحلة ما بعد الرسول، من دون أن يخرج بها عن نطاق البشرية إلا في بعض الموارد الخاصة التي تقتضيها طبيعة الرسالة أو الإمامة في مواجهة بعض التحديات أو العقبات.

وفي هذا المجال، لا بد من التدقيق في الأحاديث التي تنقل، والقصص التي تُروى، والكرامات التي تذكر لمعرفة مدى صحتها من فسادها، واستقامتها من انحرافها، لأننا نعرف - من خلال تاريخ الفرق في الإسلام - أن الغلاة والباطنيين وغيرهم من الفرق المنحرفة قد دأبوا على الدس والتلفيق لمفاهيمهم في العقيدة، بوضع الأحاديث والقصص التي تؤيد وجهة نظرهم، الأمر الذي دعا الأئمة من أهل البيت (ع) منذ عهد الإمام محمد الباقر إلى عهد الإمام الحسن العسكري (عليهما السلام) إلى شن حملة كبيرة مركزة على هؤلاء، لكشف الجوانب المنحرفة التي يتمثلها هؤلاء، وقد كان من وسائل هذه الحملة إعطاء الضوابط الأساسية لتمييز الصحيح من الفاسد، واعتبار كتاب الله هو المرجع الأول والأخير في قبول ما يقبل، ورفض ما يرفض لأنه الكتاب الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١).

وقد يجب علينا أن لا نقف في هذه الأحاديث في موقع الامكان والاستحالة العقلين. ليكون المبدأ قبول ما هو ممكن ورفض ما هو مستحيل، لأن الوضّاعين لا يلجؤون إلى المستحيل في أكاذيبهم وأحاديثهم الموضوعة، لأنها لا تقنع أحداً مهما كانت لباقة الواضع ودقة الوضع، بل يلجؤون إلى الأشياء الممكنة التي قد تشابه بعض الأمور المعروفة لدى الناس في قضايا العقيدة والشريعة.. فلا بد لنا من التدقيق في الشروط الموضوعية من قبل المختصين، قبل أخذ الحديث أو رده، لتظل الحقيقة هي الهاجس الذي يحكم بحوثنا ودراساتنا لئلا تفسد العقيدة من حيث نريد صلاحها، أو ترتبط بالباطل في الطريق إلى الحق.

(١) سورة فصلت: ٤٢ .

إن القضية لا تتصل بمشاعر الحب والولاء والعاطفة، بل تتصل بالتصور الإسلامي للعقيدة والشرعية والحياة، مما يجعل لها الأهمية الكبرى في حساب التحقيق والتدقيق، لأن الانحراف في التصور يقود إلى الانحراف في عملية بناء الشخصية وبناء الحياة.

مرتزقة التأليف والنشر

ولن يقف الأمر عند المؤلف؛ فهناك الناشر الذي يشارك صاحبه في المهمة ويتحمل معه مصاعب المسؤولية، لأنه هو الذي يمهّد لأفكار المؤلف سبيل الظهور أمام القراء فيضعها أمام الأجيال الطالعة، لتملأ بها عقولها وأدمغتها، ولولاه لما كان لها أن تبصر النور في أغلب الحالات.

لهذا ولغيره، يتحتم على الإنسان - مؤلفاً كان أو ناشراً - أن يفكر في الأجيال الصاعدة التي تقرأ كتابه، ليعي الآثار السيئة أو الحسنة التي قد يثيرها في نفوسهم وأعمالهم وواقعهم بشكل عام، فإذا كان واثقاً من نفسه، أمكنه أن يكتب أو ينشر مطمئناً إلى سلامة عمله وصدق تفكيره.. وإن لم يكن واثقاً من صحته أو لم يكن مطمئناً إلى سلامة النتائج العملية، فليحاول أن يستريح طويلاً ليجنب أمتة عناء المشاكل والآثار السيئة التي قد يثيرها كتابه.

أما إذا لم يشأ الاعتراف بالواقع نتيجة غرور أو جهل بسيط أو مركب أو لم يكن ممن يعي العبء الثقيل الملقى على عاتقه أو المهمة الخطرة التي يضطلع بها، فقد يجب على الأمة من خلال مؤسساتها العامة والخاصة أن تفكر في ممارسة الضغوط المختلفة التي تستطيع من خلالها أن تمنع كلا منهما من السير في هذا الطريق الشائك الوعر، حفاظاً على ثقافة الأمة وتفكيرها من التسبب والضياع.

إننا لا نزال نركز على هذه الناحية، لأننا لا نزال نعيش في مآسي جيلنا الحاضر التي شارك فيها مرتزقة التأليف والنشر في شتى المجالات.

ففي المجال الديني أو المذهبي، أصبحنا نشاهد كثيراً من الكتب التي تجمع الغث والسمين، والصحيح والفاسد، والحق والباطل من أجل إرضاء الغرائز الدينية والمذهبية في المدح والقدح والتحليل والتحريم، من خلال أسماء تاريخية عرف أصحابها بالكذب والغلو بشهادة علماء الحديث، أو من خلال أسماء معاصرة لم تعرف بالعلم والتحقيق بل عرفت بالجهل الكبير بالمادة التي تكتب بها وتؤلف، وإن كانت تملك أسماء كبيرة في مجالات أخرى من العبادة والزهادة وغيرها مما يمنح الإنسان مركزاً اجتماعياً دينياً يبرر فيه لنفسه وللناس أن يقبلوا منه كل شيء على أساس مقدس ساذج.

وقد استطاعت هذه الفوضى في التأليف وفي النشر أن تربك الأجيال الطالعة، التي لا تملك الاختصاص في الثقافة الإسلامية، وتضعها في موقع الحيرة بين ما تأخذ به وبين ما ترفضه، وتسليحها إلى أن تواجه الازدواجية بين أفكار التخلف وأفكار التقدم في ما تقرؤه في هذا الكتاب أو في ذاك، مما جعل القضية تتحول إلى عقدة تهيئ للرفض المطلق للفكرة من الأساس لدى الكثيرين من هؤلاء.

وفي المجال الاجتماعي، نجد أمامنا الكتب التي تخاطب غرائز الشباب وتتاجر بعواطفهم وتضلل وجدانهم وتبديد طاقاتهم وملكاتهم هدرًا وتسيرهم في دروب غير الدروب التي تريدها لهم أمتهم من أجل مجدها وعزتها وتقدمها، حتى نشأ لدينا جيل يفتح عينيه من خلال الكتب البوليسية على قصص الجريمة، التي تغذي نزعة الاجرام في نفوس الشباب وتوحي لهم بالبطولات الجوفاء؛ ونجد إلى جانب ذلك الكتب الجنسية التي تتلون كل يوم بلون جديد وأسلوب جديد، قد لا يدهشك منه إلا محاولة الظهور بأنه يهدف إلى الخير والصلاح والإصلاح، لأنه يعرض مآسي الجنس بواقعيته وصراحتها، ليجنب الشباب خطر الوقوع في نظائرها عندما يصور لهم وقائعها بشكل أخاذ مثير. ولا يمنعك من تصديق هذا الأسلوب إلا أنك تلاحظ أن المواقف الجنسية تفتعل افتعلاً في بعض هذه القصص، بشكل يُشعرك

بأن الهدف هو الإثارة فحسب، وذلك عندما لا تكون القصة بحاجة إلى مثل هذه الحادثة كما قد تلاحظ انتشار الصور المثيرة في الكتاب بشكل يُلفت النظر ويثير التقرّز.

وقد بلغ من تأثيرها على عقلية الجيل، اننا رأينا الاقبال على شراء الكتب العلمية والإسلامية، أو المجلات والصحف المتزنة، لا يصل إلى المستوى الذي نجد فيه الاقبال على شراء الكتب الجنسية والبوليسية في أغلب البلدان، مما دفع بالقائمين على بعض الكتب والمجلات العلمية إلى إصدار الغلاف بصور مثيرة، أو اتباع الأساليب التي تعرض المادة العلمية بطريقة لا تخلو من عوامل الإثارة في بعض الأحيان لضمان رواج المجلة والكتاب، لأن الصورة قد تدفع الكثيرين إلى الشراء أماً في العثور على قصة أو رواية تنسجم مع الصورة. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه إلى الاعلان؛ فقد عاد من المؤلف جداً أن تقرأ إعلاناً عن الحبوب المهدئة أو المقوية أو بعض المرطبات، وإلى جانبه صورة لفتاة جالسة في وضع مثير، من دون أن تدرك سبباً لذلك إلا طبيعة الاثارة المألوفة لدى الجمهور التي تدفعه إلى متابعة كل ما هو مثير.

ولو أردنا استقصاء الجوانب التي شاركت في عملية التضليل، من خلال الكتب التي ألفها المؤلفون ونشرها الناشرون فأسأؤوا فيها إلى أمتهم ودينهم، لطلال بنا المقام.

تجارة لا مسؤولية

وخلاصة القول: إننا نشاهد أكداً من الكتب والمجلات التي تلفظها المطابع كل يوم فتتلاقفها أيدي الجماهير من أبناء أمتنا - على اختلاف ألوانهم ومستوياتهم الفكرية - ثم نلمح الأثر بعد ذلك في واقع حياتنا؛ فإذا هو فوضى في التفكير وفي الأخلاق وفي الثقافة، فنلمح التزمّت إلى حد الشلل إلى جانب التحرر إلى حدّ

الميوعة، ونجد الايمان إلى جانب الإلحاد، والخلق الخير إلى جانب التحلل. وهكذا دواليك من دون أن يكون لدينا ما يفصل بين هذين الاتجاهين فيجنب الأمة المصير المفزع الذي ينتظرها على أساسه. وقد ساعد هذا الجو في خلق جيل مضطرب قلق تتنازعه الاتجاهات المختلفة والميول المتنوعة من كل جانب دون أن يعي - بوضوح - السبيل التي تصل به إلى شاطئ النجاة.

ولعل بعض السبب في ذلك يرجع إلى أن الكتاب قد أصبح لدى الكثير من المؤلفين والناشرين - سلعة كبقية السلع - خاضعة لقانون العرض والطلب، فالمهم لديهم أن يروج وينتشر، مهما كانت دوافع هذا الرواج والانتشار ومهما كانت مؤثراته ومهما كانت السطحية والضحالة المتمثلة فيه، ومدى تأثير ذلك على المستوى المنخفض للجمهور؛ ان ذلك غير مهم لديهم ما دام هناك ربح كثير، ومال وفيه يغدقه الكتاب عليهم.. وهذا أمر بالغ الخطورة لأنه يدل على انعدام المسؤولية لديهم تجاه واقع الأمة حاضراً ومستقبلاً، ومعنى ذلك ان ثقافتنا وتاريخنا وعقائدنا أصبحت تحت رحمة فئة لا تشعر بمسؤوليتها التاريخية والدينية تجاه ثقافة الأمة وعقائدها وتاريخها وذلك نذير بأننا بدأنا ننحدر في منزلق خطر لا نأمن فيه على مستقبلنا من جميع نواحيه من أن ينهار ويصبح عرضة للتسيب والضياع.

إننا نحذر المؤلفين والناشرين من الانطلاق في هذا السبيل، وقد لا يكون لنا من الامكانيات ما يوحي بقوة مثل هذا التحذير، ولكن الله بالمرصاد لكل من ينحرف عن الطريق المستقيم، كما نرجو من الواعين من أبناء الأمة أن يعملوا على التخطيط للوقوف أمام هذه الأوضاع القلقة التي تحكمها عقلية الربح بدلاً من أن توجهها مسؤولية الإيمان.

* * *

حماية القارىء

وقد يكون من الخير لهذا الحديث أن نشير في ختامه، إلى الفتوى التي ذكرها الفقهاء المسلمون في كتبهم الفقهية بتحريم حفظ كتب الضلال سواء منها الكتب التي تشارك في الضلال العقيدي، أو الكتب التي تقود إلى الضلال الروحي والأخلاقي والاجتماعي، وقد يعتبرون القضية خاضعة لحكم عقلي بوجوب قطع مادة الفساد، لأن من غير المعقول أن يحكم العقل بإزالة الظلم والفساد من العالم، ويوافق على إبقاء الفكر المتحرك الذي يمدّ الفساد بالقوة، ويمنحه الحيوية كلما ضعفت فيه طاقة البقاء وقوة الاستمرار، لأن دور الفكر في كل مجال أن ينثر بذوره في الأرض الصالحة الخصبة التي تنمو فيها البذور بشكل طبيعي متفاعل. فإذا أبقينا الفكر متحركاً في اتجاه الأفكار الضالة والمنحرفة، وأعطيناه كل ألوان الدعم والقوة والانتشار، فستظل بذوره تشق عمق الأرض الإنسانية لتتأصل فيها وتتجذر، ثم لتتصاعد في حياته وأفاقه شجرة شريرة تؤتي أكلها الشرير كل حين.

ولهذا كانت القضية في مستوى حماية الإنسان من العوامل المؤثرة في دماره وانهياره، تماماً كما هي القضية كذلك في مواجهة الأفعال أو المواد الضارة التي تحاربها الأمم من أجل أن لا تتحول إلى عامل يقضي على حياة الإنسان وصحته وعقله.. وقد لا نحتاج إلى التدليل على الحقيقة التي تؤكد أن تأثير الأفكار المسمومة والمخدرة على الإنسان وحياته الروحية أخطر من تأثير السموم والمخدرات الطبيعية على حياته الجسدية.

وقد جاءت بعض الأحاديث الشريفة الماثورة التي تقرر هذه القاعدة الشرعية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) «إنما حرّم الله الصناعة التي يجيء منها الفساد محضاً..» ولا ريب في أن صناعة الكلمة المكتوبة من أكثر الصناعات تأثيراً في صلاح الإنسان وفساده، تبعاً للمضمون الذي يتحرك في عمق الكلمة نحو الصلاح والفساد.

ويصرّح الفقهاء بأن حرمة حفظ الضلال لا تقتصر على كتابته وبيعه وشرائه، بل يتعدى ذلك إلى طبعه وحفظه، لأن المطلوب هو إزالته نهائياً من واقع الفكر الإنساني وحياة الإنسان.

بين المصلحة والمفسدة

وليس معنى ذلك أن الإسلام يقتصر في محاربة الكفر والضلال على إحراق الكتب المتضمنة لهما، ليتخذ المدافعون عن حرية الفكر ذلك وسيلة إلى مهاجمة هذا الاجراء باسم الدفاع عن الحرية ويعتبروها دليلاً على ضعف النظام الذي يحارب المعارضة بمثل هذه الأساليب التعسفية.. ليست القضية كذلك، فإن الإسلام يؤمن بأن مجال الحرية يتحرك في الأجواء الثقافية والعلمية التي يمكن لها أن تواجه الفكرة بفكرة مثلها أو أقوى منها، وتفتح مجالات الصراع في المستوى، الذي ينبغي للصراع أن يتحرك فيه على أساس من ثقافة ومسؤولية.. ولهذا فإنه لا يجعل هذا الحكم حكماً حاسماً يلغي وجود الفكر المضاد نهائياً، بل يشعر أن قضية الفكر لا تنتهي من الوجود ما دام هناك عقل يفكر ولسان يتكلم، ولهذا فإنه يواجه الواقع بمرونة متحركة مدروسة تعي طبيعة الواقع وتوجه التفكير نحو الوقوف بوجه الفكر المضاد بموضوعية وتمنحه الفرصة لعرض أفكاره والدفاع عنها بموضوعية مماثلة، على أساس من إيمان الإسلام بالحوار كوسيلة وحيدة للوصول إلى الحقيقة.. ويكفينا دليلاً على تقرير هذه الحقيقة القرآن الكريم الذي حفظ لنا الفكر المضاد في ما كان يثيره الكفار من عقائد وشبهات وشكوك في الرسالة وصاحبها وكتابها.. إلى جانب فكره الأصيل.. وناقشه بأساليب مختلفة تتنوع فيها الكلمة والجو تبعاً لتنوع المجتمعات التي يتحرك فيها الفكر ويعيش لديها الحوار.

وقد صرح الشيخ مرتضى الانصاري في كتاب «المكاسب المحرمة» بهذه الحقيقة، التي تمثل مرونة هذا الحكم الشرعي فقال: «وقد تحصل من ذلك أن حفظ كتب

الضلال لا يحرم إلا من حيث ترتب مفسدة الضلالة، قطعاً أو احتمالاً قريباً، فإن لم يكن كذلك أو كانت المفسدة المحققة معارضة بمصلحة أقوى أو أقرب وقوعاً منها فلا دليل على الحرمة...».

وعلى ضوء ذلك «يعرف وجه ما استثنوه في المسألة من الحفظ للنقض والاحتجاج على أهلها أو الاطلاع على مطالبها» ولقد أحسن المحقق الثاني في «جامع المقاصد» حيث قال «ان فوائد الحفظ كثيرة...».

* * *

وخلاصة الفكرة: اننا نواجه القضية من موقع المسؤولية الإسلامية تجاه الإسلام والمسلمين، الأمر الذي يدفعنا إلى مواجهة الخطورة على أساس مراقبة الله في عباده ودينه وبلاده، لئلا يتحول الواقع الذي يتحرك فيه المسلمون - على أساس مادي بحت - إلى واقع يتاجر فيه المتاجرون بكل شيء حتى بالإيمان والمؤمنين من أجل الحصول على الربح المادي.. وتلك هي إحدى علامات النهاية للإسلام والمسلمين.

* * *

الإنسان المسلم أمام قضاياہ

أزمة الإنسان المسلم في ظل التشريعات غير الإسلامية

واقع المسلمين الفكري في بساطة العاطفة

الإنسان المسلم بين الجهاد الداخلي والجهاد الخارجي

في الطريق إلى الشخصية الإسلامية

الإنسان المسلم والمشكلة الإسلامية

الإنسان المسلم بين أساليب الحق وأساليب الباطل

أزمة الإنسان المسلم أمام حالات الشك

الإنسان المسلم أمام نماذج العمل

قولوا لهم

أزمة الإنسان المسلم في ظل التشريعات غير الإسلامية

لا فراغ تشريعياً

أصبح من الواضح المعروف لدى المعنيين بدراسة الإسلام، في مجاله التشريعي العام، أن الدين الإسلامي يمتاز باتساع أفقه ومجال تفكيره، فلم يقصر نشاطه العملي على جانب المسجد فحسب، وإنما نفذ إلى الحياة من بابها الواسع، فوضع لها الأنظمة والتشريعات التي تكفل لها سيرها الطبيعي نحو عالم أفضل وحياة مثلى، فلم تخل واقعة من وقائعها من تشريع إسلامي أو حكم شرعي - كما يعبر الفقهاء.

وبذلك نشأ المسلم وليس في نفسه أي فراغ تشريعي في أي جانب من جوانب الحياة، ولذا فإنه يسارع إلى سؤال الاختصاصيين في الشريعة - عندما يُبتلى بقضية يجهل حكمها - مطمئناً إلى أن الشريعة الإسلامية قد وضعت لها حدوداً خاصة وأحكاماً معينة.

وهكذا كانت الاختلافات والمنازعات التي تحدث بين المسلمين في قضاياهم الخاصة والعامة، تنحلّ على يد الفقهاء الذين ينظرون إلى دقائق القضية وخصائصها، في كل واقعة من الوقائع، ثم يحكمون فيها بحكم الله فيخرج الطرفان

مطمئنين إلى سلامة النتيجة التي حصلوا عليها، من دون فرق بين أن تكون منسجمة مع رغباتهما الشخصية أو غير منسجمة، فإن ذلك ليس له قيمة ما دام الحكم الذي انتهت إليه القضية يفرضه الشرع ويقتضيه الدين، وحسبهما ذلك قناعة واطمئناناً وإجابةً لقوله تعالى:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(١).

وهكذا كان الإنسان المسلم يعيش حياته في وحدة داخلية رائعة في ظل العهود الإسلامية الأولى، لا التواء فيها ولا انحراف. بل هو الطريق المستقيم والخط الواضح الذي تسير عليه مبادئ الشريعة وأحكامها.

غربة المسلم

أما اليوم، فالقضية تختلف عن الأمس، فليس الإسلام هو الذي يحكم المسلمين في بلادهم، بل هو الكفر الصريح المقنع بقناع إسلامي في بعض أشكاله وألوانه.

أما اليوم فالإنسان يعيش في قلب المشكلة، لأن حياته في ظل هذا الواقع عادت مشكلة في ذاتها، فهو في حيرة من أمره تجاه ما يفرضه عليه إسلامه من التقيد بأنظمتهم وتشريعاته، فلا يجوز له أن يتعداها قدر شعرة، أو يتجاوزها إلى غيرها من التشريعات والأنظمة أياً كان لونها أو طبيعتها انسجاماً مع قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا

أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾^(٢).

فليس له أن يتبع غير ما أنزل الله لأنه، بذلك، يكون قد اتبع أولياء من دون الله.

هذا كله، في الوقت الذي يفرض عليه الواقع القانوني الذي يعيش في ظله، حيث

(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف: ٣.

القوة والسلطة الزمنية، أن ينسجم معه تفادياً لما ينشأ عن مخالفته من متاعب قانونية.

فهو، ما بين هذا وذاك، يعيش في حياته القلق والحيرة والخوف وازدواج الشخصية، عندما يحاول التوفيق بين واقعه الديني وواقعه القانوني، فيقف أمام دعوتين: دعوة الله ودعوة الشيطان.

فإن استجاب لنداء دينه وعقيدته، كانت السلطة له بالمرصاد تحاسبه على مخالفة القانون، وتعدّيه حدوده، وإن استجاب لنداء القوة والسلطان تصدى له ضميره يؤنبه ويحاسبه على ما أجرم في حق نفسه ودينه.

ذلك هو الواقع الذي جعل الإنسان المسلم يحس بالغربة في بلده، ويشعر بضرورة التحلل والإنطلاق من واقعه السيئ، إلى واقع لا يضطر فيه إلى أن يحاور أو يداور، هرباً من بعض القوانين والتشريعات التي تخالف عقيدته ودينه، وإنما يندفع في بنائه وتركيزه برضى واطمئنان.

وذلك هو الذي يجعلنا نشعر بأن حاجتنا إلى أن يحكم الإسلام وينطلق في بناء الحياة ليست ترفاً وكمالاً، بل هي ضرورة حتمية يفرضها واقعنا المرتبك المتناقض الذي يتطلع إلى حياة هادئة مستقرة، تسودها الدعة والطمأنينة والإندفاع العفوي في إحاطة محتواها بجو رائع من الطاعة والنظام.

إرادة المستعمر

أماً كيف نشأ هذا الواقع؟ وكيف فرض نفسه على المسلمين؟

فهذا سؤال لا نجد صعوبة في الإجابة عليه.

فقد جاءت المدنية الحديثة، وكانت البلاد الإسلامية ترزح تحت نير الاستعمار الكافر، ولم يرق للمستعمرين أن يجري المسلمون في حياتهم على أساس الإسلام،

لأن ذلك لن يمكنهم من فرض السيطرة التامة على مقدرات المسلمين ما دام الإسلام يعارض ذلك بقوة وشدة، قال تعالى:

﴿وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١).

فكان من الطبيعي أن يحولوا الحياة الإسلامية عن مجراها، ويندفعوا بها إلى طريق وعر شائك، لا تملك فيه إلا الإرتواء في أحضانه والخضوع لسيادته وفقاً لما يفرضه هذا التحول من حاجات فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية.

وبدأ هذا التحول، وبدأت حياة المسلمين تستعد للإندماج في مدنيته وحضارته، لئلا تُتهم بالتخلف عن قافلة الركب الحضاري، وبالرجعية والتأخر والجمود، إلى غير ذلك من الصفات والنعوت التي أصبحنا نستعير مفاهيمها وطريقة تطبيقها من أعداء الإسلام.

وكان من الطبيعي أيضاً، أن يؤثر هذا الإستعداد، وهذا الإتجاه، على طريقة وضع النظم والقوانين في هذه البلاد، ما دام الخط الذي يجب أن يسير عليه الدستور لديهم، هو مسامرة الحضارة الغربية والمفاهيم الأجنبية ذات البريق الخادع.

ولم يدرك القائمون بالأمر، والداعون إلى هذا التحول، أن هناك اختلافاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين طبيعة الظروف التي نعيشها في البلدان الإسلامية، وبين طبيعة الظروف التي نشأت فيها الأنظمة الغربية. التي نشأت في المجتمعات التي لم ترتبط، عقائدياً، بقانون ديني شامل يشمل الحياة بجميع ألوانها وأشكالها، ولم تنفتح على الإسلام، وعلى ما فيه من خصوصية التشريع ومرونته واستجابته لمطالب الحياة، الأمر الذي جعلها تحس بالحاجة إلى ما يملأ هذا الفراغ التشريعي، ويسد هذا النقص القانوني، فكانت التشريعات الحديثة نتيجة طبيعية لذلك.

(١) سورة النساء: ١٤١ .

أما نحن المسلمين في البلاد الإسلامية، فلا نعاني مثل هذا الفراغ ولا نشكو مثل هذا النقص، لأن لنا من إسلامنا ما يكفل لنا السير في حياة رغيدة سعيدة، فقد ضمن لنا وضع التشريعات الملائمة لكل جانب من جوانب الحياة، وركز لنا القواعد العامة التي نسير على هديها، إن أعوزتنا النصوص الخاصة، في ما يجد من أوضاع، وما ينشأ من وقائع.

هذه جهة. وهناك جهة أخرى، وهي: أن طبيعة عقيدتنا وديننا ترفض أي قانون يختلف أو يتعارض مع قانون الدين وشريعته، وتعتبره ظلماً وكفراً وفسوقاً وخروجاً عن إرادة الله.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(١).

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾^(٢).

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾^(٣).

فليس لأحد حق التشريع في قبال تشريع الله، وليس لأحد حق الحكم في قبال حكم الله.

وما دام الأمر كذلك فلا يكون التشريع المخالف للإسلام ملزماً لأي مسلم باتباعه، فللمسلم أن ينتفض عليه ويخرج عن سلطانه، بل يجب عليه محاربته والنهي عنه إن أمكنه ذلك، من باب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وذلك بالإجمال هو الفارق بين ظروفنا وظروفهم. ولكن القائمين بالأمر لم يدركوا ذلك، أو لم يريدوا أن يدركوه، لخضوعهم الفكري والروحي، وأنبهارهم النفسي بالثقافة الغربية. فعمدوا إلى (استعارة) القوانين والتشريعات الأوروبية دون تحويل أو تعديل.

(١) سورة المائدة: ٤٤ .

(٢) سورة المائدة: ٤٥ .

(٣) سورة المائدة: ٤٧ .

وقد بلغ الحد ببعض هؤلاء أن أصبح هذا الإلتباع وهذا التقليد، هوساً عندهم، فليس من المهم عندهم في التشريع أن يتلاءم وطبيعة الزمان والمكان أو ينسجم مع طبيعة الذي يفرض عليه تنفيذ هذا التشريع وتطبيقه، بل المهم عندهم أن يجددوا ويسيروا مع الغرب في تشريعاته التجديدية ليكتب عنهم التاريخ أنهم كانوا من (المجددين).

ولنضرب لذلك مثلاً، فهناك التشريع الذي يتعلق بـ (حرية المرأة) فإن المفروض فيه - حسب مفاهيمهم - أن يكون في مجتمع تستطيع المرأة القيام فيه بمسؤوليتها وتعيها وعياً عميقاً، لتستطيع الاحتفاظ بهذه الحرية والارتفاع إلى مستواها، ذلك هو المفروض في طبيعة هذا التشريع وطبيعة المجتمع الذي يفرض للتشريع أن يعيش فيه، ولكن بعض بلداننا الإسلامية التي لا تزال في أول سلم التقدم والتطور الحضاري - حسب تعبيرهم - بدأت تسير في هذا التشريع شوطاً بعيداً، ربما لا تعدوه تلك البلدان التي تعتبر لديهم في القمة من الوعي والتطور.

حملات مسعورة

ولعل قضية التشريعات المتعلقة بالمرأة، تعتبر من بين القضايا التي انطلقت من خضوع بعض قادة التشريع والحكم في بلادنا، لتأثير معين، وعقدة خاصة، ناشئة من حملة مسعورة تستهدف تشويه التشريع الإسلامي في نفوس الأمة، وإثارة الشعور بالذنب لدى أتباعه؛ الأمر الذي يدعوهم إلى تلمس الأسباب والمبررات التي تحاول إرجاع التشريع إلى مرحلة معينة وظرف معين.

وربما كانت قضية تعدد الزوجات من أبرز هذه القضايا التي أثرت في أوروبا منذ القرون الوسطى كمثال على مدى ارتباطها بنظام الحريم الذي يجعل من المرأة مجرد سلعة، أو أداة للمتعة، لا تملك أن تريد، ولا تريد - كما يقول بعض الشعراء - أمام إرادة الرجل السيد الذي يكدهن في بيته كما يكدهن قطع الأثاث.

ويعالجها البعض على أساس فلسفة اجتماعية معينة، تركز على مراعاة جانب الروابط العائلية في داخل الأسرة التي تتعرض للتفكك والانفصام من جراء ذلك وما يتبع ذلك من آثار سيئة، تطبع العلاقات بين الإخوة المولودين من أمهات مختلفة بالحقد والبغضاء وغير ذلك، تبعاً لطبيعة العلاقات التي تربط بين أمهاتهم ، أو للمعاملة الي يفرق فيها الأب بين نسائه أو بين أولاده، مما يثير في داخل البيت الواحد شتى الإنفعالات السيئة، والأوضاع المرتبكة القلقة.

وقد ترتبط في أبحاث بعض الكتاب بقضية الحالة الإقتصادية، بما يثيره التعدد من ارتباك في الشؤون المالية للبيت، نتيجة تعدد النفقة وكثرة الأولاد وتشعب المسؤوليات، الأمر الذي يجعل حياة الرجل سلسلة من المتاعب المضنية التي قد تؤثر على حالته النفسية والروحية والفكرية.

وقد يزيد آخرون على هذه الإتهامات التي توجّه لهذا التشريع، وقد يحاول غيرهم من الباحثين الإسلاميين بوحى من الشعور بعقدة النقص، أن يجعلوا من هذا التشريع شيئاً غير عملي، في نظر المشترع، بل مجرد شيء نظري جعل شرطاً للحلية في الآية التي أباحت التعدد.

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾^(١) ، ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾^(٢) .

ولم يحاولوا التعمق في معنى الآيتين وملاحظة اختلاف جانب العدل في هذه الآية وتلك كما وردت به بعض الأحاديث المروية عن أهل البيت (ع) التي اعتبرت العدل في الآية الأولى في جانب النفقة، وفي الآية الثانية في جانب العاطفة والميل القلبي.

(١) سورة النساء؛ ٣ .

(٢) سورة النساء؛ ١٢٩ .

النظرة الشمولية

ولسنا هنا في سبيل تعداد الأسباب الواقعية التي تجعل من هذا التشريع شيئاً عملياً ينسجم مع واقع الحياة، ويرتبط بأكثر من جانب من جوانبها؛ ولكننا نريد أن نشير إلى قضية حساسة جداً في نظرتنا إلى الواقع العملي المرتكز على قاعدة تشريعية معينة، نتلخص في السؤال التالي:

هل يبرر وجود بعض المشاكل في تطبيق التشريع، إلغاء التشريع ذاته من دون النظر إلى إمكانية التغلب على تلك المشاكل، أو التدقيق في نوعية الأسباب الموجبة التي شاركت في حدوثها، وملاحظة ما إذا كانت ذات صلة بطبيعة التشريع أو ذات ارتباط بطريقة خاطئة في تطبيقه؟

ومن ناحية ثانية، قد يحسن بنا أن ننظر ونتأمل في ما إذا كان مجرد وجود المشكلة في حركة التشريع كافياً في إثارة عوامل النقمة ضده، أم أن القضية تقتضي منا إجراء مقارنة شاملة بين المشاكل الناشئة من وجود هذا القانون وبين المشاكل الحادثة من إلغائه؟

فإذا استطاعت المقارنة أن تضع أيدينا على الجانب الأهم في الموضوع، لنسير معه من دون النظر إلى طبيعة النتيجة في ذاتها، ما دام الهدف هو الوصول إلى العمل الذي يحل المشكلة أو يخفف من غلوائها، وإلا سيكون أي إجراء مجرد عن هذه النظرة، منطلقاً من أسس عاطفية لا تهرب من مشكلة إلا لتقع في مشكلة أعمق ولا تستسلم لترميم جانب من جوانب الحياة إلا بتهديم جانب آخر أوسع وأقوى.

ومهما كانت النتائج في علاقة التشريع بالمشكلة، فقد تكون بعض القيود الشكلية التي يمكن أن تتخذ في مجال التطبيق، مفيدة في طريق الحل، ومجدية في التخفيف من قسوة النتيجة.

ومرة أخرى يفرض الجواب نفسه أمام السؤال عن علاقة كل تشريع بالكيان

الكلي للفكرة، ومكانه من الخطة في تحقيق أهداف التشريع، واعتبار الأخطاء والمشاكل ناشئة من تطبيق التشريع ضمن كيان قانوني غريب عن أجوائه العادية.. الأمر الذي يخلق للقانون مشاكل جديدة وظروفاً صعبة.

عقدة النقص

لكن القضية - كما قلنا - لا تعدو أن تكون تعبيراً عن (عقدة النقص) التي يشعر بها القائلون على شؤون التشريع في البلاد الإسلامية تجاه كل تشريع شرعي يتعلق بالمرأة، في نطاق الخطوط التي كانت هدفاً للتبشير والمبشرين كجزء من حملة التبشير التي قادها هؤلاء ضد الإسلام والمسلمين.

ولهذا، فلم تعد القضية قضية تشريع يُراد دراسة موقعه من حياة الأمة وعقيدها، بقدر ما هي قضية تقليد أعمى للغرب وشرائعه، من أجل أن يكون التحرر هو الصفة التي يحصل عليها هؤلاء من قبل الأسياد، جزاءً على تمردهم على الخطوط الرئيسية لعقيدهم وشريعتهم.

وقد نلاحظ ذلك جيداً في واقعهم إذا لاحظنا موقفهم من تشريع البغاء مع ما فيه من امتهان لقدسية المرأة وإهدار لكرامتها حتى الانسحاق، من دون أن تثيرهم هذه المعاني أو تستوقفهم المشاكل التي تنشأ من ذلك وتترتب عليه، لأن هذا التشريع لا يلاقي ما يلاقي أي تشريع إسلامي كتعدد الزوجات من الحملات الصليبية الحاقدة من جهة، ولأن المدنية الغربية لا ترى في المشاكل التي يثيرها هذا التشريع مبرراً لإلغائه، ما دام كفيلاً بحل مشاكل أخرى ذات أهمية عندهم، من جهة أخرى.

ولهذا، فلا مانع - عند هؤلاء - من أن يبقى كضرورة حياتية تمثل أهون الشرين - في نظرهم - باعتبار أن الإلغاء يفتح المجال لانتشار البغاء السري وشيوعه في أوساط الأمة من العامة والخاصة.

ولكن مثل هذا المنطق غير وارد في موضوع التعدد، باعتبار أن البغاء يهين

المجال لانتشار فكرة البغاء مباشرة، عندما يكون للرجل مبرراته في الإنطلاق خارج البيت الزوجي في نطاق الزوجة الواحدة.

إن مثل هذا المنطق غير وارد عندهم، لأن القائمين على التشريع لا يريدون للمشاكل الحياتية أن تجد حلاً إسلامياً يعالج المشاكل في ظروفها الموضوعية الواقعية على أساس أخلاقي عملي، يرتفع بالإنسان إلى السماء من دون أن يفقده ارتباطه بالأرض.

وأخيراً.. إننا نتوجه إلى القائمين بالأمر في بلاد المسلمين أن يعوا الواقع السيئ الذي يعيشه المسلم في بلاده وحيرته بين الشريعة والقانون، مما يدفعه إلى الإرتباك والقلق والخروج عن القانون في أكثر الأحيان.

إننا نريد لهم أن ينتبهوا إلى هذا الواقع وأن يدركوا جيداً أن القانون إنما وجد لخدمة المجتمع والقيام بحاجاته، فلا يصح أن نجعله أداة لهدمه وتحطيمه ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾^(١).

* * *

(١) سورة الأحزاب: ٣٦ .

واقع المسلمين الفكري في بساطة العاطفة

استغلال السذاجة

يعاني الإنسان المسلم - إلى جانب مشاكله الكثيرة - مشكلة خطيرة، هي الجوع الفكري الذي يسيطر عليه، بإزاء الإمتلاء العاطفي الذي يأخذ عليه حياته وكيانه، الأمر الذي ولدّ عنده سذاجة في التفكير، قد تصل به إلى حدّ الشلل، كما خلق عنده اندفاعاً في العاطفة ربما بلغ إلى حدّ التهور. وهو بين هذا وذاك يعيش في دوامة من حياته بين استغلال المستغلين وتضليل المضللين. فقد شعر الأعداء بهذه السذاجة، وأدركوا عمق هذه العاطفة، فسلكوا إلى أهدافهم التخريبية وأغراضهم المسمومة أقرب الطرق انسجاماً مع عاطفته وسذاجته، فأضفوا على أفكارهم صبغة إسلامية وطابعاً دينياً تستجيب له العاطفة فتندفع نحوه، بشره وشوق، لتقدّمه إلى فكر الإنسان المسلم وكيانه غذاءً شهياً ممزوجاً بالسم والدسم، من دون أن يلتفت إلى ما فيه من خطر على روحه وعقيدته.

وهكذا تمثّلت الخطورة في هذه القضية؛ فهي لا تتصل بذات الإنسان كحالة من حالاته الفردية، بل تتصل بعقيدته ودينه وبقضية مصيره، عندما تكون عقيدته في الخط الذي يقرّر مصير حياته ومستقبله.

وبهذا تصبح هذه الحالة خطراً على الفرد والمجتمع في آن واحد، كنتيجة طبيعية

لخطرهما على العقيدة التي تقرر مصيرهما معاً، وذلك حين تسمح للأساليب الخبيثة والخطط الجهنمية بأن تزحف نحوها في سبيل القضاء عليها، فلا تشعر إلا وقد أحتوتها الهوامش والطفيليات التي تشل القلب عن الحركة وتمنعه عن الحياة.

وهكذا استطاع الهدّامون والمخربون، في كثير من عصور التاريخ، القضاء على كثير من الأفكار والمبادئ بهذه الأساليب، مستغلين السذاجة التي تسيطر على أذهان أتباع هذه المبادئ والأفكار، والتي تسمح لهم بإدخال ما يريدون إدخاله عليها من زوائد وهوامش، تجمّد كل ما في داخلها من روح وحياة.

أساليب الأعداء

أما الأساليب المتبعة في ذلك، فتختلف حسب اختلاف الزمان والمكان.

١ - فقد يجد هؤلاء الأعداء الحسّ العاطفي متجهاً إلى تقديس شخصية عظيمة من شخصيات الإسلام، بحيث يبلغ التقديس، في العمق والامتداد، إلى الحد الذي يدفع أصحابه إلى التهليل والتكبير لكل عمل يحمل شعار التقديس لهذه الشخصية، من دون التفات إلى ما وراء هذا التقديس العملي من بلايا وأخطار، فيندفعون إلى الكتابة والتأليف في ذلك الموضوع، حاشدين في داخله كل ما يهمهم إدخاله من سموم وأفكار، وربما يفرضون على هذه الشخصية المقدّسة التي يكتبون عنها، بعض أفكارهم، مستغلين قابلية ما نُسب إليها من أقوال وكلمات ككثير من التفسيرات والتأويلات التي قد تنسجم مع خطهم الفكري، فيقرؤها الإنسان المسلم فيحسبها فكرياً إسلامياً لا بدّ له من أن يجري عليه ويعتقده.

٢ - وقد يجدون العاطفة الدينية متجهة إلى تقديس مثل من المثل الإسلامية كالعطف على الفقراء وإعانتهم والاحسان إليهم، فيحاولون استغلال ذلك لإدخال ما يحملونه من أفكار معيّنة، كالاشتراكية وغيرها، بحجة انسجامها مع الدعوة الإسلامية، لتلقى الترحيب اللائق من الإنسان المسلم الذي يهّمه - بحكم سذاجته -

انسجام ما يدين به مع التيارات الفكرية الحديثة.

ولم يلتفت إلى أن هذا الانسجام لن يتحقق بمجرد التقاء الدين ببعض المبادئ في إحدى النقاط أو في بعض الأهداف، فيما إذا كان الخط الذي يسير عليه كل منهما مختلفاً، والقاعدة التي يرتكز عليها كل واحد منهما متغايرة؛ فربّ مبدأ لا تهمّه نوعية الوسائل التي توصل إلى الهدف، بينما يهتم المبدأ الآخر بطهر الوسيلة وانسجامها مع طهر الغاية.

وإذا لاحظنا الأساليب التي تتبعها الأحزاب المتعددة التي تعيش في بلاد المسلمين وتغزو أفكارهم، نجد أن الكثير منها يتجّه إلى استغلال هاتين الناحيتين؛ فيحاول بعضها اتباع الأسلوب الأول في تمجيده لشخصية النبي (ص) وأصحابه وأهل بيته، ولكن من زاويته الخاصة، كما يحاول البعض الآخر اتباع الأسلوب الثاني الذي قد ينعت الإسلام بالاشتراكية تارة، والديمقراطية أخرى، ولن تعدم الشخص الثالث الذي يحلوه وصفه بالرأسمالية ثالثة.

واندفع المسلمون - بحكم هذه السذاجة، وبحكم هذا الاستغلال البشع - إلى السير وراء هذه الأحزاب، غير ملتفتين إلى أنها تختلف عن إسلامهم في الغاية والأسلوب والقاعدة والطريق، فلم يجدوا أي حرج من اعتناق هذه المبادئ إلى جانب اعتناقهم الإسلام، كأن الإسلام عندهم مجرد سمة يتسم بها الإنسان كما يتسم بأيّة صفة أخرى وليس فكراً يعاش، ومصيراً يقرّر.

الجهل خطر

إننا نحاول - في هذه الكلمة - أن نلفت النظر إلى أن من أشد أعداء الإسلام، هو جهل المسلمين وسذاجتهم، لأنه يدفع بهم إلى السير في سبل وطرق تبعثر خطوات الإسلام وتشوّه مبادئه وتحرف أهدافه، كل ذلك، في إطار إسلامي لن تدهشك فيه الألوان العديدة التي يتلون فيها من الحمرة والصفرة والخضرة، ونحوها.

وعلى ضوء هذا، فإن علينا محاربة هذا الجهل والقضاء عليه، لنستطيع الوقوف على أقدامنا بقوة وصمود أمام هذه التيارات الكافرة الحاقدة، ولنتمكن من الإنفلات من استغلال المستغلين وتضليل المضللين، وليبقى الإسلام صفحة بيضاء ناصعة لا يدنو إليها الدس ولا التحريف، وليبقى الإنسان المسلم في حياته مسلماً فحسب، دون أن يكون شيعياً أو اشتراكياً أو ديمقراطياً.

فالإسلام شخصية مستقلة تدوب عندها كل الشخصيات المصطنعة، وتتضاءل أمامها كل المبادئ والأفكار.

تلك هي دعوتنا التي ندعو إليها، وهي كلمتنا الصريحة التي نطلقها لوجه الحق.
﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾^(١).

* * *

(١) سورة الأنعام؛ ١٥٣ .

الإنسان المسلم

بين الجهاد الداخلي والجهاد الخارجي

الصدمة القاسية

يلتقي الإنسان المسلم في طريقه الطويل بأكثر من مشكلة، يواجه فيها أزمة الحياة وقضية المصير، بكل تعقيداتها وملابساتها. فقد استيقظ من رقدته الطويلة التي تجمدت فيها مشاعره وتحجرت عندها قضيته، ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام عالم جديد، تسيطر عليه قوى المادة بكل عنفها وضراوتها، وتنحسر عنه القيم بكل نبيلها وسماحتها.

ولم يكن هذا العالم الجديد هو الذي أحسَّ به ونشأ في أجوائه الخاصة وارتبط بتقاليدها وعاداتها، ولذا فهو يلمح في داخل ذاته حركة النوازع والتأثيرات التي خلفتها في نفسه طبيعة ارتباطه بها واتصاله بظروفها في مدارك الحياة.

وهنا تبدأ مشكلته.. مشكلة الواقع الداخلي لشخصيته، التي انطلقت من خلال الطابع الذاتي الذي اكتسبه من نشأته في ظل تقاليد هذا العالم وظروفه، الأمر الذي يتعد بذاته عن حركة الحياة في رسالته ويخلق في نفسه عقدة الصراع العنيف بين ما يعيش وبين ما يفكر.

أما قوة المشكلة فتكمن في انطلاق بعض خصائصه الذاتية ونوازعه النفسية،

كقوة جديدة من قوى الصراع التي يخوض ضدها معركة العقيدة وقضية المصير. إنها قضية الإنسان الذي يعيش روح الرسالة عندما يواجه في داخل ذاته شخصيتين: شخصية الرسالة التي يجهلها ويعيش مسؤوليتها، وشخصية الواقع الخارجي المعاش الذي تأثرت به نشأته وولدت في ظلّه عاداته وتقاليده.

تلك هي مشكلة الإنسان الذي يعاني من انقسام الذات، وهو يجاهد في سبيل إيجاد ذات موحدة لمجتمع، ويعيش ازدواجية الشخصية وتوزّعها، وهو يعمل لتوحيد شخصية أمته على أساس الرسالة والفكرة.

إيجابية الحركة

ماذا يستطيع أن يفعله هذا الإنسان وهو يعيش هذا الواقع؟

في بداية الحديث عن الجواب.. لا نحسب أن ذلك يمنع من الإنطلاق، ولكننا لا ننكر أنه يخلق عقبة في الطريق، ويقيم أمام العمل بعض الحواجز والحدود، التي لن تستطيع إيقافه طويلاً لتشدّه إلى القعر، إلا ريثما تلتهب خطاه في الطريق، وتنطلق حرارة الحياة، وأصالة القيم في ذاته، لتسمو في الفضاء تاركة كل العقبات وراءها ومحطمة أمامها كل الحواجز والحدود.

إن المشكلة لا تشلّ حركة الإنسان، بل تجددّها وتبعث فيها قوةً وحيويةً جديدة، ولذا فإننا نحسب أن (المشكلة الداخلية) للإنسان المسلم لن تخلق منه إنساناً يتغذى بالقلق والحيرة، ويستريح للحياة في ظل «العقد النفسية»، بل القضية على العكس من ذلك، لأن طبيعة «الإيجابية» في داخل رسالته لا تترك له فرصة التوقّف والاستسلام للذات، وإنما تتحوّل به إلى مجال عملي ينقل المعركة إلى داخل ذاته، وتتجّه به إلى عاداته وتقاليده التي تنحرف عن خط الرسالة وتتبعه به عن أهدافها، لتدخل معها قضية الصراع، وتخوض مع نوازعها وأثارها حرب الجهاد المقدسة، حيث يشهد الموقف معركة التحرير، تحرير الإنسان ذاته من عبودية الانحراف في أروع صورها وأعظم مشاهدتها.

بين جهاديين

إنه الجهاد الأعنف، والأشد، والأكبر. كما عبّر عنه الرسول الأعظم (ص) في الحديث المأثور، وهو يخاطب أصحابه «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: هو جهاد النفس.

ولن نستطيع أن نقصر مجال الإنسان المسلم - وهو يجاهد نفسه ويصارع قوى الانحراف التي تعيش في داخله - على هذا المجال، فنبقى منتظرين النتيجة، ومترقبين النهاية، لنحدّد له - بعد ذلك - موقفه من وجهة نظر الإسلام في جهاد العقيدة أعداءها التقليديين وغير التقليديين.

لن نستطيع اختيار هذا الموقف لهذا الإنسان - في هذه الحال - لأن ذلك يعني - في الواقع - شل حركة الجهاد في سبيل الله والقضاء على العمل الإسلامي في سبيل العقيدة، لأن معركة الإنسان مع نفسه لا تنتهي إلا بانتهاء حياته، ما دامت هناك عوامل خارجية للإغراء، وأسباب حياتية للانحراف وما دامت هناك نوازع نفسية في داخله تستجيب لهذا الإغراء، وميول فكرية تتجّه نحو الانحراف، مما يدعو إلى تجدد أسباب الصراع في كل يوم بل في كل لحظة.

الفهم المغلوط

فمتى يحين وقت الجهاد العقيدي مع الآخرين؟

إن هناك من يقول:

إن على الإنسان أن ينصرف إلى نفسه فيهدبها، ويسير بها في طريق الكمال وينميها، ويجدد ملكاتها النفسية والروحية والفكرية، ليستطيع أن يجعل من نفسه المثل الكامل للإنسان في كل حين.

أما هداية الناس وإرشادهم، فهو أمر سابق لأوانه، لأنه مرتبط بكمال الإنسان المرشد، فإن الناقص لا يستطيع أن يمنح الكمال، والمنحرف لا يمكن أن يعطي الاستقامة للآخرين، وقديماً قيل: «فاقد الشيء لا يعطيه» ذلك هو ما يحاول بعضهم أن يجعله عقبة في طريق العمل من أجل العقيدة، وحاجزاً أمام الجهاد في سبيل الله، فهم يعتبرون العمل تابعاً للقابلية والصلاحية اللتين لن تتحققا إلا إذا أتيح للإنسان أن يكمل نفسه وقدّر له أن يعالج نقصه.

ولكن يبدو أن هؤلاء أخطأوا الهدف في ما رأوه، وانحرفوا عن القصد في ما قرؤوا، والآثار الدينية، القرآنية منها والنبوية.

فقد قرؤوا الحث الشديد للعاملين على أن تكون حياتهم سائرة على الخط المستقيم، فلا ينحرفون عنه وهم في طريق الدعوة إليه، ولا يبتعدون عنه وهم في مجال تقريب الناس منه. ورأوا الكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، التي أُنذرت أولئك الذين تختلف أفعالهم عن واقعهم ممن يعظ من دون اتعاظ، ويرشد من دون استرشاد.

لقد قرؤوا مثل هذه الآيات والأحاديث، فظنوا أن ذلك يمثل الدعوة الإسلامية إلى الوقوف عند حد النفس، فما دامت النفس تعاني الاهتزاز والارتباك في داخلها، فليس للإنسان أن يعمل وليس عليه أن يرشد الآخرين.

ولكن الظاهر أن ذلك لا يمثل ممن ظنوا شيئاً، بل القضية التي تمثلها هذه الآيات والأحاديث هي مهمة (التوجيه) و (الإرشاد) للدعاة بأن لا يتخلفوا عن معركتهم الداخلية مع أنفسهم، وهم يعيشون معركة العقيدة مع أعدائها ولا يستكينوا لحرارة الإيمان وقوته الأولى، عن القيام بمهمة تجديدية في كل حين، لأنهم معرضون لخطر الإنزلاق في الإغراء في كل وقت، ولإنحراف عن العقيدة في كل لحظة، فهي بمثابة القوة التي تلاحقهم لتمدهم بالإيمان، ولتحفظ خطواتهم عن الانزلاق.

كل ذلك بالأساليب المختلفة التي تندد بالنماذج التي تركت الجهاد الأكبر وهي تمارس الجهاد الأصغر، وإذاً فليست القضية قضية اشتراط الكمال الديني في طريق العمل، واختصاص المسؤولية بفئة دون فئة، بل القضية تتجّه إلى منطلق آخر يؤكد شمول المسؤولية بالتركيز على تعميق محتواها في داخل النفس، لتكون أكثر التقاءً بالجوانب الخيرة، وأبعد انطلافاً في حياة الآخرين، وأقرب اتصالاً بالأمهم وأمالهم ومشاعرهم العامة والخاصة.

ولن يعوزنا المثل على ما نقوله من خطأ الفكرة التي تعتبر الدعوة إلى السير بالنفس في طريق الكمال دعوةً إلى الإقتصار على حدود النفس من دون الإنطلاق في حياة الآخرين.

واجبات المسلم

لن يعوزنا المثل في التدليل على خطأ هذه الفكرة، فهناك الأوامر الشديدة التي تؤكد فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تلزم بها كل مكلف من دون التفريق بين فئة وأخرى، فكل فرد من المسلمين ملزم بأن يمارس دوره في عملية تحويل الناس إلى طريق الخير وإبعادهم عن طريق الشر، فإن ذلك هو أحد واجباته، تماماً كبقية الواجبات الأخرى التي لم يؤخذ فيها امتثال بقية الواجبات وعدمه وإن اعتبر ذلك في كمالها.

تلك هي بعض مظاهر الواقع الحياتي للإنسان المسلم التي تنطلق في حياته، لتبعث منها مشكلة تدفعه إلى الحركة في سبيل البحث عن الحلول وإلى العمل في سبيل الإنطلاق الإيجابي في تجسيد هذه الحلول على الصعيد العملي. وذلك هو بعض الحديث عن الجوانب التي قد تثير لدى البعض الروح الإنهزامية، وقد تخلق عند بعض آخر عقدة القلق والتردد والإرتباك.

وقد حاولنا، في ما حاولناه، أن نتفادى الوقوع في ذلك، بالعمل على اكتشاف الجوانب الإيجابية التشريعية لهذا الواقع.

في الطريق إلى الشخصية الإسلامية

سلبيات قائمة

- أن يملك المسلم شخصيته في عملية حركة وارتقاء،
- أن يتحرك الإسلام في داخل حياتنا وخارجها كقوة فكرية قائمة،
- أن يطبع الحياة بطابعه الروحي، كدين يستوعب الحياة في داخله،
- أن تنطلق كلمة (لا) تعبيراً عن رفض كل ما هو غير إسلامي، وكلمة (نعم) تعبيراً عن تأييد كل عمل إسلامي خير؛
- ذلك هو ما ندعو إليه في ما ندعو، ونهدف إلى الوصول إليه في ما نهدف.
- أما كيف نحقق ذلك، وكيف نتوصل إليه؟ فذلك ما نحاول معرفته.
- ولا بدّ لنا - ونحن في سبيل هذه المعرفة - من الاعتراف بأن هذه الخطوط التي عرضناها مفقودة من واقع حياتنا بشكل عام.
- فالإنسان المسلم - في أكثر مجتمعاتنا - إنسان مهزوز الشخصية، تتنازعه شخصيات كثيرة طارئة فتسيطر عليه في مجاله الفكري والعملية. أما شخصيته الأصلية - كمسلم - فلا تعيش في واقع حياته العام وإنما تقبع في زواياها في خمول وإسترخاء. وربما تستيقظ وتتنبه في حركة عاطفية سريعة، إذا تهيأ لها الجو الملائم

لذلك، ثم لا تلبث دون أن تهدأ، تماماً، كالرواسب الراكدة في قعر الحوض عندما يضطرب.

ومن الطبيعي لهذا الواقع، أن لا يتحرك الإسلام فيه قوةً فكريةً قائدةً وديناً يستوعب الحياة في داخله، لارتباط كل ذلك بحركة الشخصية الإسلامية في حياة الإنسان المسلم.

وفي المحطة، لا بدّ أن تكون النتيجة هي: سلبية الإنسان المسلم تجاه ما يعرض لدينه من أحداث وحركات.

بين البناء والإصلاح

قد يفرض إنسان «الحل» في العمل على نشر الثقافة الإسلامية في المجتمعات المسلمة، وتعريف المسلمين بواقع دينهم ومدى ما يحمله من حلول جذرية لمشاكلهم العديدة التي يعيشونها.

فإذا اجتمعت عناصر هذه الثقافة وتكاملت، أمكن لهم أن يحققوا شخصيتهم من جديد.

وبذلك تتحقق تلك الأهداف التي قلنا إنها مرتبطة بحركة الشخصية الإسلامية وفعاليتها.

ولكن، هل يستطيع هذا الحل أن يعطينا العلاج السليم للمشكلة؟

أما نحن فلا نحسب ذلك، لأن الثقافة المجردة لا تملك تكوين شخصية لإنسان ما، ما لم تدعمها تربية صحيحة وأجواء تساعد على نموها وتكاملها، وروحية تلتقي في ذاتها ببعض العناصر الأصلية لتلك الشخصية.

إن مهمة الثقافة في بناء الشخصية، هي تمهيد الطريق وتعبيدها أمام نشوئها ونموها، لأنها تساهم في انفتاح العقل الإنساني على العناصر الأصلية التي ترتكز

عليها وعلى المحتوى الذي تعيش في داخله وتفسح في المجال لاختبار الخصائص الكاملة في ذاتها ومدى التقائها بتلك العناصر وابتعادها عنها، كطريقة عملية للبدء بالتربية والبناء.

وقد يقول قائل: إن مهمتنا ليست مهمة بناء وتكوين، بل هي مهمة إثارة وتوعية، لأن الشخصية الإسلامية موجودة في داخل الإنسان المسلم، ولكنها تفقد الحركة والتأثير في حياته.

وإذا كانت مهمتنا هي الإثارة وإعطاء الحركة لهذه الشخصية فربما تكون المشكلة أقل تعقيداً وصعوبة، لأن مهمة البناء تتعلق بالأسس والجزور وتنطلق في عملية خلق إنسان جديد.

أما مهمة الإثارة فلا تتعلق إلا بالسطوح وتنقيتها مما علق بها من طفيليات وأدران، لتنتقل في عملية إصلاح لهذا الإنسان.

أما تعليقنا على هذا القول فلا ينطلق من إنكار نوعية المهمة وطبيعة القضية التي نعيشها، بل نحاول مناقشة طبيعة الحكم الذي أطلق عليها.

فما يدرينا أن تكون عملية الإثارة والإصلاح أقل صعوبة وتعقيداً من عملية البناء، ولا سيما إذا اتصلت الطفيليات بالأسس وتعلقت بالجزور؟

بل نستطيع القول إن عملية الإصلاح أشد - بمراتب - من عملية البناء، لأنها تتطلب الدقة والحذر في العمل، لئلا يتأثر البعض على حساب البعض الآخر.

الحسّ الديني

وما دمنّا في سبيل البحث عن (حل) لمشكلتنا، فقد يبدولنا أن الخطوة العملية التي يلزمنا القيام بها هي خلق الأجواء التي تساعد على شحن الإنسان المسلم عاطفياً، وتغذية روحه الديني بأسلوب عاطفي متزن. فإذا حصلنا على مثل هذه

الأجواء، وأمكننا إثارة وجدانه الإسلامي وحسه الديني، كانت التربية خطوة ثانية لا بدّ من أن نخطوها بروية واتزان.

أما كيف نستطيع الحصول على ذلك؟ فهذا ما نحاول أن نضع أيدينا عليه وأن نلمحه في تجاربنا القريبة الماضية بكل وعي وقوة.

فقد لمس الكثيرون الإندفاع المحموم الذي قامت به بعض المبادئ، الكافرة في بعض البلدان الإسلامية نحو تركيز فكرتهم، والسيطرة على الواقع بكل أساليب الضغط والإرهاب في بعض الأحيان، والإغراء في البعض الآخر.

واندفع الناس مع التيار المجنون بفعل هذه الأساليب، وبسبب ردة الفعل التي أحدثتها الواقع الفاسد الذي عاشوه، أملاً في أن يجدوا في واقعهم الجديد ما يرفع عنهم تلك المرارة وذلك الإضطهاد.

وكانت أيام عصيبة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى العنف، وتلفت الناس يبحثون عن المهرب بعد أن اتضحت لهم اللعبة وانكشفت الخدعة، وكان للعاطفة الدينية والجو الروحي، الذي انطلق في تلك الآونة كأعنف ما يكون، أكبر الأثر في إنقاذ المسلمين من ذلك الواقع.

وكانت الفتاوى التي أعلنت كفر الشيوعية وإلحادها، المنطلق الذي انطلقت منه هذه العاطفة، فماذا كانت النتيجة؟

إن هذه الفتاوى لم تعد مجرد كلمات معدودة، بل تحولت إلى حياة تتحرك بكل ما في داخلها في قوة وحيوية ونشاط فتنحرك معها الجماهير المسلمة بعزم وبقظة.

فقد عاشت هذا الجو الديني بكل إحساسها، فوجدت فيه ما يرفع الغشاوة عن عيونها والظلمة عن واقعها، وهكذا بدأ رد الفعل يتعاظم ويتعاظم حتى اندفع الكثيرون يفكرون ويفكرون في تركيز هذه العاطفة وتنمية هذا الوعي كأساس للوقوف أمام التيارات المعادية للإسلام.

وهكذا شاركت هذه الصدمة، وما أثير حولها من مشاكل وقضايا، في إثارة الوجدان الديني، وبالتالي في دفعه إلى أن يفكر في مدى أوسع من المدى الذي عاشته القضية، ويسير في سبيل أن يفرض فيه شخصيته الإسلامية ككائن حي يحرك الحياة ويتحرك في داخلها.

وقد يحلو لبعض الفئات أن ترجع هذا الأثر إلى بعض الظروف العامة المحيطة بالموضوع، وقد يحلو للبعض الآخر أن يسبغ على نفسه صفة القيادة لهذه الجماهير ويذكر لنا في ما يذكر الفاعليات والبطولات التي قام بها في هذا المجال، ويحدثك عن شخصيات كثيرة طارئة ساعدت على الوقوف في وجه التيار.

ونحن لا نريد الدخول في مناقشة حول هذه القضية، ولا نريد أن ننكر الأدوار التي تدعى والظروف التي أحاطت بالقضية.

ولكننا نريد تقرير حقيقة واقعة، هي أن الدين وما يحمله من قوى روحية لا تزال كامنة في نفوس المسلمين، هو المنطلق الأكبر لهذه الإنطلاقة وهذا الإنتصار.

استعادة الشخصية

تلك هي إحدى التجارب التي عشناها في أمسنا القريب، واستفدنا منها أنه لا يزال هناك شيء من ملامح الشخصية الإسلامية، نستطيع أن نستفيد منه كخميرة للعمل - إن صح التعبير - ولو كان ذلك من وجهة أنه لا يجعل الإنسان غريباً عن واقع القضية، أو لأنه يفسح في المجال العملي لنمو العمل وتقدمه، إذا أثرت بعض القضايا التي تتعلق بطبيعة الدعوة كسبيل لإيجاد جو تنفس فيه.

وإذا كان الأمر كذلك، فما علينا - في محاولتنا لبعث هذه الشخصية إلى الحياة من جديد - إلا أن نخلق لها الكثير من هذه الأجواء التي تنفس فيها عبير الحياة. وهذه مهمة قد لا تقتصر على النخبة الصالحة التي تمسك بيدها زمام العمل في سبيل الله، والدعوة إليه، بل تشمل كل مسلم يحاول أن يستعيد شخصيته

الإسلامية، ويعني المرحلة الدقيقة التي اجتاحت كثيراً من الشخصيات الطارئة على شخصية الإسلام، لأن المشكلة لا تنطلق من الخارج، لتستطيع هذه النخبة ملء الفراغ، وإنما تنطلق من الداخل والخارج.

ففي المجال الفكري: يحاول هذا الإنسان أن يثير الحركة في عقله وذنه بنشاط ويقظة، فيعتمد إلى أن يعيش أحداث عصره وظروفها، فيحللها ويحكمها على أساس الخط الإسلامي العريض، ومن ثم ينطلق لتحديد موقفه الفكري منها بالرفض أو التأييد.

ومن البديهي أنه سيضطر، في سبيل ذلك، إلى أن يضع يديه على الخط العام للإسلام، وعلى الإتجاهات التي يحاول أعداؤه - من خلالها - أن يشوهوا وجه الإسلام، وعلى العقوبات التي يريدون أن يضعوها أمام تقدمه، وستكون النتيجة - في نهاية المطاف - أن يرتفع الرصيد الفكري لهذا الإنسان، فيشارك - بعد ذلك - في إثارة هذه الشخصية وتنقيتها مما علق بها من شوائب وأدران.

وفي المجال العملي: يبدأ هذا الإنسان في دفع خطواته وتحديدها، على هدى الإسلام، ويحاول - في الوقت نفسه - أن يجر مجتمعه إلى هذا السبيل وهذا الهدف. وهنا، لا يملك إلا أن يحس بإسلامه، وهو يتحرك في حياته ومجتمعه ليرفض ما لا ينسجم مع الإسلام، ويقبل ما يتلاءم معه، فلا يشعر بانفصال شخصيته عن الآخرين، وإنما يحس، بعمق أنه يشاركهم في تحديد مصيرهم المشترك على بيّنة وإيمان.

أما مهمة النخبة الصالحة، فهي مهمة القيادة والتوجيه والإرشاد بأسلوب عملي صحيح.

تلك هي بعض الملامح التي قد نجد عندها بعض الحل، وربما تكون هناك حلول أخرى قد نعرض لها في وقت آخر.

الإنسان المسلم والمشكلة الإسلامية

حقيقة المشكلة

هناك في طبيعة المشكلة الإسلامية واقعان نعيشهما في حياتنا العامة، في الخارج والداخل.

أما الواقع الخارجي، فيتمثل في انحسار الإسلام عن واقع الحياة وانفساح المجال أمام التيارات الكافرة والضالة التي انطلقت في عملية تهديم للقيم وإفساد للضمائر والنفوس.

وأما الواقع الداخلي، فيتمثل في انهزام الإنسان أمام التيارات المعادية وضراوتها، واستسلامه الهادئ لجموح الدعوات المناهضة له وطموحها بالأخرة وبالتالي فقدان الثقة بنفسه وبقضيته، فلم يعد يؤمن بأن له قضية يكافح في سبيلها، وقيماً يعمل من أجل تركيزها، وشخصية تملك القوة كي تقول: لا، أو نعم، ولم تقتصر القضية على هذا، بل تعدته إلى اعتبار التفكير في العمل على إعادة الإسلام إلى الحياة، تفكيراً خيالياً، لا يجدي إلا في المشاركة في حشد الأذهان بمزيد من الترف الفكري، وإلا في خلق المتاعب للناس الآمنين وتعطيل مواهبهم عن الانطلاق في مجراها الطبيعي.

وربما يكون الواقع الثاني من آثار الواقع الأول ونتائجه؛ فإن انحسار الإسلام

عن واقع الحياة لم يكن عملية أنية تحدث فجأة لتَهز الضمير المسلم في عملية احتجاج واستنكار.. وإنما حدثت بشكل تدريجي يشوّه الحكم الإسلامي حتى في نظر المسلمين، بحيث كانوا يودون الخلاص منه بشكل لا شعوري.

فقد تمثّل في الحكم الفردي، والطغيان الشخصي، بالإضافة إلى التعفن الداخلي في أجهزة الحكم وطبيعته، حتى أصبح الحكم الإسلامي - حين يطلق - يمثل «السلطنة» بكل آثامها وموبقاتها، واستغل الكافرون والمضلّلون هذا الواقع الذي عاشه الحكم الإسلامي في أواخر أيامه. فحشدوا كل ما لديهم من إمكانيات مادية وثقافية لزرع بذور الشك في نفوس الأجيال الطالعة من المسلمين، وإثارة النقمة تجاه إعادة الإسلام إلى الحكم.

وقد نجحوا في ذلك إلى حدّ ما، وأصبح الإنسان المسلم يعيش في فراغ فكري من ناحية نظام الحكم وطبيعته، وبدأت الأنظمة الغربية تغد إلينا بشكلها الجذاب الخداع، وهكذا دخلت حياتنا حتى أصبحت تتمثّل فيها كشكل طبيعي يفرضه الواقع وتقتضيه الضرورة.

وهكذا بدأ الإسلام ينحسر عن نفس الإنسان المسلم وعقله كنظام للحياة، وبدأت الصفة الفردية للدين تأخذ مجالها في ذهن هذا الإنسان، استجابةً لفكرة «فصل الدين عن الدولة» أو «الدين لله والوطن للجميع». وتطوّر الواقع، حتى بدأنا نشعر بالانهيار أمام تيار الحضارة الغربية الجارف.

وكان رد الفعل قوياً، عند الطبقة المؤمنة الواعية، وانطلقت الأصوات المسلمة الخيرة، لتعيد المسلمين إلى إسلامهم، ولتعيد الإسلام إلى نفوس المسلمين وأذهانهم، كطريقة عملية لإعادته إلى حياتهم وواقعهم، وبدأ الغافلون ينتبهون وبدأت اليقظة تداعب أجفان النائمين، ولكن في عملية تتأوّب طويل. فقد انفتحت الأعين على واقع «القضية الإسلامية»، فإذا هي بين فئات استخدمها الأجنبي لطقن الإسلام في الداخل، وبين فئات لا تملك من أسباب القوة إلا إيمانها وإخلاصها، بينما يملك

الأعداء كل مقوّمات القوة، وكل أساليب الإغراء والدعاية، سواء في ذلك الناحية الثقافية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية. وإذا بنا ننطلق للعمل في ظل هذا الواقع.

ومن الطبيعي أن النفوس الضعيفة التي لم تنفتح بعد على قضيتها وأهدافها، لا تملك - إزاء هذا الواقع - إلا التلاشي والانهيار أمام قوّته وإغرائه. ولا أقلّ من أن يبعث فيها الخوف والقلق وفقدان الثقة.

ولعلنا نستطيع - من خلال العرض الذي قدّمناه لهذا الواقع أن نضع أيدينا على حقيقة المشكلة التي نعيشها ومدى خطورتها، ألا وهي مشكلة الواقع الداخلي للإنسان المسلم. إنها ليست مشكلة ثقافة أو فكر فحسب، بقدر ما هي مشكلة انعدام الثقة وطغيان الخوف والقلق.

فإذا أردنا أن نبدأ عملنا في قوّة وعزيمة، فيلزمنا - قبل كل شيء - البدء في تهديم هذه الأسوار الشامخة من الخوف والقلق التي تفصل إنساننا المسلم عن قضيته وتبعده عن هدفه.

ولكن.. ما هو الحل لهذه المشكلة؟.. وما هي الطريقة التي نستطيع بها تهديم الأسوار؟

حلول ساذجة

إن علينا أن نرفض مقدماً كل حل يعتمد على إثارة الهمم وشحن العزائم وإعادة التجارب الماضية، التي خاضها الإسلام وغيره من الدعوات، إلى الأذهان، ليقتنعوا، إذا تأملوها، بأن مثل هذا الواقع لا يمنع الدعوة من أن تنطلق وتفرض وجودها.

علينا أن نرفض هذا «الحل» مقدماً، كما نرفض كل الأساليب الوعظية التقليدية، لأن ذلك لا يتناول المشكلة إلا من الخارج، بينما هي متّصلة بواقع الإنسان الداخلي.

إن مثل هذه «الحلول» لا تملك إلا التشجيع الساذج، بعد أن يكون الجو معداً للعمل، وتكون النفس منطلقة نحوه.

القلق الإيجابي

ربما نستطيع أن نجد بعض الحل في العمل على تنمية هذا الخوف الذي يعيش في داخل هذا الإنسان وتغذية القلق الذي يغزو عقله. فبدلاً من أن يبعث هذا الخوف أو هذا القلق في نفسه الخمول والاستكانة والسلبية المطلقة، يعود ليدفعه نحو العمل والتفكير في مشكلته بشكل إيجابي. وبذلك يعود القلق منتجاً بدلاً من أن يكون مهدماً.

أما كيف نستطيع أن نجعل هذا القلق إيجابياً منتجاً؟ فهذا ما لا نستطيع أن نحصره في أسلوب واحد، نظراً إلى اختلاف الأساليب حسب الظروف، ولكن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى سبيل من هذه السبل كمثال من الأمثلة التي تضع أيدينا على الحل، وتفتح أعيننا على واقعه.

فقد يبدو لنا أن هذا الخوف من القوى الهائلة التي تحيط به، من جهة، والإغراء الذي يتعرض له، من جهة أخرى، قد خلق في نفسه جواً من اللامبالاة، تجاه قضية مصيره، وحالة من الاندفاع الساذج وراء تهاويل الحضارة، فلم يحاول أن يتساءل عما وراء الدرب الذي يسير فيه، أو المدى الذي ينطلق نحوه. إنما هو الطريق يحثّ خطاه فيه، وليس من المهم كيف تكون النهاية. إنها المحاولة للهرب من واقع المشكلة.

أسلوب الحل

أمّا الأسلوب الذي نحاوله، في إنقاذه من هذا الجو، فهو تهيئة جوه النفسي للصراع والقلق بالنسبة إلى هذا الواقع، ليندفع بوحى هذا الصراع والقلق إلى البحث عن الحل وعن الطريق والغاية. وسبيلنا إلى إنقاذه حينئذٍ، هو العمل على

إخراجه من اللامبالاة، وذلك بوضع يديه على الأخطار المحدقة به من جرّاء استسلامه لهذه الحضارة، وفتح عينيه على مساوئها وعيوبها، وعلى الجذب الروحي والمعنوي الذي يعانیه الإنسان في ظلها، وعلى التمزّق الذي يلاقيه المجتمع في أجوائها.

وهنا، لا بدّ له، كإنسان يعي ويشعر، من أن يعيش الصراع في قضية المصير فيصبح مشكلة حياته، التي يبحث عن حلولها.

أما نحن، فعلياً أن لا نتركه وحده في ميدان الصراع، بل يلزمنا العمل على إثارة الحلول أمامه بروح حيادية متزنة، ليعيش الصراع ثانياً بعمق فيشعر بأن مشكلته هذه ليست ترفاً ذهنياً يعيش فيه، وإنما هي واقع حيّ تتزاحم حوله الحلول.

وهنا تلزمنا إثارة قضية الإسلام في حياته، كحلّ جذري لمشكلة الحياة، في صورته الأصلية، في صفائه ونقاؤه بعيداً عن الهوامش والطفيليات التي علقت به عبر التاريخ.

فإذا جعلناه وجهاً لوجه أمام هذه القضية، في الوقت الذي يكون جوّه النفسي جاهزاً للعمل، فإننا نستطيع أن نحول قلقه وخوفه من عمل سلبي إلى عمل إيجابي، لأنه يشعر حينئذٍ بأنه يعيش لقضية الحياة الكبرى ولا يعيش لواقعه المحدود.

وخلاصة القول: لندع الإنسان وجهاً لوجه أمام مشكلته، لنجعله يعيش تلك المشكلة ويحسّ بعمق جذورها، فإذا انطلق مع هذا الواقع كان بإمكاننا أن نضع يديه على الحلول، وأن نضع أيدينا معه لنشير له إلى هذا الحل.

* * *

الإنسان المسلم

بين أساليب الحق وأساليب الباطل

غاية الصراع

يمثل الصراع الفكري والروحي في حياة إنساننا المسلم، دور الواقع الحركي لحياته كمسلم، والطبيعة الحيّة لحركة إسلامه في الحياة وذلك انطلاقاً من السمة الرسالية التي تطبع الدين الإسلامي في ضمير معتنقيه، الأمر الذي يفتح المعركة أمامهم في داخل نواتهم، من أجل أن تعيش وعي الرسالة وحيويتها، وفي خارجها، من أجل أن ينتشر الإسلام في الأرض وينطلق المد البشري في موكبه في يقظة إسلامية رائدة.

وإذا كان الصراع هو واقع حياته، كمسلم، وطبيعة حركة الإسلام في الحياة، فلا بدّ من أن يُعدّ له عدته، فيهيّئ له أدواته، ويحفظ له طابعه الإسلامي الذي يحاول أن يمدّ العقيدة بالروح قبل أن يمدّها بالاتباع.

أما لماذا يلزم في الصراع أن يعيش الطابع الإسلامي، وهو يستخدم أدواته، أو يؤكّد حيوية هذا الطابع وهو يستوحي أساليبه؟ فهو سؤال لن نجد أية صعوبة في جوابه، ولن نضطر في التعرّف عليه إلى ارتكاب أيّ تكلف.

فالإنسان المسلم ليس فاتحاً تسيطر عليه شهوة الحكم والسيطرة، وليس تاجراً

يعيش في ميزان الأرباح والخسائر، فهو لا يستهدف من خلال حركة إسلامه أن يحكم الحياة للحكم ذاته، وإلاّ لانحرف عن خطّه الإسلامي الواضح الذي يحارب في الإنسان كل شهوة للحكم، وكل رغبة في السلطان لمجرد العلو والرفعة، كما نجده ماثلاً في الحقيقة القرآنية الحاسمة التي انطلقت لتقول بكل قوّة، في الآية الكريمة: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(١).

بل كل ما يستهدفه إنساننا المسلم في كلّ ذلك، هو الوصول إلى أهداف الإسلام في العمل وغاياته في الصراع، من بناء الإسلام في نفس الإنسان وإشاعة العدالة لكل كائن حيّ، كما يتمثل ذلك في الكلمة الخالدة التي قالها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأطلقها من كل قلبه، لتقول لأولئك الذين ظنّوا حبه للسلطة في صراعه المرير، الذي خاضه ضد القوى التي حاولت أن تنحرف بالإسلام عن طريقه وتوجهه إلى غير وجهته:

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلاً على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولأغفيت دنياكم هذه أزهد عندي من عفة عنز»^(٢).

وفي كلمة أخرى - مع ابن عباس - عندما وجده يخصف نعله بيده قال، ما مضمونه «إنها أعظم من امرتكم هذه إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»^(٣).

تلك هي الروح التي يعيشها الإنسان المسلم في أهدافه نحو العمل، وتلك هي الأهداف التي يستهدفها من عمله وهو يعمل، وحركته وهو يتحرك.

أن ينهزم الباطل ويرتفع الحق والعدل في رحاب الحياة حباً ورفاهاً وسلاماً،

(١) سورة القصص؛ ٨٣ .

(٢) نهج البلاغة؛ ج ١، باب ٣، ص ٢٠٢ .

(٣) نهج البلاغة؛ ج ٢، باب ٣٢، ص ١٨٥ .

وتلك هي الحقيقة التي لا يزال ينتظرها الملايين من المسلمين في روح يَقِظَةٍ مطمئنةٍ لتملا «الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

استقامة الوسائل

وإذا كانت الأهداف هي هذه، فما الذي يتحتم على الإنسان المسلم الذي يحمل عبء الرسالة وثقل القضية على أكتافه، ويتحمل مسؤولية العمل في سبيل ذلك؟ ما الذي يجب على هذا الإنسان أن يعمل؟

هل يحاول سلوك كل طريق يجدها أمامه في سبيل بلوغ هذه الأهداف؟

هل يخلط الحق بالباطل في حدة الصراع وقوته، بدون التفات إلى طابع الصراع وطبيعته، فلا تهمة نظافة الوسيلة التي يستخدمها ما دام الهدف الذي يستهدفه حقاً؟ وإذاً، فلا مانع لديه من أن يكذب ويخادع ويراع في سبيل تأكيد حجته وإتمام برهانه.

تلك هي علامات الاستفهام التي تبحث عن جواب. ونحسب أن الجواب لن يكون إيجاباً على ذلك، كما نظن أن طبيعة الأهداف التي أُلحنا في ما سبق تستطيع أن تحدد لنا نوعية الجواب.

ومعنى ذلك: أنه يريد لحياة الناس أن تركز على الحق وتسير عليه، فيكون الحق هو الذي يحدد أهدافهم في الحياة، وإذاً فلا بد من أن تكون الأهداف سائرة في نطاق الحق لتكون إسلامية، وهو الذي يحدد وسائلهم نحو الأهداف، فلن تكون الوسائل إسلامية ما دامت تركز على الباطل وتبتعد عن الحق.

ولن يجدينا القول بأن وسائل الباطل تنفع في الوصول إلى الهدف الحق، لأننا إن ربحنا حقاً في الوصول إلى الهدف الحق، فقد خسرنا حقاً آخر في طريق الهدف.

وتلك قضية لن يكون لها مجال في حساب الرسالات، لأن الخط الرسالي وحدة لا تتجزأ. والحق في رسالة الإسلام، هو الخط الرسالي المستقيم، فالإنحراف عنه ولو في بعض الحالات، هو انحراف عن الرسالة نفسها.

ومن جهة أخرى.. فإننا نجد هذه الحقيقة منطلقة من طبيعة واقع العمل الإسلامي، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نربح إيمان أي إنسان وعقيدته ونجعلها منسجماً مع الخط الإسلامي العام، إذا أعطيناه من أسلوبنا الحجّة على انحرافنا عن هذا الخط، ونحن في سبيل الأخذ بيده للوصول إليه.

لا أحسب أن القارئ يختلف معي في أن الصدمة ستكون عنيفة جداً بالنسبة إليه إذا اطلع على واقع الأمر.

ومن ناحية ثالثة: إننا نعتقد أن الإصرار على الاستقامة في الخط الإسلامي للعمل، من الأمور التي تفرضها حاجة العمل في سبيل الله للحياة.

فقد يكون من المؤكد أن الكثيرين من الناس يصفون الحلول الإسلامية التي قدّمها الإسلام لمشاكل الحياة، بالمثالية، ويعتبرون الأساليب التي يتبعها في سبيل الوصول إلى ذلك الحل غير واقعية وغير عملية، وأن الخيال والمثالية يسيطران عليها، إلى غير ذلك من النعوت المترادفة وغير المترادفة. وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك، فيستدلون ببعض المحاولات التطبيقية لهذه الحلول التي يزعمون - في سبيل إخفاقتها - أنها لا تتلاءم وواقع الحياة.

لا تمزج الحق بالباطل

وإذا عرفنا وجود هذه النظرة لدى الكثيرين من الناس عن طبيعة الإسلام نفسه، وأدركنا ضرورة السعي نحو تحطيم هذه الصورة المشوّهة وإبعاد الناس عن التأثير بها، لاستطعننا أن نعرف كم يكون من الضروري أن لا نعطي هؤلاء حجّة على ما يقولون.

فقد يكون خلط الحق بالباطل في أساليب الصراع، دليلاً في نظرهم على أن الحق لا يستطيع الاستقلال بنفسه في قيادة الحياة بكل ألوانها وأشكالها، ما لم يطعم بالباطل ولو في أساليبه.

وقد حاول الإمام أبو عبد الله جعفر بن الصادق (ع) أن يثير هذه القضية مع أصحابه ويشير إلى خطورتها في مجال الصراع. فقد استمع الإمام (ع) إلى عدد من أصحابه، وهم يناقشون رجلاً شامياً في أمر الإمامة ويحاولونه في سبيل إثبات ما يعتقدونه في شأنها. وحاول كل واحد منهم أن يقيم الحجة على قضيته بأسلوبه الخاص الذي يعتقد أنه يوصل إلى الهدف ويؤدي إلى النتيجة.

وكان قيس الماصر - وهذا اسمه - أحد هؤلاء. ويبدو أنه حاول أن يربح المعركة بالحق والباطل، وينتصر للعقيدة بكل ما يمكن أن يكون حجة دامغة توقف الخصم عند حده. وربما كانت الفكرة التي تسيطر عليه، هي أنه أمام خصم عنيد لا بد له من أن يهزمه، حيث كان لمعنى «الخصومة» بكل ما تدل عليه، الأثر الكبير في طبيعة موقفه. ولم تكن الفكرة أنه أمام إنسان يخالفه في الرأي، أو لا يوافقه على الأقل، واردة لديه، وقد تكون تلك الفكرة هي المسيطرة عليه عندما كان يحاور ويجادل، ومن هنا لجأ إلى كل وسيلة تصل به إلى القضاء على خصمه والانتصار عليه معتقداً شرعية ذلك ما دام الهدف هو الانتصار لفكرة الحق.

أما موقف الإمام الصادق منه، فقد كان موقف الناقد الموجّه الذي يأخذ عليه هذا الأسلوب في الجدل، وهذه الطريقة في الصراع الفكري من أجل العقيدة، ويحاول توجيهه نحو الأسلوب الإسلامي الأمثل في العمل والدعوة إلى الله، وكان مما قاله الإمام الصادق عليه السلام: «لا تمزج الحق بالباطل».

وإذا وقفنا قليلاً مع هذه الكلمة، لوجدناها - في الوقت الذي تحاول فيه أن تأخذ على هذا الإنسان موقفه - تبدأ في توجيهه وتنبيهه إلى الحقيقة الأصلية التي تركز على أساس أن الحق يستطيع أن يهزم الباطل وحده بدون حاجة إلى باطل معه.

فليست وسائل الحق لهداية الناس وإيصالهم إلى الغاية محصورة في نطاق محدود، وليست مجالاته مختصة بأفاق ضيقة، بل هي ممتدة إلى آفاق الحياة ومجالاتها إلى أبعد حد.. ففي كل ظاهرة من ظواهر الحياة دليل على الحقيقة، وفي كل حقيقة من حقائقها إرشاد إلى الواقع، وفي كل مجال من مجالاتها متسع للقول ومنطلق للعمل، على أساس إسلامي سليم.

وإذا كانت القضية في هذا المستوى من الامتداد والاتساع، فلا بد للرائد من التوفر على دراسة سبل الحق والتعمق في مصادره وموارده، والانطلاق إلى البعيد والقريب من آفاقه، ليستطيع السير بالحياة تحت ظلال الحق وفي هداه، من دون حاجة إلى الباطل في أي شأن من الشؤون العامة والخاصة.

الجدال الحسن

وقد نجد ملامح هذه الحقيقة في بعض الأحاديث المروية عن الإمام جعفر الصادق (ع).

فقد روي عنه أنه قال - وقد ذكر عنده الجدل في الدين وأن رسول الله (ص) والأئمة (ع) قد نهوا عنه - قال: لم ينه عنه مطلقاً ولكنه نهى عن الجدل بغير التي هي أحسن. أما تسمعون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) فالجدل بالتي هي أحسن قد قرنه العلماء بالدين. والجدل بغير التي هي أحسن محرم، حرمة الله على شيعتنا، وكيف يحرم الله الجدل جملة وهو يقول: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾^(٣) قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) فجعل

(١) سورة العنكبوت: ٤٦ .

(٢) سورة النحل: ١٢٥ .

(٣) سورة البقرة: ١١١ .

(٤) سورة البقرة: ١١١ .

علم الصدق الإتيان بالبرهان، وهل يأتي البرهان إلا في حد الجدل بالتي هي أحسن؟

قيل: يا ابن رسول الله، فما الجدل بالتي هي أحسن، والتي ليست بأحسن؟ قال: أما الجدل الذي بغير التي هي أحسن، فأن تجادل مبطلاً فيورد عليك باطلاً فلا تردّه بحجة قد نصبها الله، ولكن تجحد قوله أو تجحد حقاً. يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك فيه حجة، لأنك لا تدري كيف المخلص منه، فذلك حرام علي شيعتنا أن يصير فتنة على ضعفاء إخوانهم وعلى المبطلين، أما المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضعف ما في يده حجة على باطله، وأما الضعفاء منكم فتغتم قلوبهم لما يرون من ضعف الحق في يد الباطل.

وأما الجدل بالتي هي أحسن، فهو ما أمر الله به نبيه أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت وإحياءه له فقال الله تعالى - حاكياً عنه - ﴿وَضَرْبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(١).

فقال الله تعالى في الرد عليه ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾^(٢).

فأراد الله من نبيه أن يجادل المبطل الذي قال: كيف يمكن أن يبعث الله هذه العظام وهي رميم؟ فقال الله: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٣) أفيعجز من ابتداء به لا من شيء أن يعيده بعد أن يبلى، بل ابتداءه أصعب عندكم من إعادته. ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾^(٤) أي إذا كان قد كمن

(١) سورة يس: ٧٨ .

(٢) سورة يس: ٧٩ - ٨٠ .

(٣) سورة يس: ٧٩ .

(٤) سورة يس: ٨٠ .

النار الحارة في الشجر الأخضر الرطب ثم يستخرجها فعرفكم أنه على إعادة من بلي أقدر. ثم قال: ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾^(١) أي إذا كان خلق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أوهامكم وقدركم فكيف جوزتم من الله خلق الأعجب عندكم والأصعب لديكم ولا تجوزون ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي؟

قال الصادق (ع): فهذا الجدل بالتي هي أحسن، لأن فيها قطع عذر الكافرين وإزالة شبههم، وأما الجدل بغير التي هي أحسن فإن تجدد حقاً لا يمكنك أن تفرق بينه وبين باطل من تجادله، وإنما تدفعه عن باطله بأن تجدد الحق، فهذا هو المحرم لأنك مثله، جدد حقاً وجددت حقاً آخر^(٢).

وقد نقلنا هذا الحديث بطوله، لاشتماله على بعض النماذج الحية للأسلوب الإسلامي في الجدل والصراع. وسواءً أصحّت هذه الرواية عن الصادق (ع) أم لم تصح، فإننا واجدون فيها الحقيقة التي نلتقي بها في أكثر من آية ومع أكثر من حديث.

وهي الحقيقة التي تشجب صدور الباطل عن المسلم وجود الحق في أي زمان ومكان، لأنه إن لم يتبع ذلك فلن يبقى هناك فاصل بينه وبين المبطل، كما ورد في الحديث «لأنه جدد حقاً وجددت حقاً مثله».

وأخيراً، إن على المسلم إذا أخلص لرسالته ووعى أهدافها أن يدرك مسؤوليته أمام الله تعالى في ما يهدف وفي ما يعمل، فلا يحاول الانحراف عن إرادة الله تعالى في وسائله كما لا يحاول الانحراف عنها في غاياته، فإن الله تعالى «لا يطاق من حيث يعصى» في أية حالة من الحالات.

كما أن عليه أن يدرك أيضاً - إذا أراد العمل في سبيل الله - أن أية خطوة يخطوها في هذا السبيل، وأية كلمة يتكلم بها في هذا المجال، تعتبر حجة على رسالته، أو لرسالته، فليفكر طويلاً، وليحذر قبل أن يضع قدمه في بداية الطريق.

(١) سورة يس: ٨١ .

(٢) البحار، ج ٩ ص ٢٠٩، الطبعة الجديدة.

أزمة الإنسان المسلم أمام حالات الشك

مرونة التشريع

يتميز الإسلام في تشريعاته العامة بروحه العملية المرنة، التي لا تجعل الإنسان في موقف المتجمد الحائر، إزاء بعض الحالات النفسية الطارئة في ما يتعلق بالتشريع، فلم يحاول أن يقف به عند هذه الحالة، ليجتزئ وساوسه وهواجسه وليندفع وراء الاحتمالات اللامتناهية، بل حاول أن يرسم له الطريق ويحدد له الخطى في منهج واضح مستقيم.

فقد نلاحظ أن من بين الحالات التي تعترض الإنسان، وهو يمارس حياته العملية مع الآخرين، حالة الشك، في تحديد تكليفه ووظيفته العملية من حيث المبدأ والموضوع والطريق.

وهناك الشك في معاملاته التي يجريها مع أفراد مجتمعه، كما يجد أمامه الشك في الناس الذين يعيشون معه، في أخلاقهم وأعمالهم ودوافعهم الذاتية في العمل.

أما كيف ينشأ هذا الشك وينمو في داخل الإنسان، فنستطيع أن نتعرفه إذا وقفنا مع الألوان التي عرضناها وقفة قصيرة.

غياب الدليل

ففي التشريع، يلتقي الإنسان ببعض الحالات، التي يفقد فيها الحجة الواضحة

والدليل الصريح على الحكم الشرعي كنتيجة لاختفاء الطرق التي تصل به إلى معرفة واقع التشريع في بعض الموارد المعينة، فلا يملك في هذه الحالة إلا أن يعيش الشك والحيرة في داخل ذاته حول نوعية الحكم الذي يلزمه السير عليه، هل هو الوجوب أم التحريم، وحول الموضوع الذي يدور الحكم في إطاره، وفي طريقة ممارسة هذا التشريع عملياً، فماذا يكون موقفه من ذلك؟

أَيُقَدِّمُ أم يُحَجِّمُ؟ أيفعل أم يترك؟

وما الذي يفعله أو يتركه، وما هو الطريق الذي يسلكه؟ هذا أم ذاك؟

كل هذ الأسئلة تدور في ذهنه، وهو يعيش حالة الشك، ولكنها لا تدور لتبقى كذلك، بل لتنتظر الجواب لديه وهو يحاول تلمس الطريق إلى طاعة الله، ليسير في خطه المستقيم على هدى واطمئنان.

ابتلاءات عملية

وفي المجال العملي، الذي يتعلق بمعاملاته مع الآخرين، في نطاق التعامل المالي سواءً في البيع والشراء والإجارة والشركة وغيرها من المعاملات المذكورة في التشريع الإسلامي، يلتقي الإنسان بالنظرة العامة لأوضاع الآخرين وطريقتهم في التعامل المستمدة من واقع الناس الذين يعايشهم ويتعامل معهم، فهم يختلفون في التزامهم بأحكام الشريعة في معاملاتهم؛ فهناك الإنسان المتساهل المتهاون في أمور دينه الذي لا يردعه عن اصطياذ المال شيء، فالمهم لديه أن يحصل المال في يده، أو يدخل في كيسه بدون أن يكلف نفسه مؤنة السؤال كيف جاء؟ ومن أين أتى؟.

والى جانب ذلك نجد الإنسان المحتاط المتقيد بقواعد الشريعة وتعاليمها، الذي يتبع التدقيق في كل عمل يمارسه، وفي كل معاملة يقوم بها، وفي كل مال يحصل لديه، فلا يكتفي بالصورة الظاهرية التي تبرر له العمل، بل يحاول النفاذ إلى أعماق الواقع ليدركه ويصل إليه، باحثاً عن كل احتمال وشبهة فإذا تم له ما أراد أكمل

معاملته بهدوء نفس وراحة ضمير، واقتناع وجدان، وإلّا رفض المعاملة بدون التفات إلى عواقب ذلك ونتائجه في ما يتصل بحالته المالية.

وهناك الإنسان الذي يعيش حالة الوسط بين وهذا وذاك، فهو يحاول السير على الخطة الشرعية في معاملاته ولكنه يكتفي بالمبررات، التي تبرّر له العمل من دون محاولة للتدقيق الذي قد يفتح له أبواب المشاكل ويثير أمامه وجوه السؤال، فالمهم لدى هذا الشخص أن يجد العذر الشرعي له في العمل، وليس من المهم أن يصادف الواقع أو لا يصادفه.

كل هذه النماذج من الناس تتمثل أمامه وهو يعامل الناس، وتبرز بوضوح لديه وهو يلاحظ معاملاتهم، فلا يملك إلا أن يشك في ما يعرض عليه من معاملات، وفي ما يحصل لديه من أموال، فما الذي يقنعه بأن هذا المال، الذي يأخذه من الآخرين هو ملك لهم ليملكوا إعطاءه إياه فربما يكون مأخوذاً بطريقة غير شرعية، وما الذي يؤكد أن هذه المعاملات التي يجريها الناس في ما بينهم، والتي تتصل بمعاملاته، واجدة لشروطها الشرعية فقد تكون فاقدة لبعضها في بعض الحالات؟

ماذا يفعل أمام هذه الأسئلة؟ وبماذا يجب عنها؟ وهل يترك التعامل مع الناس وينتظر حتى يصل إلى أعماق الواقع بنفسه، أم يسير مع هذه المعاملات من دون التفات إلى تلك الاحتمالات؟

وفي المجال الذي يتعلّق بحياته الشخصية في نطاق الزواج والطلاق ونحوهما، يجد الإنسان نفسه أمام حقيقة عامة صارخة، يفرضها واقع الناس الخارجي الذي تختلط فيه الأنساب بشكل فوضوي.. فهناك العلاقات المحرّمة التي قد تبدو ثمارها شرعية لدى الآخرين، وهناك العلاقات الرضاعية التي قد تحدث بين اثنين، ثم تُنسى الحادثة، وتغيب عن الأذهان، ويتقدم الزمن.. وإذا بالأخوين يصبحان زوجين مثلاً.. وغير ذلك من الأمور التي تبرز أمام الإنسان وهو يعيش علاقات الزواج في مجتمعه. فماذا يفعل إزاء ذلك، إذا عرضت له بعض الحالات التي يشك في أنها من

النماذج الشاذة في المجتمع؟ وماذا يصنع إذا شك في صحة عقد الزواج وفساده، وفي المرأة التي يتقدم للزواج منها، هل هي من محارمه التي يحرم عليه الزواج منهن، أم أنها أجنبية عنه؟

ماذا يصنع؟ هل يقف عن العلاقة الزوجية، حتى يبحث ويستمر في البحث ليصل إلى اليقين والقطع بنفسه، أم يتقدم ولا يبالي بهذه الاحتمالات الكثيرة التي لا تقف عند حد ولا تخضع لقاعدة؟

وفي المجال الذي يتصل بعلاقاته الشخصية مع الآخرين، في معاشرته لهم وحكمه عليهم، قد يلتقي بالنماذج الطيبة الخيرة التي تحاول أن تجعل من حياتها صورة حية للقيم السامية والمثل العليا التي تؤمن بها، ولذا فهي تسير في الخط الذي لا تنحرف عنه ولا تزيغ.

وقد يتصل بالنماذج التي تعيش لشهواتها وأهوائها من دون أن يردعها رادع من إيمان، أو يصدّها مانع من عقيدة، ولذا فهي تسير على هواها من دون حد.

ومن الطبيعي للإنسان - الذي يلتقي بهذه النماذج في حياته أو يدرك وجودها في الحياة - أن تتأثر نظرته للناس بهذا الواقع، فيشك فيمن يلتقيه في كل شيء، يتعلّق به، في عقيدته، وفي أخلاقه، وفي دوافع العمل عنده وحوافزه لديه، فقد يكون للعمل وجهان: وجه حسن، ووجه قبيح، وقد يكون له جهتان: جهة صلاح، وجهة فساد. فماذا يفعل إذا شك في الوجه الذي وقع عليه العمل، وكيف يحكم عليه؟ بالحسن أم بالقيح، بالصلاح أو بالفساد؟

نلك هي الحالة التي يعيشها كل إنسان يدرك واقع الإنسان وطبيعة تكوينه، وتدافع جانب الخير وجانب الشر في داخله، فماذا يعمل إذا عاش هذه الحالة وماذا يصنع؟

هذه بعض حالات الشك التي تغزو الإنسان، وتلك هي بعض دوافعها وأسبابها،

وهي دوافع طبيعية وأسباب عادية وليست من الحالات الطارئة النادرة، ولذا فهي تنتظر العلاج وتتطلب الحل.

المعالجة الحكيمة

وكان الإسلام عملياً وإيجابياً، حين أجاب عن هذه التساؤلات وعالج هذه الحالات، فكان جوابه حاسماً، وكانت معالجته حكيمة، وهو بذلك لم يبتعد عن طابعه الأصيل في طبيعة هذا الجواب ونوع تلك المعالجة، وهو طابع السماحة والسهولة المتمثل في الحديث الشريف: أتيتكم بالشرعية السهلة السمحة، فكانت قاعدة البراءة التي تقول «رفع ما لا يعلمون» و«الناس في سعة ما لا يعلمون» وقاعدة الحل التي تقول «كل شيء حلال حتى تعرف أنه حرام بعينه فتدعه» وقاعدة الطهارة التي تقول: «كل شيء طاهر حتى تعلم أنه نجس».

لقد كانت هذه القواعد علاجاً لحالة الشك في ناحية التشريع لحالة الحيرة التي تعرض له فيها، حذراً من أن يتجمد ويقف عن حركة العمل.

وكانت «قاعدة الصحة» التي يعطي مضمونها «أن كل شيء صحيح» فالمعاملة المشكوك في صحتها وفسادها صحيحة، كأي معاملة يقطع الإنسان في صحتها، فليس عليه أن يتوقف، إذا شك، ولا يلزمه أن يمتنع إذا تردد، من دون فرق بين المعاملات التي تتعلق بحياته التجارية أو علاقاته الشخصية.

وكانت قاعدة «الحمل على الأحسن» في جانب علاقاته بالآخرين «ضع أمر أخيك على أحسنه، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير سبيلاً».

وهكذا حاول الإسلام أن يساعد الإنسان على التحرر من عواقب الشك ونتائجها، لينطلق بعد ذلك إلى حيوية العمل بعيداً عن كل ما يوقفه عن الحركة والحياة المطمئنة الهادئة من نوازع القلق والشك والحيرة، كل ذلك في إطار السماحة والسهولة، التي

لن نعدم التعرف عليها في طبيعة التشريعات المتقدمة بوضوح وجلاء.

كما نجد الإشارة واضحة في ما يعلل به الأصوليون - وهم يتحدثون عن طبيعة هذه القواعد - بأنها ناشئة من «مصلحة التيسير والتسهيل على الأمة» التي يبدو أن الإسلام يرمي من خلالها إلى إشاعة روح الطمأنينة والاستقرار في داخل الفرد، وفي داخل المجتمع، في نطاق الحياة التي يحاول بناءها في ظل نظامه الأفضل.

* * *

الإنسان المسلم أمام نموذجين للعمل

عندما يبدأ الإنسان في اعتبار الواقع الحياتي «مشكلة» تثير اهتمامه وتشغل تفكيره، وتهز وجدانه، فمعنى ذلك أنه بدأ يتحرك في طريق المعرفة، ويحيا واقعه في اتجاه جديد قد يتحول به إلى تغيير جذري لمظهره، وتطوير حي لأهدافه واتجاهاته. أما كيف ترتبط هذه القضية بتلك الآثار، وكيف تنطلق من تلك النتائج، فلن يعوزنا التعرف على ذلك، من خلال ملاحظة الوضع الذاتي الذي يعيشه الإنسان في ظل واقعه في إطار «اللامبالاة» والتسليم اليائس، إلى جانب الوجه الآخر لهذا الوضع الذي يعيشه في إطار الواقع «المشكلة».

الاستسلام للواقع

فقد نجده في الوجه الأول إنساناً يسير مع الواقع في انخزال العاجز وتسليم اليائس، فهو قد وجد نفسه مع هذا الواقع فعاش معه واعتاد على أجوائه واستسلم لعاداته وتقاليده، ولهذا فهو لا يفكر بالخروج منه، ولا بالخروج عليه، مهما تألم، ومهما تحطم، لأنه لا يريد أن يتعب نفسه، ولا يحملها مسؤولية العمل ومتاعبه.

ومن هنا كان الرضى بالواقع عنده يمثل المظهر الحي لانهييار الإرادة في شخصيته، والهروب النفسي في داخله لا الاقتناع الفكري الروحي بهذا الواقع. وربما نستطيع أن نلمح في بعض نماذج، من لا يحب لهذا الواقع أن يتغير حتى وإن لم يكلفه ذلك شيئاً، كما إذا قام به شخص آخر غيره، لأن مثل ذلك قد يتعبه بما

يستتبعه من تحول حياته إلى جهة أخرى، الأمر الذي يرهق فيه طبيعة حب الراحة والسلامة.

ومثل هذه النماذج تصر كثيراً على أن تجد لكل مشكلة تثار حول الواقع ولكل قضية تعرض لديه، جواباً ينطلق من طبيعة وضعها الذي يريد أن ينتهي من القضايا، التي تشغل الفكر وتعكر الصفو بيسر وسهولة، فقضية العمل تصطدم في جوابه بألف مشكلة ومشكلة، وموضوع الانطلاق بالواقع إلى قاعدة فكرية متينة تحفظ له سلامته، وتهيء له استقراره، وتسير به في خطوط واضحة ثابتة تتعثر - في أسلوبه - بألف مستحيل ومستحيل؛ فالعمل غير ممكن، وتغيير الواقع مستحيل، إذاً، فالرضى بالواقع متعين.

الموقف الفاعل

أما في «الوجه الثاني»، فس نجد الإنسان «الحركي» الذي لم يستطع الواقع أن يخضع فكره وعقله، ويهزم إرادته وقوته، ولم يقدر لحب السلامة والراحة أن يسيطر على روحه ووجدانه، فهو قد وجد نفسه في ظل هذا الواقع فحاول أن يفهمه ويحياه ويعيه، ليفهم حياته ويحيا قضية وجوده، ويعي مركزه الطبيعي في هذه الحياة ودوره العملي في هذا الوجود.

إنه لم يتصل بهذا الواقع ليزوب فيه أو يستسلم إليه، بل حاول أن ينفصل عنه ويحرر نفسه من مؤثراته ليستطيع الحكم عليه أو له.

ومن هنا يبدأ الشعور بالمشكلة في ظل الواقع، أو الواقع في ظل المشكلة، لأن طبيعة المشكلة تتبع من ملاحظة الواقع في نظرة اتهام، وفي موضوع دراسة.. فذلك هو الذي يخلق المشكلة ويتحول بالواقع إلى مشكلة.

والشعور بالمشكلة بعمق، يفرض العمق في دراسة الواقع والشمول في معرفته، والوعي اليقظ في النفاذ إلى جوانبه.

ومتى توفرت هذه الجهات في قضية، فاستطعنا أن نحصل على الوعي والعمق والشمول في إطار النظرة إليها، فإننا نستطيع الادعاء حينئذ أننا نقف على أبواب معرفة جديدة وحل جديد وبالتالي إلى حياة جديدة لا تنحرف فيها الخطى عن قصدتها، لأنها تتجه إلى أهدافها باتزان واستقامة.

مبررات واهية

والعمل في سبيل الله والدعوة إلى دينه، من بين القضايا التي يلتقي بها الإنسان المسلم في حياته العملية عبر وعيه العميق لمسؤوليته تجاه دينه، وشعوره بالحاجة الملحة إلى أن يعمل شيئاً من أجل تعريف الناس به، وتجميع القوى العاملة حوله، ليتسنى له أن يحتل مركزه الطبيعي في الحياة كقاعدة للتفكير والعمل. وإذا قدر للإنسان أن يلتقي بمسؤولية العمل في ذاته، وحاول أن يبدأ الدرب نحو إخضاع طاقاته العملية للقيام بتلك المسؤولية، فإنه سيلتقي - حتماً - بهذين النموذجين من الناس، وسيكون موقفهما من العمل تابعاً للموقف العام الذي يتخذه كل منهما من المشكلات العامة للواقع الحياتي، فيبدأ النموذج الأول في إثارة علامات الاستفهام أمام طبيعة العمل ونوعيته وجدواه، ومدى إمكانيات النجاح فيه، والمضاعفات التي تترتب عليه وتنشأ منه.

ولن يقف ليجري معك في التفكير بالأجوبة الصحيحة على هذه التساؤلات، بل يحاول، جاهداً، وبغير انتظار أن يؤكد لك خيالية العمل وقلة جدواه وعدم توفر شروط النجاح فيه وخطورة المضاعفات الناتجة عنه، ومدى إساءته للعقيدة فكرة وأسلوباً.

أما إذا حاولت إثارة علامة استفهام واحدة أمام هذا الحشد الضخم من الأحكام السريعة فلن تجد إلا اللف والدوران الناشئ من فقدان الوعي للقضية وعدم دراسة الموضوع جملة وتفصيلاً، وبالتالي، من الرغبة في إيجاد المبررات.

أما إذا حاولت أن تستفهم منه عن الحثيات التي استند إليها في هذا الاتهام أو تلك الشبهة، فإنك واجد حديثاً ينقله فلان عن فلان. وهكذا لا تتعدى القضية في أغلب الأحيان موضوع وشاية من شخص قد يكون - هو - موضع الشبهة والاتهام.

إننا نحاول إثارة الحديث في هذا الموضوع، لأن القضية ليست قضية فكرية مجردة، بل هي قضية العمل في سبيل الله، فنحن لا ننكر أن هناك كثيراً من المحاولات الرامية إلى الانحراف بالإسلام عن أهدافه والابتعاد به عن الصراط المستقيم الذي رسمه النبي الأعظم محمد (ص).

ونحن لا ننفي لجوء هذه المحاولات إلى اتباع طريقة تشكيل المنظمات والمؤسسات، التي تنتحل لنفسها صفة الإسلام، من أجل تنفيذ أغراضها وأهدافها.

لأننا لا ننكر هذا ولا ننفي ذلك... وقد ننطلق إلى أبعد من ذلك فنلاحظ وجود أشكال عديدة تتنوع وتختلف حسب اختلاف الأسلوب الحياتي لصاحبها وتنوعه، وقد نجد في بعضها ما يبتعد عن الهدف وينحرف عن الغاية، كما نلمح في البعض الآخر ما يسيء إليها ويشوه بعض معالمها. ولكن هل يبرر لنا هذا كله اتهام العمل نفسه وإثارة الشكوك حول العاملين جميعاً، والوقوف عند الاتهام وإثارة علامات الاستفهام اللاذعة من دون أن نتعدها إلى البحث عن الموقف الإيجابي الذي يلزمنا اتباعه والوقوف عنده في إصلاح الأخطاء ودراسة واقع العمل نفسه، بعيداً عن المؤثرات النفسية والنوازع الشخصية.

قد يكون بعض العاملين على خطأ في أساليبهم أو في أهدافهم، وقد نلمح كثيراً من الانحرافات في بعض خطوط العقيدة في أعمالهم، ولكن قد يكون الكثيرون منهم على صواب، أو ممن يبحث عن الحقيقة والصواب في طريق العمل واتجاهه، الأمر الذي يفتح أمامنا المجال الواسع للبحث عن الأخطاء بإخلاص ومعالجتها بحذر وهدوء.

احتضان الآخرين

وأخيراً، أحب أن أشير إلى قضية حيوية جداً في حديثنا هذا، وهي أننا نعيش في معترك الصراع بين قوى تحاول أن تنحرف بالإسلام عن أهدافه وتفرض عليه حلولاً قد تتنافى مع طبيعته السمحة العادلة، وبين قوى تحاول أن تقضي على القيم والمفاهيم الإسلامية بكل جهدها وطاقاتها.

وإذا كانت القضية تسير في هذا الاتجاه، فإنها تفرض علينا الاحتفاظ بما عندنا من النماذج الواقعية للعمل الإسلامي، ومواصلة الجهد في سبيل إبعادها عن التيارات الكافرة والضالة، لئلا تذوب شخصيتها الإسلامية وتنحرف عن أهدافها العملية.

تلك هي المهمة التي يقع على عاتقنا عبء مسؤوليتها كسبيل من سبل حماية ما تبقى من كيان المجتمع الإسلامي من الانحلال والإندثار، ومن الطبيعي - حينئذٍ - أن لا نلجأ إلى إعلان الحرب على هذه النماذج، أو السعي إلى الإطاحة بها والإجهاد عليها، بل نحاول اتباع سبيل الحذر والدقة في معالجتها، لنحصل - بذلك - على النتيجة الحاسمة التي تركز على حماية هذه النماذج من الضلال، إلى جانب حمايتها من ضغط القوى الكافرة.

وكلمة أخيرة نقولها لهؤلاء الذين يمعنون في محاربة العاملين للإسلام: إن هؤلاء العاملين قد يكونون على خطأ أو ضلال في بعض خطوطهم العامة أو الخاصة، إلا أن إعلان الحرب عليهم وإبعادهم عن الخط الإسلامي للعمل، في الوقت الذي لا يملك فيه المحاربون قوة أخرى تحتضن هذه المشاعر وهذه الاتجاهات، إن إعلان الحرب عليهم في ظل هذا الواقع، قد يؤدي إلى ابتعادهم عن الإسلام وانتقالهم إلى صفوف الكفر والضلال التي تملك كل قوى المادة والإغراء وكل أساليب الإثارة والتوجيه.

إننا نقف إزاء هذه النماذج الإسلامية، على اختلافها، بين أن نبقىها سائرة على الخط الإسلامي المستقيم مع التوفّر على إصلاحها والتركيز على إنقاذها من بعض مفاهيمها الخاطئة، وبين أن نحاربها ونجعلها تتّجه إلى الخط الكافر حيث يذوب الإسلام في داخلها كما يذوب الملح في الماء.

إننا نقف على مفترق الطرق، فعلياً أن نحدّد اتجاهنا وخطواتنا على أساس الشعور بالمسؤولية ومراقبة الله سبحانه وتعالى في الإسلام والمسلمين.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾^(١).

* * *

(١) سورة التوبة؛ ١٠٥ .

قولوا لهم

لماذا نحن هنا ؟ ولماذا نحتفل بذكرى الإمام الحسين (ع) ..

هذا سؤال لا بد لنا من أن نوجّهه إلى أنفسنا، ليكون عملنا واعياً لأهدافه وتكون وسائلنا منسجمة مع غاياتها وأهدافها النبيلة.

لماذا نحن هنا؟

الولاء الإيجابي

من الحق أن نقول إننا هنا لأن الحب والولاء للحسين (ع) والعاطفة الأصيلة التي غدّتها قضية الحسين، فعاشت في حياتنا كما يعيش الدم في العرق، تفرض علينا أن نقف هذا الموقف ونقدّس هذه الذكرى. ولكنه ليس الولاء الساذج والعاطفة الساذجة هما اللذان يعيشان في نفوسنا اليوم، ويوجهان حفلاتنا الدينية، فقد تبدّل الوضع اليوم وتغيّر. ولم تعد الذكرى في حياتنا مجرد مناسبة لإحياء تاريخ أبطالها، نمارس فيها صناعة الكلمة، وفن الخطابة. بل لم تعد الذكرى مجرد مناسبة. بل أصبحت تمثّل هدفاً وتعطي فكرة وتشير إلى الدرب. فقد بدأنا نحس بأن في حياة أبطال الإسلام وقادته شيئاً لم نفهمه بعد؛ وأن في تاريخهم حقائق لم نكتشفها بعد. وبدأنا نشعر بفعل ضغط الحياة القاسي، أننا بحاجة إلى حياة هؤلاء الأبطال، وإلى الوقوف على ما في هذه الحياة من تجارب وعظات، لأنهم يمثلون - عندنا - مركز

القيادة للعقيدة، والرواد السابقين لرسالة السماء.

وهكذا أدّى هذا الإحساس إلى تبديل جذري في مضمون الذكرى، في طريقة فهمها، في الأسلوب الذي يتحكّم فيها وينطلق منها.. وهكذا رأينا مثل هذه الحفلات في حركة جديدة تتطلّب الهدف وتجري نحو الغاية، وتعمّق الشعور بالولاء لهؤلاء القادة، ليتحول إلى قوة فاعلة تحرك حياتنا وتقودها نحو الغد الإسلامي الأفضل.

الإخلاص للخط

وهكذا بدأنا نفهم واقع القضية، قضية العاطفة التي تشدنا إلى قادتنا الإسلاميين من أهل البيت (ع)، وطبيعة الولاء الذي يربطنا بهم. لقد بدأنا نفهم أن هذه العاطفة وهذا الولاء لا ينطلقان من واقع الصفات القدسية التي يتصف بها هؤلاء القادة فحسب. تماماً كما يقدّس إنسان إنساناً لصفاته النفسية، بل ينطلقان من واقع إخلاصهم لله وجهادهم في سبيله، واستشهادهم من أجل إعلاء كلمته في الأرض، وبهذا كان تقديسنا لهم موجّهاً إلى العقيدة التي جاهدوا في سبيلها وعاشوا وماتوا من أجلها.

وإذا كانت القضية تسير في هذا الاتجاه.. فلا بدّ من أن تظل هذه الحفلات مخصصة للخط الذي تسير فيه العقيدة، سائرة مع العقيدة أين تسير؛ في جهادها وكفاحها، في ضعفها وقوتها، في تقدمها وفي تأخرها. فقد وجدت هذه الحفلات من أجل تقديس أبطال العقيدة، ولذا فإن مهمتها باقية ما دام للعقيدة أبطال وما دام للعقيدة أعداء وأنصار.

إذاً، فنحن موجودون هنا من أجل العقيدة؛ لنمارس مسؤوليتنا تجاهها، ولنرسم الطريق الواضح لحياتنا على أساسها. وما على الإنسان الواعي الذي يعيش مسؤوليته بوعي إلا أن يفهم واقعه بعمق ويتلمّس مشاكله بحذر.

كيف تسلل الانحراف

كلنا يعلم اليوم أن عقيدتنا وديننا الإسلامي يتعرّضان في عصرنا هذا لخطر كبير من التيارات الوافدة إلى بلادنا من الشرق والغرب. هذه التيارات التي تتخذ لنفسها صفة الفكر تارة، وصفة السياسة أخرى، كمحاولة منها لتركيز قواعدها الفكرية والسياسية في وطننا الإسلامي الكبير. فلننظر كيف دخلت حياتنا وغزت واقعنا؟

إنها لم تدخل حياتنا، لأن شبابنا قد وعّاها وفهم ركائزها وقواعدها الفكرية والسياسية واقتنع بها على أساس من وعي ومعرفة. ليس الواقع ذلك، لأننا رأينا كيف أن الأغلبية الساحقة من أبناء أمتنا كانوا حملة شعارات، وليسوا حملة مبادئ وأفكار، لسبب بسيط جداً هو أنهم لا يفهمون هذه المبادئ، ولا يعرفون مصادرها ومواردها، لأنهم لم يهيئوا لهذا الفهم ولهذه المعرفة.

إنها استغلّت جوانب الضعف الموجودة في مجتمعنا، ونوازع الحيرة التي تنتابه، فلاحظت كيف يبدو اللون شاسعاً في طبقات المجتمع عندنا بين فئة تموت من الجوع وفئة تموت من التخمة، ولاحظت كيف يعيش العامل والفلاح مشكلة الحياة في وطنه، وكيف يعيش المواطن واقع الاستعمار والاستغلال في حياته.

إنها جاءت إلى بلادنا الإسلامية فرأت حيرة الأمة وارتباكها إزاء الأوضاع الشاذة للإسلامية، والتي نشأت في ظل القرون المظلمة، وشجعها الاستعمار عندما كان يحكم بلادنا، فحاولت أن تستغل هذا الواقع، وجاءت لتقول لنا إن لديها الحل لمشاكلنا الكثيرة، فهي تكفل العمل للعاطلين، والخبز للجائعين، والأرض للفلاحين، وهي تقف أمام الاستعمار بقوة. لقد جاءت لتقول لنا كل هذا، ولتصور لنا أنها ستجسد الجنة في الأرض. لقد قالت الأحزاب كل هذا، وكنا ساذجين آنذاك، لأننا كنا نبحث عن الطريق التي نتخلص فيها من واقعنا السيئ عن أي طريق تماماً كما

يتعلّق الغريق بأي شيء. ولم يكن الوعي الإسلامي منفتحاً على واقع الحياة آنذاك، فاندفعنا نحوها وتبعناها بدون فكر أو وعي، وسرنا معها في كل الميادين أملاً منا في أن نضع أيدينا على الحقيقة البيضاء، فماذا رأينا في التجربة التي عشناها في أمسنا القريب والبعيد؟ كلكم يعرف نوع التجربة، وكيف قاسيتم وقاست الأمة منها الكثير الكثير من المأسى والآلام، وقذفت الكثير الكثير من الضحايا. كلكم عشتُم هذا الواقع وأدركتم وحشيته وفظاعته، وكلكم عرفتم نوع الوسائل التي استخدمت الأهداف. ارجعوا إلى الوقائع واحدة واحدة وتلمّسوها بوعي فماذا ستجدون؟ إنكم ستجدون الخداع والتزوير والطرق غير الشريفة التي استخدمت في إضلال الناس وإبعادهم عن دينهم الحق.

إنهم حاولوا أن يستغلّوا تقديس المسلمين للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فحاولوا أن يستغلّوا اسمه ليقولوا لكم إن أفكارهم تلتقي بأفكاره لأنه يحارب الفقر، وهم يدعون إلى محاربتّه، وحاولوا أن يستغلّوا تقديسنا للحسين (ع) فاستغلّوا ذكراه ليقولوا إن ثورته تلتقي بثورتهم، لأنها كانت حرباً على الظلم وهم لا يزالون يحاربونه. لقد استغلّوا اسم علي والحسين (ع) كسِتار لتغطية أفكارهم وأهدافهم الإجرامية، وأما نحن فقد انطلق الكثيرون منا وراء هذه الخدعة بفعل العاطفة الولائية، وبفعل الجهل الذي يسيطر على أفكارهم.

لقد استغلّوا محاربة الإمام (ع) للفقر وثورة الحسين (ع) على الظلم، ليوهموا الناس بأنهم يسيرون مع أهداف الإمام وولده (عليهما السّلام) جنباً إلى جنب. ولكن قولوا لهم: إن الإمام كان يحارب الفقر وفق خطة إسلامية ثابتة، لأن أهدافه ووسائله لم تكن لتنفصل عن وسائل الإسلام وأهدافه، فهل تلتقي وسائلكم مع وسائل الإسلام؟

التشريع الكامل

قولوا لهم: إن الحسين (ع) كان ثورة على الظلم من أجل إقامة العدل في الأرض

وذلك بالرجوع إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه، فهل تقوم ثورتكم على هذا الأساس؟
قولوا لهم: إن لنا من ديننا وإسلامنا المصدر الحقّ لحل مشاكلنا بأجمعها، من دون حاجة إلى أي مبدأ أو أي حزب، فقد امتدّ التشريع الإسلامي إلى جميع نواحي الحياة فلم يترك جانباً من جوانبها إلا وله فيه حكم أو تشريع.
قولوا لهم: إننا لن نسير وراء أهداف عامة لا نعرف وسائلها ولا نؤمن بنظافة أساليبها.
قولوا لهم كل ذلك وانظروا هل يستطيعون أن يجيبوكم بكلمة الحق؟ الواقع أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً.

مسؤولية الجميع

على كل واحد منا كمسلمين مهمة حمل رسالة الإسلام إلى العالم، فقد قال النبي (ص) «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١)، وبهذا لم تنحصر المسؤولية بفئة دون فئة، ولا بفرد دون فرد، ولكنها تختلف حسب اختلاف إمكانيات الأشخاص وقدرتهم وتلتقي في هدف واحد هو تجسيد الأهداف الإسلامية في الحياة والسير نحو المجتمع الإسلامي الأفضل، وذلك بأن يقوم كل واحد منا بحسب اختصاصه بمسؤوليته تجاه الإسلام في عمله.

إن التاجر في متجره، والعامل في مصنعه، والفلاح في أرضه، والمثقف في مجتمعه، والمعلم في مدرسته، وكل إنسان في حياتنا يستطيع أن يقوم بمسؤوليته تجاه الإسلام، إذا حاول أن يخضع عمله ونشاطه لتعاليم الإسلام وأحكامه، ويجعل منه صورة صادقة للمثل الأعلى الذي يريده الإسلام للإنسان في الأرض. إنه سيكون دعاية حية للإسلام لأنه يمثل كيف يكون السلوك الصحيح للإنسان المسلم في الحياة.

(١) المستدرك، ج ١٤، باب ٦٣، ص ٢٤٨، رواية ١٦٦١٢.

لنترك الخداع

لنكن مسلمين قبل كل شيء، ولنرفض كل مبدأ وحزب يتعارض مع مفاهيم الإسلام وقيمه من أجل أن نكون صادقين حين نصف أنفسنا بصفة الإسلام. فقد ان الوقت لتعرفوا أن الإنسان لا يمكن أن يكون مسلماً ومنتمياً إلى هذه الأحزاب في آن واحد، لأن الإسلام لا يلتقي مع القاعدة الفكرية لهذه الأحزاب، ولهذا، فإما أن يكون الإنسان الذي ينتمي إلى هذه الأحزاب، غير مخلص لإسلامه، وإما أن يكون غير مخلص لفكرة حزبه. لنكن صريحين مع أنفسنا ولنترك الخداع والختل والتزوير، لأننا نسعى إلى تقرير مصير أمة ومستقبل شعب، وتلك مسؤولية ثقيلة لا تحتمل اللف والدوران.

القول الفصل

قولوها صريحة لكل من أراد منكم السير وراءه: إننا مسلمون، نعتقد بالله رباً وبمحمد (ص) نبياً وبعلي وأولاده الأئمة الميامين (ع) قادة وهداة، وبالإسلام رسالة تستوعب كل مجالات الحياة. قولوها صريحة: إن لنا من إسلامنا المنار الهادي إلى ظلمات الحياة ومشاكلها. وأخيراً، قولوها صريحة لهؤلاء الذين يشرعون لنا الدساتير والقوانين، ويوجهون مناهج التربية والتعليم ويسيطرون على مقدرات الثقافة في مجتمعنا، قولوها كلمة صريحة: إننا كأمة مسلمة لا نقبل بغير الإسلام قانوناً وشرعية لحياتنا ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) وقولوها إننا لا نقبل بغير منهج الإسلام وأسلوبه في التربية والثقافة أسلوباً ومنهجاً لثقافتنا ومعارفنا، لا تقفوا بل تابعوا أقوالكم بالعمل، ولا تتراجعوا لأنكم تطالبون بقضية تتعلق بعقيدة الأمة وشريعتها، وأخيراً تذكروا وعد الله لكم بالنصر في قوله

(١) سورة المائدة: ٥٠ .

(٢) سورة المائدة: ٤٤ .

تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

الانصار المخلصون

وأخيراً إن الإسلام ينتظرنا لنعمل، والمسؤولية تدعونا لتتقدم برسالتنا إلى العالم انطلاقاً من واقعنا إلى الواقع الإنساني العام. فلنعمل بإخلاص ووعي من أجل أن يوجد الإسلام في الحياة كقوة فكرية واجتماعية قائمة، ولنمارس مسؤوليتنا أمام العالم - كمسلمين - يعيشون رسالتهم من أجل أن يعيش الإنسان في سلام مع خالقه ومع نفسه ومع مجتمعه. وهناك فقط نستطيع أن نقف أمام التيارات الكافرة بقوة ونكافحها بوعي، ليبقى الموقف للإسلام وحده دون أن يكون هناك مجال للأحزاب التي تركز على قاعدة غير إسلامية، وهناك فقط نستطيع أن نقول إننا مخلصون لدينا وواعون لأهدافنا وإننا في سبيل صنع تاريخ جديد، وهناك فقط نستطيع أن نعتبر نفوسنا جنوداً أمناء للحسين (ع) وأنصاراً مخلصين لثورته، ونكون صادقين حين نردد مع ذكره الكلمة المعروفة «يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً».

وفي نهاية المطاف، نرجو أن تبقى هذه الحفلات مدارس تثقيفية للمسلمين وأن تعطي ثمارها كأفضل ما تكون الثمار، وأن لا تقتصر على مجرد هذه المظاهر الرائعة التي تزين محفلنا. والله نسأل أن يوفق العاملين في سبيله والمجاهدين من أجل إعلاء كلمته في الأرض، وأن يعيد هذه الذكرى العظيمة على المسلمين وعلى هذا البلد الطيب الكريم بأحسن ما نحبه ونرجوه من تقدم وعزة ومنعة للإسلام والمسلمين، والله يحفظكم ويوفقكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

(١) سورة محمد: ٧.

دراسات إسلامية

أي دراسات إسلامية نريد ؟

منهج الدراسات الإسلامية بين السند والمتن

التجزئية في الدراسات الإسلامية

لندرس تاريخنا بوعي

محاولة جديدة لدراسة التاريخ الإسلامي

مع المؤرخين في قصة المبعث النبوي

حول دراسة حياة الأئمة من أهل البيت (ع)

حول حديث الإمام الصادق (ع)

أي دراسات إسلامية نريد؟

إذا تحدثنا عن الدراسات الإسلامية ومسؤولياتنا تجاهها، فلا نعني بها تلك الدراسات التي تؤرخ للإسلام في ماضيه وحاضره، وتحدث عن حضارته العظيمة التي عاشت البشرية في ظلها أزهى عهودها وأدوارها، والتي يشمل حديثها - في ما يشمل - حياة المسلمين وتطورهم العلمي والاجتماعي وتأثيرهم في الشعوب الأخرى التي عاشت معهم وتأثرت بهم، كما لا نريد في حديثنا عن الدراسات الإسلامية إجراء مقارنة بين ماضيهم وحاضرهم، أو البحث عن أسباب الإنحطاط الذي انحدروا إليه، التمزق الذي ابتلوا به سواء في كيانهم الاجتماعي والسياسي، أو في داخل ذواتهم وشخصياتهم. ليس هذا مطلوبنا من الحديث عن الدراسات الإسلامية، لأن هذا اللون من الحديث طويل لا تتسع له المجلدات الكثيرة، فكيف بهذه الكلمة الموجزة التي تهدف إلى أن تشير إلى فكرة أو توجه نحو هدف، وبالتالي، نحو العمل على إثارة التفكير الإسلامي العام، وتوجيهه نحو مشاكلنا العامة.

ما نريد الحديث عنه هنا، هو الدراسات الإسلامية التي تفسر الإسلام وتوضحه، وتعرضه أمام البشرية، ديناً عالمياً إنسانياً، يعيش مشاكل الإنسان ويعالجها على أساس من العدل والحكمة والإتزان، ويتلمس جميع جوانب المشكلة في حلوله، فلا يغفل جانباً على حساب جانب آخر.

ذلك هو ما نودّ التحدث عنه، ونحاول أن نعرض لبعض مشاكله التي يعيشها الآن.

محورية الفقه

كانت الدراسات الإسلامية، في ما مضى من الزمان، تتمثل في الدراسة الشاملة للنصوص الدينية، لتستخرج منها التشريعات والأنظمة التي جاء بها الإسلام.

وإذا شئنا التعبير العلمي الإصطلاحي، فلنا أن نقول، إنها كانت تهدف إلى (استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية) - كما يعبرُ الفقهاء والأصوليون - وانطلقت هذه الدراسات في دربها الطويل، واتخذت كل فئة وجهة معينة وطريقاً مستقلاً في طريقة البحث والإستنتاج.

كان من الطبيعي أن يؤدي هذا الاختلاف في المنهج إلى إختلاف النتائج التي تنبثق عنه، وأصبح للمسلمين - بعد ذلك - في أيّ حادثة من الحوادث وفي أيّ واقعة من الوقائع، عدة آراء قد يناقض أحدها الآخر ويباينه.. وكان ذلك أمراً طبيعياً، بعد أن أصبح الفقه علماً كبقية العلوم النظرية التي تختلف فيها الآراء والنظريات. وكان من الممكن لهذا الإتجاه أن يعطي ثماره الطيبة، لو استمرت هذه الحرية الفكرية - الإجتهد - للباحث المسلم، فقد كان من الممكن لهذا الإتجاه أن يؤدي في النهاية إلى التقاء هذه النظريات واتفاق هذه الآراء عند نظرية واحدة، ورأيٍ موحدٍ، فإن تطور البحث واستمراره لا بدّ أن يؤديا إلى الحقيقة الكلية في آخر الأمر.

السياسة تعطل الاجتهاد

ولكن السياسة الزمنية تدخلت في الأمر، فجمدت حركة الفكر وعطلت حركة الإجتهد، مما أدّى إلى أن يكون (التقليد) هو الطابع العام للفقه الإسلامي عند فئات كبيرة من المسلمين.

وهكذا ساهمت هذه الأجواء في فرض (التعدد) للمذاهب الإسلامية، فلم يسمح لها بأن تنمو وتسير في طريقٍ لاجِبٍ مضيء، لتلتقي عنده الحقيقة المضيئة في نهاية

الدرب. الأمر الذي لو حدث لغير مجرى التاريخ للعالم الإسلامي في ماضيه وحاضره.

ومهما كانت النتيجة التي انتهت إليها هذه الدراسات من الوجهة الإجتماعية والسياسية، فليس من شك في أنها قد أعطت الإنسان تراثاً ضخماً في عالم الفقه والتشريع.

وهكذا كان لون (الدراسات) في الأزمنة الماضية حتى وقت قريب، فلم تكن المشكلة عندهم إلا معرفة (حكم الله) في هذه الحادثة أو تلك، لأن ذلك هو السبيل إلى إطاعة الله في ما يأمر به، وينهى عنه.

غياب التساؤل

أما البحث عما تعطيه هذه الأحكام من علاج لمشاكل الإنسان الفكرية والنفسية والإجتماعية والإقتصادية، أما البحث عن صلاحية هذه الأحكام وقابليتها لمرافقة الإنسان في شتى أدواره وعصوره، فلم يكن ليثير في أنفسهم وفي أفكارهم أي سؤال^(١)، فضلاً عن البحث والمعالجة، لأن تلك النواحي لم تكن (مشكلة) بالنسبة إلى مسلمي ذلك العصر، سواء في ما بينهم أو مع مخالفيهم في العقيدة والفكر. فقد كان الدين هو الطابع العام لتلك العصور مهما اختلف لونه وطريقه، فلم يكن للجدل عندهم أي مجال إلا في أحقية هذا الدين، من ناحية الأساس، ولذا كانت الأصول العقيدية هي المحور لذلك الجدل.

(١) أغفلنا في هذا الحديث الإشارة إلى أن الباحث قد يلاحظ، في بعض الأحاديث المروية لدينا، أن بعض السائلين كانوا يثيرون مسألة علل الأحكام ويحاولون معرفتها بالسؤال عنها، وهكذا نجد أن هذه القضايا كانت موضع تكفير لدى السابقين، ولكننا نحسب أنها كانت مجرد (ترف فكري)، لا يتصل بالحياة العملية لأبناء ذلك العصر، ليكون بالنسبة إليهم (مشكلة) يتعين عليهم علاجها، ومع ذلك فإنه لا مانع من أن نعتبرها بذرة بدائية لدراساتنا الإسلامية الحديثة.

وللمراجعة في هذا الموضوع يحسن الاطلاع على بعض الكتب القديمة التي تتحدث عن علل الأحكام.

أما (الفرعيات)، أما الموارد التشريعية لهذا الدين أو ذاك، فلم تكن موضع بحث في ما بينهم إلا بقدر علاقتها بتركيز جانب من جوانب البحث أو هدمه.

طبيعة السبب

وربما يكون السبب في ذلك كله هو أن الدين يختلف بجوهره وحقيقته عن سائر المذاهب والنظم الفكرية التي عرفها الإنسان في الماضي والحاضر.

فالدين - عند أهله - تشريع سماوي صادر من قبل الله على لسان رسوله (ص)، ومتى كان التشريع من الله سبحانه فيجب على العباد الأخذ به، والعمل بمقتضياته، لأن ذلك هو معنى العبودية لله والخضوع له. وليس العمل وفق هذا التشريع، والسير وراءه مجرد استسلام أجوف، لا يحمل في داخله إلا الظلام والفراغ، وإنما هو الاستسلام الواعي للقوة المدبرة الحكيمة الرحيمة، التي يؤمن الإنسان بأنها لا توجهه إلا إلى ما فيه صلاحه، ولا تمنعه إلا ما يفسد عليه حياته وإنسانيته، وإن لم يدرك جهة الصلاح والفساد عند العمل، نظراً إلى ضيق أفقه ومحدودية مداركه.

هذا بالإضافة إلى ما نتظره في الطاعة من سعادة في الدار الآخرة في رحمة من الله ورضوانه.

ومتى كانت تلك نظرة المتدين للدين، وعقيدته به، فمن الطبيعي أن لا يجد في نفسه أي تساؤل وأي اعتراض، في ما يتعلّق بما يصادفه من تشريعات لا يفهم وجه الحكمة والمصلحة فيها، فإنها صادرة ممن يستحيل في حقّه الخطأ والغفلة ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾^(١). ص ١٥٠

سمة التشريع الأرضي

أما بقية المذاهب التي تستمد تشريعها من الأرض، ومن أفكار أناس معرضين

(١) سورة الإسراء: ٤٣ .

للخطأ والغفلة والدس والتضليل بطبيعة انتفاء العصمة عنهم، وعدم إحاطتهم بجميع الجوانب التي تحيط بالمشكلة، هذه المذاهب لا يستطيع الإنسان أن يستسلم لها من دون أن يفحص عنها فحصاً دقيقاً، سواء عن فلسفتها، وعن الأسس التي ارتكزت عليها، وعن مدى استجابتها لحاجات الإنسان ومصالحه، وعما وراءها من غايات وأهداف، إلى غير ذلك من الجوانب التي تثير في النفس ألواناً كثيرة من التساؤلات والشبهات.

وربما يكون ذلك هو السبب في إغفال الباحثين المسلمين لتفسير التشريعات الإسلامية، على أسس البحث عن نوعية الحلول التي قدّمتها لمشاكل البشرية وإقتصارهم على ناحية البحث في (استنباط هذه الأحكام من أدلتها التفصيلية).

مفاعيل الاحتكاك بالغرب

ومرّت عصور وأجيال، وانفتح المسلمون على واقع جديد.

فإذا بالنظريات الحديثة تندفع بجنون وقوة، لتغزو بلادهم وتأخذ مركزها من تفكير شبابهم الطالع، وإذا بأعداء الإسلام يندفعون في صميم المسلمين ليثيروا الشبهات، ويهدموا ما يستطيعون تهديمه من الجوانب الأساسية للعقيدة ليسهل عليهم بعد ذلك تهديم الباقي.

وإذا بالمدارس التي أنشئت تحت ستار التثقيف والتعليم، تتحوّل إلى مجالات للدس والتضليل وتشويه الإسلام في نفوس أبنائه، الذين لم يكونوا قد عرفوا عن الإسلام وأحكامه المعرفة التي يستطيعون بها الدفاع عن دينهم وعقيدتهم.

وإذا بالإسلام يصبح - بوحى من المعاهد - في نظر كثير من خريجي هذه المعاهد من المسلمين، غولاً يتهدّد البشرية، فيخنق الحريات ويكّم الأفواه، ويعطل المواهب، ويُرجع العالم إلى عهود الرق والاستعباد والإقطاع.

وإذا بالكتب والمؤلفات الغربية، التي نشرت في الوقت الذي لم يكن المسلمون فيه على اتصال بالعالم الغربي، تندفع إلينا بكثرة هائلة فنجد فيها الإجرام الفكري يتمثل في الأكاذيب والمفتريات التي جاء بها هؤلاء المؤلفون والمفكرون عن إسلامنا ونبينا وتاريخنا بوجه عام.

ويتجسّم هول هذه الجريمة في التضليل الذي قام به هؤلاء في إبعاد القارئ الغربي عن حقيقة الإسلام، وعن جوهره وروحيته، حتى عاد الإسلام يمثل في نظره الجهل والفوضى والعبودية والإقطاع والرجعية بأشنع صورها.

هذا هو الواقع الذي انفتح المسلمون عليه عند اتصالهم بالعالم الغربي، وعند غزو الحضارة الأوروبية، بخلاعتها وفجورها الأخلاقي والفكري، لبلادهم.

الإعداد للمواجهة الفكرية

وهنا شعر الباحث المسلم بحاجته إلى أساليب وأدوات جديدة، يصد بها هذا الهجوم المفاجئ، وهذا السيل الجارف من الأكاذيب والمفتريات، لينقذ أبناءه من جهة، وليفتح للإنسان الغربي طريق المعرفة الخالصة لحقيقة الدين وواقعه من جهة أخرى.

فكانت هناك محاولات كثيرة بدائية تعتمد على أسس قديمة في بعض حلولها، وجديدة في بعضها الآخر، ومهما قلنا في قيمتها من الناحية الفكرية، ومهما قلنا في قلة جدواها وضعف تأثيرها، فليس لنا إلا أن نقرر أنها كانت بذرة لدراسات إسلامية جديدة، تحاول أن تقف أمام شبهات أعداء الإسلام وأكاذيبهم، وتوسّعت هذه الدراسات، لا سيما بعد أن بدأ المسلمون يستفيدون من التقدّم العلمي العظيم الذي حدث في هذا القرن، من جميع النواحي، فأصبح لهم من هذه العلوم سند في ما يفسرون وفي ما يعالجون من القضايا الإسلامية.

وهكذا أصبح المسلم الواعي يملك من أدوات الدفاع الفكري ما يحميه - لو

استعملها بإخلاص - من أي هجوم إلحادي غاشم، وأصبح للقارئ المسلم ما يكفي من الكتب المختلفة التي تعالج قواعد الإسلام وتشريعاته على أساس البحث عن الحلول التي قدّمها لمشاكل الإنسان، ومقارنتها بالحلول التي قدّمها المذاهب الأخرى لهذه المشاكل.

تلك هي قصة الدراسات الإسلامية التي تحاول أن تفسّر الإسلام وتعرضه للبشرية بشكله الناصع المضيء، ولا تزال القصة في بدايتها. فإن أمام هذه الدراسات شوطاً بعيداً يتحتم عليها أن تبلغه في سبيل الوصول إلى الكمال. ومع هذه الملاحظة، كيف يمكننا اعتبارها أساساً للبحث والتبرير؟

ولنا أن نشارك الباحثين مهمتهم، فنحاول إلقاء الضوء على بعض النقاط التي يلزمنا جلاؤها في سبيل هذه الغاية.

الخضوع للآخر

فنلاحظ على بعض هذه الدراسات، أن بعض الباحثين الإسلاميين، كانوا يحاولون - بدافع من الخوف أو الضعف، أو الرعاية لما يعتنقون من مبادئ وما يؤمنون به من أفكار - إظهار الإسلام بمظهر الدين الذي ينسجم مع التفكير الأوروبي الحديث، فيخضعونه للديمقراطية تارة، وللإشتركية أخرى، وللرأسمالية الثالثة..

وهكذا دواليك، في عملية تفسير وتحليل تختلف وتتنوع، حسب اختلاف وتنوع الميول التي يمثلها هذا الباحث أو ذاك، بدافع سيطرة هذا اللون من التفكير على أذهانهم حتى أصبحوا لا يعقلون أية قيمة لأي مبدأ لا ينسجم مع هذا التفكير.

الطريقة السجالية

وهناك نوع آخر من الباحثين، يختلف عن هذا النوع، فهم مسلمون يؤمنون

بالإسلام عن وعي واتزان، فلم تخدمهم زخارف الحضارة الحديثة أو تلهيهم عن واقعها وأساسها المادي المنهار، ولم تبهرهم الأشعة البراقة للمذاهب الإجتماعية الحديثة، أو تأخذ بأفكارهم، بل نظروا إليها بعين الناقد البصير الذي يتلمس مواطن الضعف، ومواطن القوة، بوعي وعمق فناقشوها ونقدوها على أساس من علم وفكر.

تلك هي صفة هؤلاء الباحثين، فهم مسلمون يؤمنون بأن الإسلام نسيج وحده، فمن الخطأ أن نصفه بأية صفة، مما تعارف الناس على إطلاقه عليه من أوصاف حديثه، لأنه إذا اتفق مع بعض الأفكار - في بعض المجالات - فليس معنى ذلك أنه ينسجم معها في أساس التفكير، وهم يؤمنون إلى جانب ذلك - كأي مسلم واع - بأن لا سعادة للبشرية إلا بالإسلام.

ولكننا نأخذ عليهم طريقتهم في البحث، ووجهتهم الدراسية، إنهم يحاولون صد الهجوم فحسب، فهم يكتفون بالدفاع، والرد على أعداء الإسلام في ما اتهموا به الإسلام، وفي ما ألصقوا به.. فلا يدرسون الإسلام إلا من الجوانب التي أثارها هؤلاء، ولا يعالجونه إلا على أساس ملاحظة تلك الجوانب فيه.

مفاهيم خاطئة

إننا نأخذ عليهم هذه الطريقة، فإنها قد تضيّع علينا الكثير من واقع المفاهيم الإسلامية وجوانبها، لأن ذلك يقصر نظرنا على الجوانب الخارجية للتشريع، أما الجوانب الداخلية التي ارتكز عليها التشريع في ذاته، وفي حقيقته، فإنها قد تضيّع في هذه الطريقة في غمار معالجة القضية، ضمن نطاق الأجواء الخاصة التي ربما تبعد بالفكرة عن مجالاتها وتنقلها إلى مجالات أخرى لا ترتبط بها من قريب أو بعيد.

وقد ساعد هذا الإتجاه في إدخال كثير من المفاهيم الخاطئة إلى الدراسات الإسلامية، التي انطلقت لتبرر بعض التشريعات الإسلامية، على ضوء بعض النقاط

المسلّمة عند الآخرين، كسبيل من سبيل كسب عطف هؤلاء على الإسلام والمسلمين، من دون التفات إلى خطأ الأساس الذي بني عليه التبرير، لأن من الممكن أن لا تكون بديهيات الآخرين، التي انطلقت من ظروفهم وحياتهم الخاصة من الأمور البديهية عندنا. مع هذه الملاحظة، كيف يمكننا اعتبارها أساساً للبحث والتبرير؟

أصالة التفكير

وإذا كانت هذه الطريقة التي أُلحنا إليها في ما أجملنا من حديث، تستدعي ضياع كثير من النقاط المهمة في البحث، وفقدان كثير من الأجواء التي عاشها التشريع في نطاقه الذاتي، فمن الإخلاص للدراسات الإسلامية أن نجرب طريقة أخرى، ندرس الفكرة أو التشريع، كشيء موضوعي مستقل، في إطاره الإسلامي العام ثم في إطار مشاكلنا الحياتية، ومدى ما يستطيع أن يقدمه إليها من حلول.

فإذا استكملنا عناصر الدراسة الذاتية للموضوع، واستطعنا أن نضعه حيث هو من أجوائه الخاصة، أمكننا بعد ذلك الالتفات إلى ما يثار حوله من شبهات، وما يدور من مناقشات، أو التعرف على بعض جوانب النقص في الدراسة، أو في الفهم العام للفكرة.

وبكلمة أكثر وضوحاً، إننا لا نريد للتشريع الإسلامي أن يعيش أجواء التشريعات الوضعية الأخرى أو يخضع لركائزها الفكرية من منطلقه الفكري، بل نريد له أن يعيش ضمن أجوائه التي جعلها الله له، وينطلق من الركائز التي ارتكز عليها في بنيانه الفكري.

ولن نستطيع أن نحافظ على هذا الخط إذا حاولنا دراسة الإسلام من خلال تعليق الآخرين عليه، ودراستهم له، بل المنهج السليم هو محاولة فهمه في إطاره الإسلامي العام بدون التفات إلى تلك الشبهات أو النقود، إلا بقدر ما يتعلّق بإلقاء الضوء على تلك الدراسة، ليتسنى لنا فهم الإسلام فهماً لا يخضع لمؤثرات خارجية

بعيدة عنه، بل يسير مع طبيعة البحث الواعي الخالص لذاته.

الفهم المعاصر

وختاماً لهذه الحلقة من البحث:

إننا ندرك أن المسلم الواعي لا يحتاج في الإيمان بالإسلام والعمل بمقتضياته، إلى التحليل والتفسير، فحسبه أنه يدرك أنه دين صادر من قبل الله ليؤمن به، ويجري وفق تعاليمه.

إننا ندرك ذلك، ولكننا ندرك إلى جانبه أن الجيل الحاضر أصبح يتطلب - مع ذلك - الدراسة الحديثة للإسلام التي تعتمد على تحليل تشريعاته وتفسيرها بأسلوب يتصل بالحياة، ليتعرف - من خلال ذلك - على عظمة الإسلام وطبيعة حلوله، ليتمكن من مواجهة التحدي الذي يواجهه - كمسلم - من قبل التيارات والمذاهب الحديثة التي غزت العالم باسم معالجة مشاكله.

وعلى ضوء هذا لا بد لنا - استجابةً لهذه الحاجة الملحة - أن ندرس الإسلام دراسة جديدة تنبع من داخله لا من خارجه، وتعتمد على البناء والتركيز لا على مجرد الهدم لما بناه الآخرون، فإن عملية الهدم في الجانب الآخر قد تشغلنا عن عملية البناء في هذا الجانب.

إن البناء يركز الأساس على قاعدة صلبة لا تنفع معها معاول الهدم والتخريب مهما عملت ومهما كثرت.. وهنا لا يملك الآخرون إلا أن يتضاعلوا ويتلاشوا أمام عظمة التشريع الإسلامي وقاعدته المتينة.

هذه بعض الملاحظات التي نرجو أن تجد سبيلها لدى الباحثين المسلمين، والله ولي التوفيق.

* * *

منهج الدراسات الإسلامية

بين السند والمتن

ارتباكات التاريخ

من بين القضايا التي تلفت القارئ الواعي، في الكتب التي تدرس الإسلام في مبادئه وقيمه وشخصياته، هذا الارتباك العجيب والاختلاف الواضح في ما ينقل من روايات وحوادث، حتى لتأخذ الحيرة في ما يأخذ وفي ما يدع وهو بين خطين متوازيين، فلا يستطيع الإلتزام بالشيء ونقيضه، فيعترف بعظمة إنسان ما، وحقارته في وقت واحد، أو يؤمن بحرمة شيء وإباحته.

إنها حيرة الإنسان أمام ارتباكات التاريخ واختلاف المؤرخين، حين يريد أن يأخذ أو يدع. أن يؤمن بشيء أو يكفر به. أن يحدّ رأيه في إنسان أو مبدأ أو قضية. فماذا يصنع؟ وماذا يقبل؟ وماذا يرفض؟

إن هذه الحيرة، وهذه المشكلة التي تشعر بها وأنت تقرأ التاريخ، هي المشكلة نفسها التي تشعر بها وتعيشها الآن. وأنت تقرأ الصحف أو تستمع إلى المذيع، أو إلى الإشاعات المتناقضة التي يتناقلها الناس هنا وهناك في قضاياهم الحياتية اليومية، لتقف متسائلاً - بقلق وحيرة - ماذا تصدق وماذا تكذب؟

خطورة المشكلة

إنها مشكلة الإنسان منذ أن بدأ الكذب يأخذ مكانه إلى جانب الصدق، ولكنها قد تشتد وقد تضعف تبعاً لقيمة القضية التي يعرضها هذا الإلتباس والإرتباك.

فإذا كانت القضية ذات طابع ديني أو عقيدي أو تاريخي، يتصل اتصالاً وثيقاً بحياتنا ومصيرنا، تصبح المشكلة أقوى وأشد مما لو كانت القضية ذات طابع شخصي عادي.

ولذا فإنك قد تغفر لإنسان يكذب عليك في قضية عادية ما لا تغفره له عندما يكذب عليك في قضية تتعلق بمصيرك الإجتماعي أو الديني.. وقد نلمس هذا في بعض الآراء الفقهية التي اعتبرت الكذب على الله وعلى رسوله من بين الأمور التي قد تفطر الصائم دون غيره من أنواع الكذب الأخرى.

إنها مشكلة الباحثين عن الحقيقة، حين يصطدمون بها وسط ركام هائل من الأكاذيب والإفتراءات والإختلافات.

المنهج القديم

وتنبّه الباحثون الأقدمون إلى هذه المشكلة، وعرفوها، ووضعوا لها القواعد والحلول التي تيسر للباحثين سبيل المعرفة والوصول إلى الحقيقة بالمقدار الممكن؛ فاشتروا للعمل بالحديث الذي ينقله المحدث، أو الرواية التي يرويها الراوي، شرطين أساسيين، هما:

أ - صحته من حيث السند.

ب - صحته من حيث المتن، حسب التعبير العلمي.

ويريدون بالسند سلسلة الرواة التي تربط الحديث بمصدره الأساس. أما المتن، فيريدون به: النص الحرفي للحديث أو الرواية.

وعلى هذا الأساس، فهم لا يعتمدون على حديث، مهما كان موضوعه، ما لم يكن رجال السند معروفين بالوثاقة والصدق.

فإذا كانوا مجهولين لديهم، أو كانوا معروفين بالوضع والكذب، أو لم يكونوا معروفين بالوثاقة، فإن حديثهم يطرح في سلة المهملات، ما لم تقم بعض القرائن التي توجب الوثوق أو القطع بالصحة من جانب آخر، وهكذا وضعت قواعد الجرح والتعديل، والتصديق والتكذيب، والترجيح والإسقاط والتوقف في ما لا نملك ترجيحه أو إسقاطه.

وهكذا نشأ (علم الرجال) و (علم الدراية).

وهذا ما يفسر لنا المحافظة التامة على ذكر أسانيد الأحاديث بطرق عديدة في بعض الكتب التاريخية والدينية كتاريخ الطبري.

وقد بلغ اهتمامهم بذلك حدّاً عجيباً من الدقة والحذر، حتى أن بعض أعظم المحدثين، أخرج محدثاً آخر من بلده، بحجة أنه يروي عن الضعفاء وقد يذكرون - من بين الأمثلة على هذه الدقة - أن بعض الرواة قصد شخصاً من المحدثين ليأخذ منه الحديث ويروي عنه، فوجده يخدع شاته، فيوهمها أن بيده علفاً دون أن يكون في يده شيء، فرجع من حيث أتى مع بُعد المسافة التي قطعها، لأنه اعتبر ذلك تدليساً يتنافى ووثاقة الراوي.

ويسمع بعض الرواة أحاديث كثيرة عن أبيه - وكان من شيوخ المحدثين - فلا يرويها عنه مباشرة، بل يلجأ إلى روايتها عنه بالواسطة - بسماعها من إخوته الذين هم أكبر منه سناً، ويعتذر عن ذلك بأنه كان صغير السن عندما سمعها من والده فلا يأمن على نفسه الخطأ والغفلة وعدم الضبط.

وكان بإمكان هذا المنهج العلمي في دراسة الحديث، أن يعطي ثماره الطيبة في جميع المجالات، لولا أن الأقدمين اقتصروا في ممارسته على مجال

الحديث والرواية في الفقه والشرعية، بشكل عام.

أما التاريخ فلم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث فيه وتحقيقه، ليصل إلى أيدينا بشكل أنظف وأنصع من الشكل الذي هو فيه الآن. ولذا قلّت العناية، في أكثر الكتب التاريخية، بذكر الأسانيد بشكل متّصل على العكس من كتب الحديث.

ذلك هو المنهج الذي اتّبعه الأقدمون في دراسة الحديث من ناحية السند ولم يقتصرُوا على ذلك في قبول الحديث بل اشترطوا لذلك - كما قدّمنا - أنفاً سلامة المتن من ناحية معناه ولغته وموافقته لحكم العقل والشرع فيما إذا كان المضمون شرعياً.

فإذا تم لهم ذلك كله من كلا الجانبين، أخذوا بالحديث وعملوا به، أما إذا فقدوا بعض تلك العناصر - أو جميعها - في الحديث، فلا بدّ لهم من رفضه وإلقائه في سلة المهملات - كما نعبّر الآن - وبهذا كانت مهمة الباحث تتطلّب كثيراً من الجهد والمشقة، والدقّة والحذر في ما يستند إليه من أحاديث، وفي ما يستدل به من أخبار.

المنهج الحديث

أما الباحثون المحدثون، فقد رفضوا هذا المنهج بشكل عام، وأغفلوا ناحية السند جانباً، فلم يعودوا يهتمون بتحقيق حال الراوي، أو معرفة صفة المؤرخ، بل وجهوا نظرهم وتفكيرهم إلى تحقيق حال النصوص وتحليلها، والجوانب النفسية والاجتماعية، وملاحظة طبيعة الزمان والمكان.

فإذا كانت منسجمة مع هذه الجوانب التي راعوها، أو القواعد التي وضعوها فحسبها ذلك صحّة وسلامة، وإلا كان سبيلها الإهمال.

وربما يلاحظ البعض جانب المصادر الأصلية للحديث، فيكتفي في وثاقة الحديث بوجوده في كتاب موثوق به من ناحية وثاقة مؤلفه.

تلك هي طبيعة بعض ملامح المنهج الحديث في دراسة النصوص التاريخية وغيرها، وذلك هو سبيل هؤلاء الباحثين فيما يكتبون.

ونحن لا نختلف معهم في ما سلكوا من سبيل، أو في ما ارتأوه من منهج، بل نوافقهم عليه إلى حد ما، ونسير معهم في الطريق نفسه، لأننا نرى فيه نهجاً سليماً في دراسة النصوص التاريخية وتحقيقها، فربما يكون أقرب الطرق إلى معرفة الحقيقة بعمق، من جميع جهاتها وملابساتها، في أفق مجرد من هوامش الخرافات والأساطير.

وقد لمسنا في ما قرأناه من الدراسات الحديثة، ورأينا كيف شارك هذا المنهج في إزاحة الستار عن كثير من الحقائق المطمورة تحت أكداس الأساطير والخرافات والأغراض الشخصية والقبلية.

وربما يكون لهذا المنهج في البحث والتحليل، الدور الكبير في الفكرة التي أطلقها الدكتور طه حسين، في اعتبار (حديث عبد الله بن سبأ) أسطورة خرافية ابتدعتها المؤرخون في ما ابتدعوا من شخصيات وأدوار، ليعهدوا إليها بالكشف عن كثير من الأسرار التي أحاطت ببعض القضايا التاريخية، في جو من الغموض، أو التي أريد لها أن تعيش في هذا الجو الغامض.

فقد لاحظ الدكتور طه حسين أن الأحداث والأدوار التي نسبت إلى هذه الشخصية، لا تنسجم مع طبيعة الأشخاص والظروف التي رافقت تلك الفترة من حياة المسلمين، الأمر الذي يقوده إلى استنتاج الوضع والتلفيق في هذه الأحاديث «وأكبر الظن كذلك أن خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبد الله بن سبأ هذا، ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان وولاته من ناحية، وليشنعوا على علي (ع) وشيعته من ناحية أخرى، فيردوا بعض أمور الشيعة إلى يهودي أسلم كيداً للمسلمين».

«فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرّج والإحتياط، ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغباً ولا رهباً ولكن مكرراً أو كيداً وخداعاً، ثم أتيح له من النجاح ما كان يبتغي فحرّض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه.. وفرّقهم بعد ذلك أو قبل ذلك شيعاً وأحزاباً .

هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغي أن تقام عليها أمور التاريخ»^(١).

وهكذا ندرك قيمة هذا المنهج في دراسة التاريخ الإسلامي كما ندرك قيمته في دراسة الأحاديث الإسلامية، ودوره في طرح كل حديث لا يتفق وموازن العقل، وطبيعة التشريع، وقواعد النقد.

وربما كان لابن خلدون الأثر الكبير في تركيز المنهج في البحوث التاريخية، فقد فتح الطريق في (مقدمته) للباحثين في تنقيح هذا المنهج وتحقيقه.

وقد يكون من المناسب لهذا الحديث - ونحن نعرض لهذا المنهج - أن ننقل بعض هذه اللمحات التي ألحنا إليها من (مقدمة ابن خلدون).

«إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الإجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهاها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط».

(١) الفتنة الكبرى: عثمان.

المنهج المختار

ذلك هو منهج الأقدمين في الدراسة ومنهج المحدثين، فأيهما نختار في دراساتنا الإسلامية؟

وفي اعتقادنا، إن منهج الأقدمين - من حيث المبدأ - هو المنهج المفضل في دراساتنا التي نريد أن نجري عليها. ونعني بكلمة «من حيث المبدأ»: طبيعة المنهج من الناحية العامة، وهي رعاية السند والمتن، حسب تعبير القدامى.

أما تفاصيل هذا المنهج، فلا نجد ما يلزمنا باتباع طريقتهم فيها، لأن مقاييسهم التي كانوا يعتبرونها أساساً للحكم على مضمون الحديث من حيث انسجامه مع موازين النقد وأحكام العقل، وحقائق الأشياء، لم تعد مقبولة لدينا جملة وتفصيلاً، بفضل التطور الفكري والعلمي، وتبدل النظر بالنسبة إلى كثير من الأشياء في عالم الفكر والتاريخ.

ولهذا، فلا بأس باتباع الأساليب الحديثة في التحقيق والتدقيق، والنقد والمحاكمة، شريطة أن يكون منسجماً مع الروح الإسلامية والمقاييس الإسلامية للأشياء.

أما الذي يفرض علينا التزام هذا المنهج، فهو أن المؤرخين والرواة لا يرتفعون فوق مستوى الشبهات، فهم أفراد من البشر، لهم ما للبشر من ميول وأفكار وطباع مختلفة وصفات متباينة.

ومن الواضح أن ذلك قد يفرض عليهم الإنسجام مع طبائعهم وصفاتهم تبعاً للضرورات المعاشية والنفسية والمذهبية والاجتماعية بشكل عام، فقد يقتضيه الصدق في بعض الحالات، كما يقتضيه الكذب في البعض الآخر.

وثمة ناحية أخرى، هي طبيعة التاريخ الإسلامي، وظروفه المختلفة وطبيعة الأشخاص الذين عاشوا على مسرح هذا التاريخ، وقادوا حركته ومدى تأثيرهم في الأفراد الذين كتبوا هذا التاريخ، على أساس العرف الشائع في ذلك الحين، من

اهتمام المؤرخين بقضايا الحكم دون غيرهم من فئات الأمة، ولك أن تتصور - من خلال ذلك - ما يفرضه هذا العرف، وهذا الوضع من تملق وطمع ورغبة ورهبة لذلك وغيره، ما لا يتسع له صدر هذا الحديث، لذلك نجد أن من الضروري جداً أن نلتزم المنهج القديم في البحث، لأنه يجنبنا كثيراً من المزالق الخطرة التي تقتضيها طبيعة ما قدمناه.

ولن نستطيع المنهج الحديث، الذي يغفل أحوال الرواة جانباً، أن يجنبنا ذلك ما دام بإمكان الكاذب أن يصوغ قصته أو حديثه بأسلوب يتناسب وطبيعة المجتمع والظروف التي يريد للقصّة أو الحديث أن يعيش فيها. وقد ظهرت قيمة هذا المنهج الذي يعتمد التركيز على أحوال الرواة، في قضية البحث عن «عبد الله بن سبأ»، فقد استطاع أحد الباحثين الإسلاميين^(١) أن يرجع هذه القضية إلى المصدر الأم لجميع الكتب التاريخية، التي عرضت لهذا الإنسان ولروايته، وتمكّن - بهذا المنهج - أن يكتشف الراوي الذي اخترع هذه الشخصية وهو (سيف بن عمر التميمي) الذي يصفه أكثر علماء الرجال والحديث بأنه وضّاع كذاب لا يُعتمد على حديثه ولا يؤخذ بما ينفرد به.

إننا نعرض ذلك أمام الباحثين كضرورة حتمية، من أجل التخلص من الفوضى التاريخية التي وقعنا فيها، والفوضى الفكرية التي نشأت من ذلك، نظراً لاعتماد كثير من قضايانا الفكرية والعقيدية على ما يرويّه المؤرخون ويكتبه التاريخ.

* * *

(١) راجع عبد الله بن سبأ، مرتضى العسكري.

التجزئية في الدراسات الإسلامية أو «كيف ندرس الإسلام»

شمول النظرة

في سبيل أن ندرس الإسلام دراسة موضوعية تركز على الإستيعاب والشمول، وعلى الدقة في الفهم، والعمق في الإستنتاج، نجد من المتعين علينا أن نرسم المنهج الذي ينبغي للباحث أن يسير عليه في بحثه، لأن خطأ المنهج قد يؤدي إلى خطأ النتيجة في كثير من الحالات.

فقد لاحظنا دراسات كثير من الشرقيين والغربيين في الإسلام، ورأينا بعضهم يتجه في بحثه إتجاه النقد للتشريع وللبادئ، بينما يتجه البعض الآخر إتجاه التحريف والإنطلاق به إلى غير مجالاته، وربما كان لسوء القصد عند بعض هؤلاء الدارسين، أثر في هذه النتيجة أو تلك، ولكن ذلك لا يمنع من أن نلاحظ خطأ المنهج الذي سلكه هؤلاء الباحثون في دراساتهم الإسلامية وتأثيره في ما توصلوا إليه من نتائج وأحكام.

ولتوضيح هذه الفكرة لا بد لنا من أن نرسم بعض ملامح الصورة، ونتبين ظلالها القريبة والبعيدة، وربما نشعر بالحاجة في البداية إلى التعرف على البناء العام لهذا الدين، ومدى علاقة بعض جوانبه التشريعية ببعض الآخر.

ومما يجعلنا نركز على هذه النقطة، هو أننا إذا لاحظنا الإسلام ودرسناه بوعي ودقة كدين، يستهدف مجتمعاً يقيم الدولة في إطاره، نجده مرتكزاً على أساس فكرة واحدة شاملة تستوعب الكون والحياة.

ولكي يضع الإسلام هذه الفكرة في مركزها العملي من الحياة، كان من الطبيعي أن يرسم الخطوط لها، ويحدد الأنظمة والقوانين التي تركّز اتجاهها الواقعي والروحي على أساس واضح متين، فكان من أمثلة ذلك دراسة الواقع النفسي للإنسان كفرد، ودراسته في نطاق علاقته بمجتمعه في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية كجزء من هذا المجتمع، ومراعاة الظروف العملية للإنسان في جميع مراحل نموه وتطوره.

لاحظ هذه الجوانب بانفراد، ثم لاحظها مجتمعه، لكي يكون الحل منسجماً مع طبيعة المشكلة لأن المشكلة ربما تكون متصلة بأكثر من جانب.

وكان من الطبيعي للمشترع الحكيم أن يراعي كل ذلك، عندما يضع حل المشكلة فلا يفصل ناحية عن أخرى، ولا يتسامح في جانب دون آخر، لأن الحل لن يكون شيئاً عملياً بدون ذلك، على أي حال. وعلى ضوء ذلك عرفنا التشريعات الفردية للإنسان إلى جانب التشريعات الاجتماعية.

ولعل من بين الأمثلة على شمول النظرة، واستيعاب الفكرة، ما نراه في أسلوب الإسلام العملي في المرحلة التنفيذية، فهو يطلب من أتباعه العمل بأحكامه جملة وتفصيلاً لا أجزاء متفرقة، لأن الشخصية الإسلامية التي يريد الإسلام بناءها لا تتحقق مع هذه التجزئة العملية التي تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض بل تكون شخصية موزعة بين نوازع كثيرة وشخصيات مختلفة، وبذلك لا نستطيع الارتفاع إلى مستوى الهدف الأسمى للدعوة في التشريع.

* * *

نموذج تشريعي

وقد نقترح من الصورة الحقيقية للفكرة، إذا استطعنا أن نتعرف على بعض ملامح هذا الارتباط في التشريع، الأمر الذي يجعل الاقتصار في الملاحظة على بعض الجوانب، بعيداً عن الجوانب الأخرى، أشبه شيء بالنظر إلى الصورة من جانب واحد، مما يوجب انحرافاً عن الصواب في الحكم، عندما يخيّل للإنسان نقصان الصورة واختلال الظلال الحالة في أجوائها الفنية.

ليكن موضوع حقوق المرأة مثلاً حياً للموضوع؛ فنحن نلاحظ، كما لاحظ الكثيرون، أن الإسلام قد جعل للرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث، وحدد للمرأة نصف نصيب الرجل، على ما صرّحت به الآية الكريمة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾^(١) مما يعطي انطباعاً سيئاً عن النظرة السليمة التي واجه بها الإسلام قضية المرأة.

فيخيّل لدعاة المساواة أن التشريع يتعمد الحط من قدر المرأة، واعتبارها شيئاً دون مستوى الرجل في الحقوق المالية، وبالتالي في الحقوق الاجتماعية.

ولكننا إذا ربطنا بينه وبين تشريع آخر يتعلّق بمسؤولية الرجل أمام المرأة، لرأينا القضية تتحوّل إلى مصلحة المرأة أكثر من الرجل، ففي الوقت الذي فرض الإسلام للمرأة نصف نصيب الرجل، لم يحملها أية مسؤولية مالية في ما يتعلّق بزواجها أو بنفسها في داخل الحياة الزوجية أو بأولادها، بل ترك لها الحرية في أن تفعل بأموالها ما تشاء، من دون أن يفرض عليها أي التزام مالي تجاه أي إنسان.

وأما الرجل فقد وضع الإسلام عليه مسؤولية الالتزام بالإنفاق على زوجته، فجعل نفقة الزوجة واجباً مالياً يؤديه بقوة الإيمان، ويتحوّل - في حالة امتناعه عن الأداء - إلى دين مالي يستقر في الذمة، ويطالب به كما يطالب ببقية الديون المالية الشخصية.

(١) سورة النساء: ١١.

وفرض عليه - بالإضافة إلى ذلك - الإنفاق على أولادها، من دون أن يكلف الأم شيئاً من ذلك، وجعل - قبل ذلك - المهر في عقد الزواج للمرأة من دون الرجل.

وهكذا نلاحظ - إذا ربطنا بين هذه التشريعات التي حددت للرجل مسؤوليته في رعاية البيت الزوجي، وبين التشريعات التي حددت للرجل نصيبه في الميراث فجعلته ضعف نصيب المرأة - أن عملية الحساب لن تكون نتیجتها في مصلحة المساواة من جانب الرجل دون المرأة، لأن ما يأخذه الرجل من الزيادة في حصته من التركة يتحول الكثير منه إلى المرأة، مهراً ونفقة، بالإضافة إلى نفقة أولادها من دون أن ينقص من نصيب المرأة شيء.

التشريع جزء من كل

وما دمنا في سبيل رسم ملامح الصورة الأصلية للإسلام، فقد يجدر بنا أن نفهم أن الإطار العام للدين، لا يتحدد في التشريعات التي تلزم الإنسان بفعل هذا الشيء أو تركه من الواجبات والمحرمات أو بالأحرى، لن تنطلق الصورة من الأوضاع القانونية المجردة التي تحدد للإنسان علاقاته بالكون والحياة في جو قانوني جاف، بل تحدده الأجواء الملائمة التي أراد الإسلام للإنسان أن يعيش فيها لكي يكون القانون قريباً من روحه، منسجماً مع قواعده منطلقاً مع ينابيعه الأولى، لأن ابتعاده عن الأجواء الطبيعية التي انطلق فيها ربما يفقده الكثير من عناصره الأصلية، ويجرده من المعاني الحية الكامنة فيه تماماً كما يعيش النبات الجبلي في الصحراء، أو النبات الصحراوي في الجبل، في غربة روحية عن أجوائه الطبيعية.

ونعني بالأجواء الطبيعية للتشريع: المجتمع الذي يعيش فيه القانون، والإنسان الذي يمارس عملية تنفيذه، والوضع القانوني العام الذي يحيط ظرف تطبيق القانون، وكمثال على ذلك، نضع تشريع الربا في الميزان في ظل الأنظمة الحاضرة.

فإننا لن نستطيع فهم القانون الإسلامي الذي يحرم الربا، ومعرفة حكمته إذا

أردنا أن نضعه في قلب الأوضاع القانونية التي تعتبر النظام المصرفي الحالي أساساً للحياة الإقتصادية في العالم، لأن التحريم - في هذا الإطار - يتحول إلى أداة تجميد للنشاط الإقتصادي والتجاري للإنسان المسلم، وبالتالي إلى شلّ للحركة العامة في البلد.

لن نستطيع فهم طبيعة التحريم في ظل هذه الأوضاع، بل يجب علينا أن نتلمس النظام العام للإقتصاد الإسلامي، والتشريعات المالية العامة في الإسلام ونتعرف على ركائزها، لنفهم دور الربا في بناء هذا النظام وموقعه من الإتجاه العام لأنه يمثل جزءاً من كل، فلا نفهمه إلا إذا فهمنا الكل لنعرف موقعه منه، وليس كياناً قانونياً مستقلاً يتسع لكل مجال، ويحيا في كل مكان.

مفهومنا للتطور

وبهذا نستطيع الإجابة على التساؤل الذي يدور في أذهان المسلمين ويراد خواطرهم، في حيرة، ليقول: كيف يضمن لنا الإسلام الحركة الدائمة في حياتنا مدى الحياة، وهو يحرم علينا الربا الذي يرتكز عليه النظام المصرفي العالمي، الأمر الذي يؤدي إلى إصابة الحياة الإقتصادية بالشلل؟

كيف يكون الإسلام دين الحياة، وهو لا يستطيع أن يتطور مع الحياة بل يبقى حيث هو مع الأنظمة البدائية في مجال التاريخ؟

إننا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال بإثارة بعض النقاط التي عالجناها في هذا الحديث. فليست القضية قضية تطوّر تهرب فيه الصورة من الإطار، لتحل مكانها صورة أخرى، بل القضية قضية تشريع تتطور الحياة في إطاره وتتقدّم في اتجاهه، حتى لا تشكو تأخراً ولا نقصاً ولا شللاً في جميع الميادين.

ولم يكن النظام المصرفي الحالي، ولید تطوّر فرضته سنة الحياة، ليكون الإسلام غريباً في تشريعاته عن حتمية التطوّر في حركة التاريخ، بل هو ولید نظريات

اقتصادية، استطاعت القوة أن تفرض مبادئها، وتمكنت التربية والتثقيف المتواصل، من أن يركزا قواعدها في أذهان قيادات المجتمع، برغم انتقادات المنتقدين.

وما دامت القضية قضية قوة تفرض الفكرة واقعاً في حياة الناس، وتركز التربية قاعدة في ثقافة الجيل، لا سنة حتمية تخضع لسنة الكون في مسيرتها الطويلة في حركة الحياة فقد نستطيع الحركة في اتجاه العلم، من أجل أن نحصل على القوة التي تفسح في المجال لمبادئنا أن تخطط لنا أوضاعنا القانونية وتمهد السبيل لنظرياتنا أن تتخذ لنفسها الأجواء التربوية، التي تستطيع من خلالها أن تنفذ إلى عقول الجماهير، وهكذا نستطيع أن نضع أيدينا على الجواب.

إن الذنب ليس ذنب التشريع الذي يحرم الربا، بل الذنب ذنب الجو الغريب عن المجتمع الإسلامي الذي فرضته القوة علينا، ليبدو التشريع في نطاقه أمراً غريباً عن حياة الناس وسعادتهم، لأنه ابتعد عن قواعده واغترب عن أجوائه وانفصل عن ينابيعه الأولى.

وبكلمة واحدة: لنضع الربا في مكانه من النظام الإسلامي للإقتصاد، ولنحكم عليه بعد ذلك، بالتقدمية أو الرجعية.

ذلك هو الميزان الدقيق للحكم العادل النزيه، لو حاولنا العدالة في الحكم.

بين التشريع والأخلاق

ومن بين القضايا التي تلزمننا دراستها في سبيل رسم ملامح الصورة العامة للإسلام، قضية الجانب الأخلاقي للتشريع؛ فقد ارتبطت الأخلاق بالتشريع ارتباط الأساس بالبناء كما يشير إليه قول الرسول الأعظم (ص) (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١).

وبهذا كانت التشريعات تمثل الوسيلة العملية للبناء الأخلاقي في داخل

(١) المستدرک، ج ١١، باب ٦، ص ١٨٧، رواية ١٢٧٠١.

الشخصية المسلمة، الأمر الذي يجعل من امتثالها مجردة عن معانيها وإحياءاتها الروحية أمراً غير ذي موضوع في حساب القيمة الإسلامية للعمل (من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)^(١).

(كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء حبذا نوم الأكياس وإفطارهم)^(٢).

وعلى ضوء هذا، نفهم ارتباط الجانب العبادي بالجانب الأخلاقي، فلا قيمة لصورة العبادة التي لا تركز على أساس العبادة الداخلية في أعماق النفس، النابعة من خشوع الضمير لله، وطهارة الوجدان من كل دنس.

ونلاحظ - إلى جانب الارتباط العضوي بين العبادة والأخلاق - محاولة الإسلام تعميق الشعور الأخلاقي بالمسؤولية في ضمير الفرد، وبناء الأسلوب العملي في حياته على أساس الإرتفاع بالواقع عن التصرف العاطفي غير المسؤول، حتى لا تعود الرخص والمباحات في مجال علاقاته بالآخرين، وسيلة يستغلها الإنسان، ويستخدمها لإرواء شهواته وتنفيذ رغباته العارمة. بل تمثل - في نطاق المسؤولية - أداة يمارس فيها الإنسان إرادة الحرية في حياته، حتى لا تختنق الحياة داخل وجدانه، أو تعود شيئاً يسجن الإنسان في كهوف المشكلة من دون أن ينتظر الخروج منها في نطاق الحلول العملية.

وعلى هذا الإتجاه نستطيع فهم تشريع الطلاق، وتعدد الزوجات، وغيرهما من التشريعات التي قد يتصل تطبيقها ببعض المفارقات البعيدة عن روح التشريع العامة.

فنلاحظ - في هذا المجال - أن الإسلام قد حددهما بحدود أخلاقية توجي للإنسان إحياء عميقاً بالمسؤولية الأخلاقية التي ينبغي له أن يشعر بها في تصرفه

(١) المستدرک، ج ٤، باب ٥، ص ١١٤، رواية ٤٢٦٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ١٨، باب ١٤١، ص ٣٤٤.

تجاه الحياة الزوجية، فلم يحدّد الطلاق بحدود قانونية إلزامية تحصره في نطاق خاص، بل حدّد له الحدود الأخلاقية التي تجعل منه عملية غير أخلاقية، إن لم يركز على سبب يجعل الحياة بدون شئ لا يطاق، فبدأ بالإيمان بالفكرة التي تقول: أبغض الحلال إلى الله الطلاق وبالفكرة التي جعلت التسريح بإحسان إلى جانب الإمساك بالمعروف.

ونحاول في هذا المجال، التركيز في الملاحظة على طبيعة الإحسان في التسريح، وكيف يفتح أمام الإنسان الطريق السليم نحو الحل الطبيعي للمشكلة؟

﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فَتَوَارَظَ بَيْنَهُمَا فَاعْبُدُوهُمَا حَقًّا مِنْ أَهْلِهِ وَحَقًّا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَدُوهُمَا حَقًّا مِنْ أَهْلِهِ وَحَقًّا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(٢).

وهكذا كان الأمر في موضوع تعدّد الزوجات؛ فقد حاول أن يربطه بالعدل في النفقة والتوازن في العاطفة، الأمر الذي يوحي للإنسان بأن القضية لا تبتعد عن المسؤولية القانونية، كما لا تنفصل عن المسؤولية الأدبية والعاطفية - إن صح التعبير.

روحية القانون

وبكلمة واحدة: إن ما نفهم من إثارة الجوانب الأخلاقية في التشريع الإسلامي في نطاق المستحبات وأمثالها من اللفظات الروحية، أن الإسلام يريد للإنسان أن يمارس، في امتثال التشريع وتطبيق القانون، إرادته النابعة من وجدانه الأخلاقي، بحيث يمثل التشريع لديه وجداناً عملياً يتحرّك في داخله لا مبرراً ساذجاً لأهوائه ورغباته. ولعل أقرب طريق نحو الوصول إلى هذا الهدف، هو هذا الأسلوب الإيحائي

(١) سورة النساء: ٣٤.

(٢) سورة النساء: ٣٥.

في المعاناة الداخلية لقيم التشريع وأهدافه.

ولولا ذلك لم نتمكن من الوصول إلى ما نريد، ولو ربطنا القانون بآلف قيد وقيد، لأن أي قانون لا يستطيع حماية نفسه ورعاية روحه، بعيداً عن الإنسان الذي يعيش روحية القانون في ذاته ومسؤوليته في عمله.

وبهذا انطلق التشريع الإسلامي في أخلاقه العملية ليمهد الطريق للإنسان نحو هذه الحياة.

التوحيد حاكم

ومن بين الأمثلة التي نريد إثارتها أمام الدراسات الإسلامية، كشاهد على الترابط الوثيق بين مختلف جوانب التشريع الإسلامي، ما نلاحظه من ارتباط الجانب الإقتصادي بالجانب الأخلاقي والإجتماعي بشكل يلفت النظر، الأمر الذي يجعل دراسة طبيعة الإقتصاد مرتبطة بدراسة الجوانب الأخرى من سياسية واجتماعية وأخلاقية، لأن الإقتصار على جانب واحد يجعل النتيجة مغلوطة وسيئة إلى حد بعيد.

ونحسب أننا استطعنا بما قدمناه من نماذج وأمثلة، أن نكتشف بعض السر في الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون من الباحثين لدى دراستهم للإسلام والمتمثل في خطأ المنهج الذي اتبعوه في دراستهم، فقد اعتبروا كل ناحية من نواحي الحياة منفصلة عن النواحي الأخرى في التشريع كما لو كانت فكرة مستقلة تخضع لواقع قانوني مستقل.

وليس ذلك إلا لغفلتهم - في ما نظن - عن الشخصية الموحدة للفكرة الإسلامية، تلك الشخصية التي تتكامل وتتركز في جميع نواحي التشريع في سلسلة مترابطة الحلقات. ومن البديهي، أن إهمال ذلك في مجال البحث، يفقد الفكرة - أية فكرة كانت - الكثير من عناصرها وخصائصها الذاتية.

وخلاصة ما نريد أن نخرج به من هذا الحديث: إن المنهج الأمثل في دراسة الإسلام ولكل نظام يرتكز على فكرة موحدة، هو أن نلاحظ جوانبه مجتمعة لنأخذ الفكرة العامة، ولنعرف طبيعة الأمور التي ترتبط بها، لتكون دراستنا لبعض الجوانب على انفراد مسبقة بفهم عام للتشريع ككل، وليتسنى لنا وضع هذا الجانب في محله من النظام العام والفكرة الأساسية.

وهدفنا من ذلك كله، أن لا نقع في ما وقع فيه بعض الباحثين، فأساؤوا إلى الإسلام والعلم والتاريخ.

* * *

لندرس تاريخنا بوعي

دروس التاريخ

للتاريخ في حياة كل أمة، تريد أن تتقدّم وتنطلق في الركب الحضاري الصاعد، دوره الحيوي في نموها وتطورها، كونه يجنبها كثيراً من المزالق والمخاطر والأخطاء، بما يقدمه لها من تجاربها الماضية في مراحل نموها الأولى، وما تحمله - تلك التجارب - من دروس عملية كثيرة، تستطيع بها أن تضع يديها - بوعي - على مواطن الضعف ومواطن القوة في شخصيتها التي عاشتها في تلك الأدوار. وهناك يكون الطريق أكثر إشراقاً، وأرحب أفاقاً مما لو انطلقت فيه على غير هدى التاريخ.

أما إذا انعكست القضية، فحاولت أن تحتقر تاريخها، وترفضه ولا تنظر إليه إلا كما تنظر إلى الآثار البالية، وانطلقت، بروح انفعالية حماسية تحاول التمرد عليه والتحرر منه، والتحول إلى حاضرها، لتجعل منه مبدأ نموها ومنطلق حياتها.. فإنها - لا شك - ستعري وتفقد شخصيتها الأصيلة، لفقدانها الركيزة التي ارتكزت عليها حياتها، والمنطلق الذي انطلقت منه. وبذلك فهي لا تملك - حينئذٍ - إلا التذبذب والإتكاء على تجارب الآخرين، وتناول فتات موائدهم.

ولا يجهل أحد - بعد هذا - ما في ذلك من ضياع وانهيار لكيانها وشخصيتها الأصيلة.

على ضوء هذه الفكرة، نحاول الإنطلاق إلى تاريخنا، فندرسه من خلال وجودنا

الإسلامي، كأمة إسلامية واعية أنشأت حضارة عظيمة تعتبر أم الحضارات الحديثة.

إننا نحاول الإنطلاق إلى هذا التاريخ، لنقرأه على هدي من وعي وعمق ومعرفة. في هذه المرحلة التي نحاول فيها العودة إلى الشوط من جديد - بعد أن غبنا عنه مدة طويلة - لنحمل مشعل الكرامة والعدالة الإنسانية في رسالة السماء إلى الأرض.

وليس تلك المحاولة التي ندعو إليها، مجرد ترف ذهني، ودراسة مجردة، وإنما هي ضرورة حتمية، وواجب حيوي لمراحلنا الحاضرة، بل نستطيع القول أنه من أبرز الواجبات الملقة على عاتق المسؤولين عن قضية الإسلام، بالنظر إلى أنه سجل للمعركة التي خاضها الإسلام ضد خصومه وأعدائه، وقد علق به، ما علق بكثير من مفاهيم الإسلام، من شوائب وألوان دخيلة بسبب ما حل بالمسلمين من ارتباك واضطراب.

ولذلك فقد وصل إلينا وهو يجر خطواته في وهن وضعف.. حاملاً أثقال الفترة المظلمة، والعهود السود.

وهذا ما ساعد كثيراً من متفلسفي التاريخ، على تلوينه بالألوان الكثيرة المختلفة، حسب اختلاف لون التفكير الذي يعيشه أولئك المفكرون.. فأصبحنا نقرأ الأسلوب المادي للتاريخ الذي يحاول أن يفلسف تاريخنا على أساس من الإقتصاد فحسب. كما بدأنا نسمع عن كثير من الحركات والدعوات الاشتراكية في تاريخنا، وعن دور الصحابي الجليل «أبي ذر الغفاري» فيها، وعن ثورة صاحب الزنج التقدمية، وغير ذلك من الألوان التي انتشرت في البحوث التاريخية التي تتناول تاريخنا بالدرس، بأسلوب بعيد عن الجو الإسلامي وواقعه.

وهذا ما يجعلنا نتساءل عما يجب علينا عمله إزاء هذا الواقع الذي يعيشه تاريخنا في عصرنا الحاضر، لنستطيع أن نقدّمه إلى الجيل المسلم الواعي في

إطاره الإسلامي الخالص، بعيداً عن المفاهيم الغربية عنه، ليعيش جيلنا الصاعد في جو إسلامي نقي، كسبيل من سبل المحافظة على شخصيتنا الإسلامية المستقلة.

ملاحظات أولية

ويبدو لنا أن علينا - قبل كل شيء - أن نتخلّى عن الهالة القدسية، التي نحاول أن نحيط بها هذا التاريخ بكل ما فيه من انحرافات وأخطاء، لأننا لن نحصل على فائدة من دراستنا له بدون ذلك.. بل القضية تكون عكسية، لأن هذا الأسلوب يؤدي إلى تقديس الأخطاء، وفي هذا ما فيه من الإنحراف عن الغاية التي نسعى إليها، والهدف الذي نهدف إليه.

إن تاريخنا - ككل تاريخ - كان حصيلة أدوار مختلفة من حياة الأمة بين ارتفاع وانخفاض، فهو الصورة التي تنعكس عليها الحياة بما فيها من ارتباكات، فإذا أردنا أن نفهمه على أساس واقعي، فيجب علينا تعريته عن كل لون من ألوان الخيال والدعاية والزهو، وملاحظته كمادة خام لدراسة عملية واقعية عميقة.

وشيء آخر يلزمنا ملاحظته عند دراستنا لهذا التاريخ، هو أن كثيراً من القضايا والملابسات، التي حدثت في الصدر الأول في الإسلام والإنقسامات التي ابتلي بها المسلمون، أثّرت على سير هذا التاريخ في صدر الرسالة، لأن تلك القضايا خلقت عندنا كثيراً من المؤرخين والمترققة، الذي كانوا يعيشون على موائد الملوك، ليخلقوا لهم المآثر والفضائل والأحاديث، ويصوّروها بصورة جذابة تلفت الأنظار في أي موضوع شاؤوا وأرادوا، حسب الحاجة السياسية والشخصية.

ولذلك فلن نستغرب إذا قرأنا كثيراً من الوقائع التاريخية، في صورتين متناقضتين، تعكسان الإنقسامات الموجودة بين المسلمين، وتبرز كل منهما الواقعة التاريخية على ضوء من اتجاهاتها وغاياتها، تماماً كما يحدث في عصرنا الحاضر عندما تتضارب الصحف السياسية في تصوير بعض القضايا، التي نعيشها

بأنفسنا نتيجة تضارب الرأي أو الإتجاه الذي تمثله هذه الصحيفة أو تلك.

إن على الباحث الإسلامي أن يراعي هذا الواقع الذي عاش فيه التاريخ الإسلامي، ليسير في بحثه بهدوء وحذر ويقظة متناهية، لئلا يقع في الخطأ من حيث لا يعلم، وينحرف عن الدرب من حيث لا يريد.

وناحية ثالثة يلزمنا الإنتباه إليها وتأكيد شجبها، لأنها تمس جوهر الإسلام في الصميم. فقد دأب كثير من الباحثين ولا سيما المستشرقين منهم على اعتبار كثير من التصرفات - التي تقوم بها الجماعات التي تدين بالإسلام - ممثلة لوجهة النظر الإسلامية، مهما كان لون تلك التصرفات ومهما كان نوعها. وهذا خطأ، فإن الجماعات الإسلامية والمسؤولين المسلمين - الذين عاشوا في التاريخ الإسلامي - ليسوا إلا أناساً كبقية الناس، لهم أخلاقهم الخاصة، ولهم طباعهم وأنواقهم المعينة، ولهم أخطاؤهم البشرية كبقية البشر، وليست تصرفاتهم إلا كتصرفات بقية إخوانهم من بني الإنسان، وليس لها علاقة بالإسلام إلا بمقدار قربها من مبادئ الإسلام ومفاهيمه. ولهذا فإننا لا نستطيع اعتبار أي تصرف من تصرفات المسلمين - مسؤولين كانوا أو غير مسؤولين - مرتبطاً بالإسلام إلا بعد مقارنته بالمفاهيم والمبادئ الإسلامية، لنعلم مدى موافقته لها.

إن مبادئ الإسلام ومفاهيمه هي المقياس الصحيح الذي نقيس به تصرفات المسلمين، لا العكس..

وهذه هي بعض النقاط التي حاولنا أن نعرضها - بصورة إجمالية - في سبيل الوصول إلى أفضل الطرق لدراسة تاريخنا الإسلامي بروح علمية عميقة، على ضوء من هدي الإسلام وأسلوبه. ولعلنا نعود إلى هذا الموضوع في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى.

* * *

محاولة جديدة لدراسة التاريخ الإسلامي

البداية المطلوبة

علينا أن نقرأ تاريخنا من جديد قراءة واعية، نحاول أن ندرسه وتفسره ونتعرف على جذوره الأصيلة، ومعطياته الخصبة.

هذه هي القضية التي تواجهنا في طريقنا نحو العمل في بناء الحاضر الإسلامي، وتلح علينا بقوة وإصرار.. لأنها تتصل بالمرحلة الأولى من مراحل العمل والبناء، وهي مرحلة الإعداد والتكوين، إعداد الخطط التي يسير عليها العمل، وتكوين الأسس والمبادئ العامة التي يرتكز عليها البناء.

أما كيف تمثل هذه القضية مرحلة البداية للعمل؟ وكيف تساعد على إعداد الخطط وتكوين الأسس؟ فهذا ما نتعرفه، إذا وعينا طبيعة المعرفة التاريخية التي تقدمها لنا دراسة التاريخ، وعلاقتها بالواقع الحياتي الذي نعيشه.

وفي سبيل الوصول إلى هذه النتيجة، علينا أن نفهم طبيعة المشكلات الحاضرة التي يتخبط فيها الواقع الإسلامي، انطلاقاً من المشاكل العقيدية التي تتمثل في اختلاف المذاهب والمدارس الفكرية الإسلامية، في تفاصيل العقيدة وفروعها، وفي نوعية الطرق التي تصلنا بها، وتوصلنا إليها.

إن المشاكل الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، تتمثل في التمزق الداخلي والخارجي، الذي يعيشه المسلمون في ظل واقعهم العملي المنهار المتمثل في تخلفهم الحضاري عن الركب العالمي، الأمر الذي جعلهم في عزلة تامة عن الإسهام في عملية صنع التاريخ الحاضر.

النفوذ إلى العمق

ولن نستطيع التعرف على طبيعة هذه المشاكل، وعلى الحلول العملية التي نقدمها أمامنا لمعالجتها، وبالتالي، لن نصل إلى نتيجة ذات جدوى، إذا حاولنا الوقوف أمام المظاهر السطحية البارزة، من دون أن ننفذ إلى أبعد منها، لأن ذلك لن يهيئ لنا الوقوف أمام واقع المشكلة، وبالتالي لن نستطيع أن يخطو بنا خطوة واحدة نحو الحل الجذري الصحيح.

لذلك فلا بد لنا من النفوذ إلى الأعماق، لنتمس بأيدينا جذورها وأسبابها البعيدة والقريبة التي تمتد إليها هذه المشكلة أو تلك، لأن لكل مشكلة، وكل قضية، مؤثراتها وعلاها، وجذورها الأصلية في حياة الأجيال السابقة، الأمر الذي يجعلنا - ونحن في سبيل البحث - نضع علامات استفهام عميقة، أمام كل مرحلة سابقة، وحول كل حركة من الحركات الثورية والإصلاحية التي عاشتها الأمة الإسلامية في الماضي؛ عن طبيعتها الذاتية، من حيث هي إسلامية أو غير إسلامية، عن الجو التي نشأت فيه ونمت في أرضه، من حيث هو ديني ينبع من واقع العقيدة الدينية، أو دنيوي ينطلق من المنافع والأطماع الذاتية العامة والخاصة، عن المؤثرات الداخلية والخارجية التي شاركت في نموها، وتطورها، من حيث ارتباطها بالواقع الداخلي والخارجي لحياة المسلمين وعدمه، وعن نوعية النتائج التي حصلت من هذه الحركة أو تلك، من حيث اتصالها بالمفاهيم والقيم الإسلامية وابتعادها عنها، وأخيراً عن مواطن النجاح، ومواطن الإخفاق من حيث تمثل عناصر القوة التي دفعت إلى

النجاح، ومعرفة عناصر الضعف التي أدت إلى الفشل والإخفاق، كسبيل من سبيل استفادتنا منها، ومدى إمكانية هذه الفائدة وعلاقتها بالمشاكل الآتية التي نعيشها، وارتباطها من قريب أو بعيد.

تلك هي علامات الإستفهام التي تواجهنا، ونحن ندرس التاريخ، في طريق التعرف على مشاكلنا الحاضرة.

وتلك هي الأسئلة، أو بعض الأسئلة، التي يطالعنا، في كثير من الأجوبة عليها، الوجه الحقيقي لطبيعة مشاكلنا الحاضرة.

صنع الحاضر

وهذه هي إحدى الأسباب التي تضطرننا إلى الوقوف وجهاً لوجه أمام التاريخ، لندرسها ونتعمق في معطياته وأثاره، لأنه لم يعد - من خلال هذه النظرة - مجرد تسجيل حرفي لقضية من قضايا الماضي، بل أصبح أداة فاعلة تسهم في عملية صنع الحاضر، وتؤثر فيه، بطبيعة ارتباطه بها وارتباطها به، تماماً كارتباط الشجرة بجذورها وعروقها الضاربة في أعماق الأرض.

اتجاهات لفهم التاريخ

وثمة ناحية أخرى تجعلنا على صلة وثيقة بـ «المعرفة التاريخية» في مرحلتنا الفعلية، وتحتم علينا إعادة النظر في تاريخنا من جديد، في سبيل التعرف على القاعدة التي ينطلق منها، وعلى العوامل التي شاركت في وجوده ومدى علاقتها بهذا الوجود، وعلى علاقة هذا التاريخ بالإسلام، وعلاقة الإسلام به، وما الذي قدمه الإسلام لهذا التاريخ، وماذا كان دور الإسلام في حركته الصاعدة، أكان تأثيره فيه كدين قدم للحياة مفاهيم جديدة شاملة للكون والحياة والإنسان فساعدوا على أن تخطو هذه الخطوات الجبارة، أم أن تأثيره فيه، كحركة ساعدت على تغيير الواقع

الإقتصادي للمجتمع الذي عاشت فيه، أو بالأحرى نشأت على أساس الواقع الإقتصادي لذلك المجتمع ولذا فهي جزء من الحركة التاريخية الحتمية، التي تخضع للعامل الإقتصادي؟

أم ليس الأمر في هذا وذاك.. وإنما القضية، أن الإسلام كان وليد الأمة التي عاش في أرضها، وربيب البيئة التي نشأ فيها وتأثر بها وأثر فيها، ولذا فإنه يحمل رسالة هذه «الأمة»، و«عبقريّة» هذه «البيئة» ويمثل آمالها وآلامها أصدق تمثيل، وبهذا كان دور الإسلام في هذا التاريخ - من خلال هذه النظرة - هو دور الأمة التي كان الإسلام أصدق تعبير عنها، وأصفى مرآة لروحيتها وتطلّعها وظمئها إلى السمو والإبداع؟؟

علينا أن نتعرّف على كل هذا، لتتعرّف على موقفنا من كل ذلك، فقد تعدّدت الإتجاهات «النظرية» في دراسة هذا التاريخ، واختلّفت التيارات الفكرية في ذلك.

فقد حاول أتباع المادية التاريخية وضع قاعدة عامة للتاريخ ضمن الفلسفة المادية الشاملة في تحليل الكون والإنسان والتاريخ، والتي تُخضع كل التطورات التاريخية والحياتية للعامل الإقتصادي الذي يتمثل في تطوّر وسائل الإنتاج، والذي يعبّر طبيعة العلاقات الإقتصادية في كل مرحلة من المراحل، التي تعبّر بدورها كل الأوضاع الفكرية والروحية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع البشري بشكل عام. وهكذا يصبح التاريخ خاضعاً لحتمية هذا التطوّر - الذي يزعمونه - من دون أن يستطيع الفكّك عنه.

أما طبيعة ارتباط هذه «النظرة» بمعرفتنا التاريخية فتتمثل في أنها تحاول «إخضاع» تاريخنا لهذا المنطق و«فرض» تلك المراحل الحتمية على هذا التاريخ، كما شاهدها في بعض الدراسات التي حاول فيها بعض الباحثين الذين يتبنون هذه النظرة، حيث حاول أن يفسّر التطورات الحياتية التي حدثت قبل الإسلام وبعده بالتفسير الذي ينسجم وهذه النظرية.

وهناك اتجاه آخر يعيش في نطاق التاريخ الإسلامي فيحاول أن يجعل منه مرحلة من مراحل تاريخ «أمة معينة» أو «شعب معين»، حتى كأن في انطلاق هذا التاريخ في حياتها ما يبرر اعتباره تراثاً قومياً ينبع من طبيعة العوامل والمؤثرات القومية. وامتد هذا الإتجاه في هذا المجال، حتى حاول أن يجعل من الإسلام مجداً من أمجاده القومية الخاصة، فقد كان وليد الأم العروبة، لا رسالة إلهية تمتد من السماء، لتحضن البشرية جمعاء في الأمها وأمالها..

وقد أصبح لكل من هذين الإتجاهين دراساتهم المعينة، ومناهجهما المحددة، حتى عاد القارئ العصري يلتقي بكل منهما في أكثر من كتاب وفي أكثر من محاضرة.

أما الإتجاه الثالث الذي يحاول أن يفسر هذا التاريخ من خلال دور الإسلام فيه - كدين - فلا تجد له خطأ معيناً، ولا منهجاً محدداً؛ وإنما هي كلمات وآراء متناثرة تلتقطها من هنا وهناك، مما يكتبه بعض الكتاب المسلمين، من حيث يقصدون ولا يقصدون. إنها كلمات عابرة وآراء سريعة، ولذا فإنها لن تترك في نفس القارئ أي أثر لو التفت إليها، ولذا فلا تبدل في ذهنيته أي شيء.

وقد يبدو غريباً أن ندرس التاريخ من خلال تأثير الإسلام فيه «كدين» أو أن نعتبر ذلك اتجاهاً آخر في دراسته.

ولكن هذه الغرابة ترجع إلى غموض هذا المنهج الذي ندعو إليه ونحاول التعرف إلى ملامحه وآثاره؛ ولذلك فإنها ستزول - حتماً - عندما نوفق إلى رسم الصورة الوضيئة لما نحاوله.

صورة مشوشة

حتى الآن لا نزال نقرأ التاريخ الإسلامي، في صورة حوادث معينة متعاقبة، تعيش في نطاق معين، هو «الشعوب» التي تدين بالإسلام. فنقرأ الحياة الإجتماعية

والسياسية والثقافية، التي تسود تلك المجتمعات، كما نقرأ العلاقات والارتباطات، التي حدثت بينها وبين المجتمعات الأخرى، وطبيعة التفاعلات والتأثيرات التي نشأت من خلال هذه العلاقات والارتباطات.

كل ذلك نقرأه - في ما لدينا من كتابة التاريخ - ونقرأ أشياء كثيرة غير ذلك.

ولكن ما هي الصورة التي تخرج بها من كل ذلك؟؟.

أحسب أن الجواب لهذا التساؤل، لن يكون إلا بمعرفة حياة أناس ترتبط معهم برباط الدين، تماماً كما يعرف الإنسان حياة أقربائه وعشيرته.. ونعني بذلك أن هذه «المعرفة» التي نحصل عليها ترتبط بـ «ذوات» هؤلاء الناس، وبما تحمله من رغبات ورواسب وتأثرات، ولذا فلن يغير إطلاق أية صفة عليهم، طبيعة هذه المعرفة، لأن هذه الصفة لا تمثل - في هذا المجال - إلا مهمة الإشارة إلى هؤلاء الناس، من دون أن يكون لها أي أثر في حياتهم، - من خلال هذا التاريخ - وإذاً، فلا فرق بين أن نطلق عليهم صفة «المسلمين» أو غيرها من الصفات، لأن الصفة غير دخيلة في حركة هذا التاريخ الذي نقرأه..

تلك هي الصورة التي نخرج بها من قراءتنا لما كتب من هذا التاريخ صورة الناس الذين «يدينون» بـ «الإسلام».

أما صورة الناس «المسلمين» الذين ترتبط حياتهم بالإسلام وتتأثر به، فهذا ما لا نلمحه في هذا التاريخ، ولذا فقد عادت «المعرفة التاريخية» لدى القارئ المسلم غير ذات أثر، إلا من خلال إثارة الزهو الذاتي الذي تثيره فيه قراءة هذا التاريخ وما فيه من أمجاد، نتيجة ارتباطه بأشخاص هذا التاريخ برابطة «الدين» تماماً كما يحس الإنسان بالزهو عندما يعرض أو يُعرض أمامه، أمجاد آبائه وأجداده.. ولا شيء آخر غير الزهو.

* * *

مهمة الباحث المسلم

أما ما نحاوله، فهو أن يرتبط هذا التاريخ بالإسلام، فقد عاد من «الأمور المسلمة» الواضحة أن الإسلام قد «غير» حياة الشعوب التي دانت به وانتسبت إليه، وحاول أن يطبعها بطابعه، ويربط حركاتها وأفكارها وعلاقاتها العامة والخاصة بمفاهيمه العامة التي جاء بها لتنظيم الحياة.

ولكن ما هو «الحدّ» الذي وصل إليه هذا التفسير، وما هو مقدار نجاح هذه المحاولة التي حاولها الإسلام؟

إننا لا نستطيع - بطبيعة الحال - أن ندّعي استيعاب هذا التغيير لجميع نواحي الحياة، ولا المحاولة بالحد الذي يجعل حياة تلك الشعوب صورة صادقة عن الإسلام وتجسيدا حياً لمفاهيمه.

إننا لا نستطيع هذه الدعوى ولا هذا الزعم، لأننا واجدون في هذا التاريخ ما يضع أيدينا على كثير من الإنحرافات عن مفاهيم الإسلام وخطوطه العامة، وهنا تبدأ مهمة البحث، وتتجلى طبيعة المنهج الذي نحاوله في دراستنا لهذا التاريخ.

فقد وضع لنا من خلال العرض الموجز الذي قدّمناه، أن هناك حقيقتين عاشهما هذا التاريخ، من خلال دخول الإسلام في حياة هذه الشعوب.

الأولى: أن الإسلام قد أحدث تغييراً كبيراً في لون الحياة ومفاهيمها لدى الشعوب التي دخلها.

الثانية: أن هذا التغيير لم يكن «كلياً» بالقدر الذي يجنب تلك الشعوب الإنحراف عن مبادئ الإسلام وتعاليمه، ويجعل من حياتها تجسيدا حياً للإسلام.

وهنا تبدأ مهمة البحث الذي نحاوله. فنبدأ، مثلاً، بدراسة نوعية هذا التغيير الذي حدث، ونوعية الظروف التي هيأت له، وطبيعة الأساليب التي استُخدمت في سبيل الوصول إليه.

ثم نحاول التعرف على تلك الانحرافات التي حدثت، والأخطاء التي ارتكبت، ودوافعها ونتائجها، ثم نسير مع التاريخ في حوادثه وحركاته فنلاحظ مدى علاقاتها وارتباطها بالمفاهيم الإسلامية، وعلاقة تلك المفاهيم بها، وكيف تمثلت الناحية التطبيقية للإسلام في هذا التاريخ، ومدى التأثير الذي أحدثه هذا الاختلاف أو الانسجام، في تمثلها الحياتي لدى الناس، لنصل بعد ذلك إلى معرفة النكسات التي تعرّض لها التاريخ وعلاقتها بالإسلام ومفاهيمه، من حيث بعدها عنه وقربها إليه، وعياً وتجربة. وبكلمة موجزة أن نحاول دراسة التاريخ الإسلامي من حيث هو تجربة عملية للإسلام وامتحان لقدرة مفاهيمه وتعاليمه، على أن تعيش في حياة الناس وتؤثر فيهم وملاحظة عوامل الضعف في هذه التجربة من حيث نشوئها داخل هذه المفاهيم - كما يدعي الأعداء - أو عن الظروف التي أحاطت بالتجربة الزمنية منها والاجتماعية، أو عن الوعي القلق لواقع هذه المفاهيم وحقيقتها الأصلية.

تلك هي الصورة الإجمالية لما نريده من هذا الإتجاه الذي نعتقد أنه سيساعدنا - إلى حد بعيد - على وعي موقف الذين من هذه المرحلة، بمقارنته بموقفه من المراحل السابقة، التي قد نجد فيها الكثير من التجارب التي تعيننا على فهم هذه المرحلة. وإلى جانب ذلك، فإن هذا المنهج، يجعلنا نحسّ - بعمق - أننا جزء من تاريخ هذا الدين، لأن حياتنا - ستكون - جزءاً من الحياة الواسعة التي عاشت التجربة العملية للدين.

تجنب الانحرافات والأخطاء

ونحب أن نشير - ونحن في سبيل التعرف على ملامح هذا المنهج - إلى قضية قد تتبادر إلى ذهن الكثيرين عند قراءة هذا اللون من الكلام، هي أننا نحاول تعمّد إغفال الدور الذي قامت به «الأمة» - التي نشأ هذا التاريخ على يديها - في صنع هذا التاريخ وبنائه، وتجاهل القوى والإمكانات الذاتية التي لدى هذه الأمة في عملية البناء والإبداع.

نحب أن نشير إلى خطأ هؤلاء في ما يزعمون وفي ما يفهمون، فلسنا في محاولة نظرة انفعالية حماسية تتأثر بالعواطف والنوازع الذاتية وإنما نحن في محاولة «بحث» و «منهج» يعتمد على الموضوعية وعلى التجرد.

إن هذا المنهج الذي نحاوله يهدف إلى أن يجعل من وصف «التاريخ» بـ «الإسلامي» وصفاً حقيقياً، لا مجرد إشارة لمرحلة من مراحل الأمة العربية - كما يحاول بعض الباحثين - ولا يمنعنا في الوقت ذاته من استكشاف طبيعة الدور الذي قامت به هذه الأمة في التاريخ، والحكم عليه من خلال قربه لمفاهيم الإسلام وبعده عنها.

وبكلمة موجزة. إن محاولتنا هذه، تستهدف إثارة وعي القارئ للتاريخ - وهو يقرأ - بحركة الدين في هذا التاريخ، بحركة مفاهيمه، بحيوية روحه، بأصالة حلوله، بمراحل نجاحه وإخفاقه..

ومن الطبيعي لهذا الوعي أن يلتقي بالأمة التي كانت أول مجال عملي لاختبار قدرة الدين على التأثير، وأول رائد عاش هذا الدين في أفقه، وانطلق يتحدث إلى العالم بلغته.

ذلك هو هدفنا من هذه المحاولة وذلك هو غرضنا منها، فلسنا نريد «اختراع» تاريخ جديد، وإنما نحاول فهم هذا التاريخ من حيث هو تجربة عملية للدين، وبالتالي حفظ هذا التاريخ من الفهم المزور، والمنهج الخاطيء الذي وقع فيه الكثيرون من القارئ والدارسين له، والإبتعاد به عن طبيعة «السرد الحرفي» إلى الطريقة التي تجعل منه «معنى» يتحرك في داخل حياتنا ليحرك الحياة من حولنا.

علينا أن نحاول ذلك ونبدأ، الدرب، بسرعة وحذر، لنجنب جيلنا الإسلامي الطالع الإنحرافات التاريخية، وأخطاء المناهج المتعددة التي تدرس هذا التاريخ.

الفهم الخاطيء

وما دمنا في مجال البحث عن «الإتجاه الديني» في دراسة التاريخ ومحاولة تركيزه على أسس متينة ثابتة، فقد نجد أن من الخير لنا، ولحاولتنا هذه، أن نعرض لبعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتّاب المعاصرين في تفسيرهم للطريقة التي يعلّل بها «الإتجاه الديني» حوادث التاريخ.

يتحدّث الأستاذ «قسطنطين زريق» في كتابه «نحن والتاريخ» ص ٢٩ - ٣٠، عن المميزات التي تميّز «التيار التقليدي» - في ما يعبر - فيعتبر أن إحدى هذه الميزات هي: «إن تعليل نشوء الأحداث وتطورها هو، بحسب هذه النظرة، تعليل إلهي، فدوافع التاريخ ليست، أو على الأقل ليس أهمها وأبلغها فعلاً، في يد الإنسان، بل تحكمها المشيئة الإلهية والقوانين السماوية. وحياة السعادة الدائمة أو الشقاء الدائم في العالم الآخر. فمن العبث إذًا أن نحاول تعليل الأحداث الإنسانية بإعادتها إلى الجنس أو المحيط أو أي عامل من العوامل الطبيعية أو البشرية الأخرى. إن محور التاريخ ليس في هذا العالم بل في العالم الأعلى».

ثم يتحدّث في صفحة (٣١) عن المنطلق الذي انطلق منه في وصفه لهذا الإتجاه فيقول:

«ويلاحظ القارئ أننا في وصفنا لهذا المجرى التقليدي، لم نجد غنى عن توجيه النظر رأساً إلى المفاهيم الدينية الإسلامية والمسيحية. فهذه المفاهيم هي، عند الذين لا يزالون ضمن هذا المجرى، الدليل الأمين إلى حقائق الحياة الأساسية، وإلى معنى الأحداث المتعاقبة في الزمن وإلى العلة الفاعلة في هذه الأحداث».

* * *

وهكذا نجد أن هذا الوصف - في زعمه - يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم الإسلامية، لأنه ينبع منها ويتأثر بها. وهنا تصبح الدراسة التاريخية لدى أصحاب هذا الإتجاه

عبثاً لا طائل منه، وتكراراً مملأ لتفسير واحدٍ وتعليل مكرر لكل حادثة من الحوادث، أو حركة من الحركات. فكلّها جارية على سنة القضاء والقدر ومشينة الله وإرادته، ولا رادُّ لقضاء الله ولا مبدّل لإرادته.. وهكذا تلتقي الحوادث التاريخية بهذا التعليل. وهكذا يتمثل إغفال النظام الطبيعي الجاري في هذه الحياة، والسنة الكونية الحياتية، وإبعاده عن تعليل حوادث الكون وتفسيرها.

تصحيح النظرة

إن لنا أن نعلّق على هذه النظرة التي خرج بها الأستاذ «زريق» في عرضه، بأنّها «خاطئة».

فنحن لا ننكر أن هناك مفهوماً دينياً يسمى بـ القضاء والقدر» ولا ننكر أيضاً أن العقيدة الدينية ترتكز على أساس تبعيّة الحياة، بجميع حوادثها وحركاتها لمشينة الله وإرادته.

نحن لا ننكر ذلك، ولا يسعنا مناقشته، كما لا يسعنا الوقوف عند هذا المفهوم، في محاولة بحث وتحقيق، لأن بحثنا لا يسير في هذا الإتجاه ولا يقف في هذا الموقف. فلسنا في معرض بحث تاريخي يحاول أن يرسم النظرة الدينية والتفسير الديني للتاريخ ومدى ارتباطها بالمفاهيم العامة للدين.

فمن المفيد لنا - إذأ - أن نكشف عن حقيقة هذا الارتباط وواقع هذه العلاقة.

فما الذي يحاوله المفهوم الديني للحياة؟

هل يحاول تجاهل العلاقات الطبيعية، بين الحوادث ومؤثراتها، وإنكار قانون السببية والعلية العامة، في اعتباره الحياة مرتبطة بالله، فلا صلة للأحداث الإنسانية بأي عامل طبيعي من العوامل الطبيعية والبشرية، ولا علاقة لها بها، وإنما هي مرتبطة بإرادة الله مباشرة ومنطلقة منها، فهي السبب الأول والأخير لوجودها في الواقع الخارجي؟؟

هل يحاول المفهوم الديني ذلك، فنستطيع أن نربط - على أساس ذلك - بينه وبين النتيجة التي خرج بها الأستاذ زريق؟

يبدو لنا أن الجواب لن يكون إيجاباً على هذا التساؤل، كما نحسب أن هذا المفهوم الخاطئ الذي عرضناه له، ينطلق من جذور بعيدة تمتد من (الفلسفة المادية) التي اعتبرت مسألة الإعتقاد بالله نابعة من حاجة الإنسان إلى إيجاد سبب معقول لحوادث الطبيعة وظواهرها ومبرر يبرر وجودها، وبهذا اعتبرت إنكار الدين للتفسيرات الطبيعية التي تحاول ربط الأشياء بمؤثراتها الكونية أمراً مفروغاً منه، فالظواهر الكونية والأحداث البشرية، كلها تستند إلى إرادة الله ومشيئته، من دون أن يكون لها أي سبب مادي معقول.

وهكذا نشأت التهمة التي اتهم بها الدين من وقوفه أمام العلم ومصادمته له، لأن العلم يربط بين كل حادثة وأسبابها الطبيعية، بينما لا يعترف الدين - بحسب مفهومهم - بهذه الأسباب، ولا بعلاقتها بالأحداث..

* * *

قلنا إن الجواب لن يكون إيجاباً على ذلك التساؤل، لأن المسألة الدينية لا تركز على الإستغناء عن الأسباب الطبيعية، ولا تنكر قانون العلية العامة وإنما تركز على اعتبار الله سبباً أعمق، تنتهي إليه سلسلة العلل والأسباب، فلا يعتبر المادة هي السبب الأخير بل يعتقد أن هناك سبباً أعلى وأعمق منها هو الله، الذي أودع فيها خواصها وأثارها العامة.

وهكذا نرى أن هذا المفهوم لا يستند إلى افتراض تعلّق الإرادة الإلهية بالأشياء مباشرة، فتغيّر وتبدّل ما شاءت تغييره أو أرادت تبديله من دون سبب خارجي، لنخلص منها إلى الفكرة الخاطئة التي خرج بها الماديون في تفسيرهم لفكرة الدين. بل نستطيع أن نجزم بأنه صدق قانون العلية العامة الذي يربط بين كل حادث

وسببه، وبين كل معلول وعلة، فالحوادث والأحداث الحياتية - بأجمعها - خاضعة للنظام الكوني والسنة الطبيعية التي أودعها الله في هذا الكون.

ويذهب بعض الباحثين الإسلاميين إلى أبعد من ذلك فيعتبر أن «قانون العلية» لم يتخلف في أي حادثة من الحوادث الحياتية حتى في ما نسميه بـ «المعجزات» أو «الخوارق للعادة»، التي جاء بها الأنبياء كدليل على صحة نبوتهم ورسالتهم. فيحاول إرجاعها إلى أسباب طبيعية لم نطلع عليها «كما لم نطلع على تفسير الكثير من الحقائق الكونية والظواهر الطبيعية».

ولكي نعطي القارئ صورة جلية عن المفهوم الديني الذي عرضناه، نود أن ننقل إليه حديثاً لبعض الباحثين المحققين، تحت عنوان «تصديق القرآن لقانون العلية العامة». فيقول:

«إن القرآن يثبت للحوادث الطبيعية أسباباً ويصدق قانون العلية العامة كما يثبته ضرورة العقل وعلية الأبحاث العلمية والأنظار الإستدلالية، فإن الإنسان مفطور على أن يعتقد لكل حادثٍ مادي علة موجبة من غير تردد وارتياب. وكذلك العلوم الطبيعية وسائر الأبحاث العلمية تعلل الحوادث والأمور المربوطة بما تجده من أمور أخرى صالحة للتعليل، ولا نعني بالعلة إلا أن يكون هناك أمر واحد أو مجموعة أمور إذا تحققت في الطبيعة مثلاً تحقق عندها أمر آخر نسميه المعلول بحكم التجارب كدلالة التجربة على أنه كلما تحقق احتراق لزم أن يتحقق هناك قبله علة موجبة من نار أو حركة أو اصطكاك أو نحو ذلك. ومن هنا كانت الكلية وعدم التخلف من أحكام العلية والمعلولية ولوازمها.

وتصديق هذا المعنى ظاهر من القرآن في ما جرى عليه وتكلم فيه من موت وحياة ورزق وحوادث أخرى علوية سماوية أو سفلية أرضية على أظهر وجه وإن كان يسندها جميعاً بالآخرة إلى الله سبحانه لغرض التوحيد.

فالقرآن يحكم بصحة قانون العلية العامة، بمعنى أن سبباً من الأسباب إذا تحقق

مع ما يلزمه ويكتنف به من شرائط التأثير من غير مانع لزمه وجود مسببه مترتباً عليه بإذن الله سبحانه، وإذا وجد المسبب كشف ذلك عن تحقق سببه لا محالة»^(١).

وهكذا نجد أن بإمكاننا تعليل الحوادث التاريخية، بإعادتها إلى الجنس أو البيئة أو المحيط، أو أي عامل من العوامل الطبيعية أو البشرية الأخرى - من دون أن يكون ذلك عبثاً - كما يقول زريق - نظراً إلى أن الحادثة التاريخية - كبقية الحوادث الجارية في الحياة - مرتبطة بجذورها البعيدة وبظروفها الزمنية وبمجتمعها الإنساني، وطبيعة تكوينه وطبيعة نظم الحياة التي يسير عليها، والعقائد التي يعتنقها والرواسب التي ترسبت في ذهنه من ماضيه القريب والبعيد، من دون فرق في ذلك بين أي حادثة تاريخية حتى الحوادث التي رافقت نشوء الإسلام ونموه، فإنها لم تجر إلا على وفق السنن العادية للكون، وبذلك اضطهد واستشهد من استشهد وأخفقت الدعوة في بعض مراحلها ونجحت في البعض الآخر.. كل ذلك لأن الله أراد للحياة، التي خلقها وأودعها نظامه العظيم، أن تجري على وفق هذا النظام ولا تتخلف عنه في كل مرحلة من مراحلها وحادثة من حوادثها.. وإن كانت تلك الحادثة متمثلة في إرسال الرسل وتنزيل الأديان.

* * *

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٧٢.

مع المؤرخين في قصة المبعث

ليست صلتنا بقضية «المبعث النبوي» صلة ذكرى نعيشها فستوقفنا قليلاً ثم لا تلبث أن يلفها الصمت في غمار النسيان، وإنما هي صلة العقيدة بمولدها، والرسالة بمنطلقها، والإنسان بانطلاقة كيانه وبداية مجده.

إنها الحديث الذي هز كيان الإنسانية، بعد أن غفا مدة من الزمن، وفتح كل جانب من جوانب الحياة على الحق والخير والجمال، وانطلق بالإنسان إلى حياة مثلى يسودها العدل والأمن، بينما تنفجر أعماقها بالفكر النير والروحية الخلقة المبدعة، في عملية خصب وعطاء. وهي - بعد ذلك - قضية الحياة الكبرى التي تنطلق لتبلغ بنا شاطئ الأمن والسلامة.

تلك هي قصة المبعث كما نتمثلها في أعماقنا، وكما يعيها الفكر الناقد الذي يلانم بين البداية والنهاية، فلا يتصور البداية إلا بالعظمة التي تسير بها النهاية، لا سيما إذا كانت البداية بداية نبوة ورسالة، تستهدف إعداد إنسان ما لحمل فكرة السماء على الأرض، ولتبدل القيم الجاهلية، بقيم إسلامية جديدة، لتَهز الضمير الإنساني في عملية تجديد وإبداع.

لا بدّ لهذه البداية من أن تكون رائعة في جوّها وتفاصيلها، ولا بدّ لهذا الإنسان من أن يكون عظيماً في وعيه وتفكيره وقوّته، لأن قضية النبوة تختلف عن أية قضية أخرى من حيث طبيعة المرسل والرسول والرسالة.

أما أن تكون تلك البداية مسرحاً لحركات بهلوانية وتفصيلات مسرحية، أما أن تكون تفاصيلها أشبه بتفاصيل قصة تمثيلية يراد منها خلق جو من الرعب في نفوس الجمهور.. فهذا ما لا نستطيع أن نصدّقه بالنسبة إلى قضية عادية، فكيف بقضية الحياة الكبرى.

والآن ماذا يقول التاريخ في قضية المبعث وماذا يصوّر؟. إننا لن نتدخل في تفكير القارئ فنعلّق على هذه القصة التاريخية، وإنما نعرضها له أولاً - كما وردت في تاريخنا القديم - ليحتفظ بذوقه وتفكيره.

مشهد مضطرب

جاء في الدر المنثور للسيوطي (أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير، وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أوّل ما بدى به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبيب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه «وهو التعبّد في الليالي ذوات العدد» قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: فقلت، ما أنا بقارئ.. قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم﴾^(١) فرجع بها رسول الله (ص) يزحف بها فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين

(١) سورة العلق: ١ - ٤.

على نواذب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: ما ترى يا ابن أخي؟ فأخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا والله الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني أكون فيها جذعاً، يا ليتني أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله (ص): أو مخرجي هم. قال: نعم. لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً^(١).

هذه إحدى الصور التي رويت في قصة مولد البعثة. وأنت إذا تأملت فيها فلن تجد أمامك الجو الذي يسوده الهدوء والطمأنينة والوداعة التي تنسجم مع طبيعة القضية التي يناط بالنبي (ص) أمر القيام بها والدعوة إليها، وإنما تجد بدل ذلك جواً يسوده الرعب والخوف والترويع، كأن الغرض منه بث الرعب والخوف في قلب النبي (ص) وإظهار القوة والرهبة أمامه من قبل الملك.

ولن تجد في الوقت نفسه النبي الذي يثق بنفسه، ويعي ما حوله، ويفكر في ما رأى - وقد رأى حقاً كما تقول الرواية - وإنما ترى أمامك الإنسان الخائف الوجل الذي يرجف فؤاده، ويخفق قلبه، ويخشى على نفسه أن يكون قد عرض له عارض من مس، لولا أن تثبته خديجة بكلامها (ولسنا ندرك مناسبة ذلك الكلام، لقول النبي أنه يخشى على نفسه كأن تلك الأعمال تمنع من هذا العارض، أو أنها تثق بالله وعدم خذلانه لعبده الذي يعمل برضاه أكثر من ثقة النبي (ص) به)، وهكذا يتمثل لنا الرسول (ص) - في هذه الرواية - في موقف الحائر الذي لا يدري ماذا يصنع، وماذا يفعل به، فتقوده خديجة إلى «ورقة» الذي فرضته القصة نصرانياً يكتب الإنجيل بالعبرانية، فلا يلبث بعد سماعه كلام النبي (ص) حتى يجزم له بأنه نبي، كأنه يدري

(١) البحار، ج ١٨، ص ٢٢٨، رواية ٧١، باب ١ (بيان).

بتفاصيل البعثة قبل ذلك، وكأن التفاصيل مذكورة في الكتب المقدسة السابقة، لا مجرد الإشارة إلى نبوة النبي (ص) وصفاته، ثم لا نعرف معنى قوله (وإن يدركني يومك...) بعد أن كان يومه قد حان في ذلك الوقت نفسه.

والواقع أننا لا نعقل أن يبعث الله النبي (ص)، وهو أفضل أنبيائه، بأفضل رسالاته.. ثم يحوجه إلى أن يثبت نبوته لنفسه - لا للآخرين - بواسطة خديجة أو ورقة، من دون أن يظهر له البرهان الواضح من قبله تعالى شأنه.

غربة الموقف

ولن يقف بك المؤرخون عند هذا اللون من القصة، وإنما يعرضونها لك بلون آخر يزيدك دهشة، كما يزيد الموقف غربة وإثارة للفضول. يروي ابن مردويه عن عائشة «إن رسول الله (ص) اعتكف هو وخديجة شهراً فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله (ص) وسمع السلام عليكم، قالت: فظننت فجأة الجن. فقال: أبشروا فإن السلام خير، ثم رأى يوماً آخر جبريل على الشمس له جناح بالشرق وجناح بالمغرب، قال: فهبت منه فانطلق يريد أهله، فإذا هو بجبريل بينه وبين الباب، قال: «فكلمني حتى أنست منه، ثم وعدني موعداً فجئت لموعده، واحتبس عليّ جبريل، فلما أراد أن يرجع إذا به وبميكائيل، فهبط جبريل إلى الأرض وميكائيل بين السماء والأرض، فأخذني جبريل فصلقني لحلاوة القفا، وشق عن بطني، فأخرج منه ما شاء الله، ثم غسله في طست من ذهب، ثم أعاد فيه، ثم كفأني كما يكفأ الإناء، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم، ثم قال لي: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ولم أقرأ كتاباً قط، فأخذ بحلقي حتى أجهشت بالبكاء، ثم قال لي ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى قوله تعالى ﴿ما لم يعلم﴾، قال: فما نسيت شيئاً بعده، ثم وزنني جبريل برجل فوازنته، ثم وزنني بأخر فوازنته، ثم وزنني بمائة، فقال ميكائيل: تبعته أمته ورب الكعبة، ثم جئت إلى منزلي فلم يلقيني حجر ولا شجر إلا قال: يا رسول الله، حتى

دخلت على خديجة فقالت السلام عليك يا رسول الله».

هذا هو اللون الآخر يعرضه لك المؤرخون لقصة مولد الرسالة، وهو يختلف عن اللون الأول بالطريقة التي ابتدأ النبي بها أمره، فقد كان السلام أول ما بدأ به الملك، وهو تمهيد جميل للتعارف، وليأمن النبي (ص) جانب جبريل فيستطيع أن يأتي به إلى مواعده حيث أجرى له تلك العملية الجراحية، فأخرج من بطنه ما شاء الله ما لا نعرف كنهه، كأن النبوة تتوقف على عملية جراحية تطهر الجسد من بعض الأشياء التي لا تتناسب ومقام النبوة، أو لا تتفق مع بعض مقتضياتها، ولا نعرف ما هو السبب لطريقة العنف أن يطلب له أن يكشف عن ظهره ليختم عليه، بدلاً من هذه الطريقة التي أتبعها مع النبي ليقراً حتى أجهش بالبكاء^٩.

وتأتي في النهاية عملية الوزن والمكيال، فلا ندري ما معناه، وهل أن القضية كانت قضية اختبار لمدى نجاح النبي في دعوته، واتباع أمته له.. كأنهما لا يدريان عن ذلك شيئاً إلا إذا بلغ النبي وزناً مخصوصاً، حتى إذا بلغه صاح ميكائيل فرحاً (تبعته أمته ورب الكعبة) كأن الأمر مفاجأة طيبة له.

صورة اللامعقول

ويمضي المؤرخون في قصصهم، ويعرضون لونا آخر من ألوان اختبار خديجة للنبوة، لتعطي للنبي رأيها في ما إذا كان نبياً أو لا، ليعمل بعد ذلك على أساسه. فقد روى ابن الأثير في كامله الرواية الأولى المتقدمة (ج ٢ ص ٤١) وزاد فيه (وقالت خديجة لرسول الله في ما تثبته في ما أكرمه الله به من نبوته يا ابن عم: أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك. قال: نعم. فجاء جبريل فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى فقام فجلس عليها، فقالت: هل تراه، قال: نعم. قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى فجلس عليها، فقالت: هل تراه، قال: نعم، فتحسرت، فالقت خمارها ورسول الله في حجرها، ثم قالت: هل تراه، قال: لا.

قالت: يا ابن عم أن أثبت وأبشر، فوالله إنه ملك وما هو بشيطان) ورواه الطبري في تاريخه وفي الإستيعاب أيضاً.

إن هذا اللون يمثل لنا النبي (ص) في دور الرجل الساذج، الذي لا يعرف ماذا يصنع، ولذا فهو يستسلم لخديجة لتدّكه على الدرب الذي يتعين عليه سلوكه، كأنها تعلم من دلائل الوحي وعلائم النبوة وطبائع الملائكة وعاداتهم ما لا يعلم، ولذا بادرت إلى إخبار النبي بأن ما يأتيه ملك وليس بشيطان، لأنه اختفى عندما حسرت عن رأسها، لأن الملائكة لا تحضر عند كشف المرأة رأسها كما تقول الرواية ..

محاكمة التاريخ بدقة

ولن يقف الأمر بنا عند هذا الحد، في معرفة أوجه الاختراع في هذه القصص، فهناك رواية أخرى تناقض هذه الرواية التي تثبت أن سورة (اقرأ) هي أول ما أنزل، فقد روى البخاري في تفسير سورة المدثر عن أبي سلمة قال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل أول؟ فقال: يا أيها المدثر. فقلت: أنبت أنه ﴿اقرأ باسم ربك الذين خلق﴾^(١) فقال لا أخبرك إلا بما قال رسول الله (ص) قال (ص): كنت في حراء، فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً، وأنزل: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾^(٢) وفي رواية - كما في مجمع البيان - فحييت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت زملوني فصبوا عليّ ماءً بارداً فنزل ﴿يا أيها المدثر﴾.

وما يدرينا لعل هذه الرواية كسابقتها في الاختراع. ونكتفي بنقل كلام الشيخ

(١) سورة العلق: ١.

(٢) سورة المدثر: ١ - ٣.

الطبرسي في مجمع البيان تعليقاً عليها إذ قال - بعد أن نقلها - (وفي هذا ما فيه، لأن الله تعالى لا يوحى إلى الرسول إلا بالبراهين النيرة والآيات البيّنة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواه ولا يفزع ولا يفرق).

تلك هي الألوان التي يرويها المؤرخون لقصة مولد البعثة، وقد عرضناها عليك، لتعرف كيف غزا الإرتباك والوضع والاختراع تاريخنا الإسلامي، وكيف يلزمنا الوقوف طويلاً عند ما ينقله من أحاديث وقضايا قبل أن نصدق منها حرفاً واحداً، ومحاكمة تاريخنا محاكمة دقيقة، لنستطيع جلاء مقوماتنا التاريخية بوضوح واتزان.

* * *

حول دراسة حياة الأئمة من أهل البيت (ع)

ثقل المهمة

إن دراسة حياة الإمام الصادق (ع) والأئمة من أهل البيت (ع) من الأمور، التي نحس ويحس كثير من المسلمين وغيرهم بضرورة العمل على تحقيقها بدقّة ووضوح، لأن لها صلة كبيرة بالجانب العقائدي من حياتنا، وبالجوانب الفكرية والروحية من ثقافتنا وديننا وتاريخنا.

ونستطيع أن ندرك جيداً مدى ضرورة هذه الدراسة، ومدى صلتها بحياتنا إذا لاحظنا: أن الأئمة من أهل البيت (ع) - في ما نراه - يمثلون الإمتداد الرسالي للدعوة الإسلامية، فقد كانت مهمتهم توضيح القضايا الإسلامية التي اعتراها الغموض والإبهام بعد النبي (ص) بسبب الظروف والملابسات الكثيرة التي رافقت الإسلام في تلك الفترات، والقيام بدور الحارس الأمين للقيم والمفاهيم الإسلامية، حذراً من أن تُشوّه أو تحرّف وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية للحاكمين، الذين تحيط بهم فئة من المرتزقة تتملق الحكم في كل نزوة من نزواته وشهوة من شهوته، فتعد لها تفسيراً يتلاءم معها، ومبرراً يستتر فضائحتها، على حساب المفاهيم العامة التي تشوّه وتحرف كما يشاء الحكم، وكما يريد الحاكم.

وهنا نشعر بثقل المهمة الملقاة على عواتقهم وهم يتحدثون عن كل هذه المؤثرات، وكل هذه العقبات، ليوجهوا وليوضحوا وليحدّدوا تلك المفاهيم، فلا يبقى هناك مجال

للتشويه والتحريف. كل ذلك بأساليب عديدة كانت الثورة منها، شاهدناه في نهضة الحسين العظيمة (ع) وكان الدعاء الموجّه من بعضها، كما رأيناه في حياة زين العابدين (ع).

وكان التوجيه والتنقيف والبحث والمناظرة من جماعاتها، كما نقرؤه في حياة الإمام الباقر وولده الصادق وبقية الأئمة (ع)، حسب الظروف الزمنية التي قد تسمح لبعضهم بأكثر مما تسمح به للبعض الآخر.

وقد اجتمع لدينا من ذلك كله ثروة علمية دينية، حصلنا منها على الشيء الكثير في مختلف مجالات الحياة بفضل الدراسة الموضوعية الحرة.

رسالة الأئمة

وكان الخلفاء من بني أمية ومن بني العباس، يتحينون الفرص للوقوف أمام الأئمة، في تأدية رسالتهم، ويتفننون في اختراع أساليب الاضطهاد والتعذيب للأئمة وأصحابهم، حتى كان أهون على الإنسان في بعض تلك الفترات أن يقال له يهودي من أن يقال عنه إنه يتشيع لأهل البيت (ع).

ولماذا كان هذا، مع أن الأئمة (ع) لم يعلنوا الثورة ضد أي شخص من هؤلاء، منذ ثورة الحسين (ع)؟

وان دققنا النظر، لعرفنا أن السبب في ذلك يعود إلى أن الثورة التي حمل الحسين (ع) لواءها، تحولت نتيجة الظروف إلى ثورة فكرية وروحية يقودها الأئمة (عليهم السلام) ضد الظلم والطغيان والتفسخ الديني والخلقي الذي كان يمثلته الكثيرون من هؤلاء.

وتتمثل هذه الثورة في الرسالة التي يحملها الأئمة من أهل البيت. وهي قيامهم بعرض الإسلام للناس بحقيقته وواقعه، بعيداً عن تحريف المحرّفين وتشويه المشوّهين.

الإسلام: الذي يلعن الظلم والظالمين ويصرخ بهم مهدداً ومتوعداً ويدعو إلى محاربتهم ومقاطعتهم ويلعن من يتعاون معهم.

الإسلام: الذي يعتبر الأمة مسؤولة عن تولي الظالمين الحكم، لأنها تقدم لهم الطاعة والمعونة على إدارة شؤون الدولة، مما يسهل لهم مهمة التحكم في رقاب العباد ومقدراتهم. وإلا فما عسى أن يفعل فرد أو جماعة أمام إرادة الملايين من أبناء الأمة، الذين لو قاموا بمقاطعته فقط، فلا يلبث حكمه أن ينهار ويتلاشى، ليفسح في المجال أمام حكم عادل يعمل للمصلحة الإسلامية العليا، قبل كل شيء.

الإسلام: الذي يحدد للحاكمين صلاحياتهم ومسؤولياتهم ويجعل للأمة الرقابة الواعية عليهم، فلا يستطيعون الانحراف عن الطريق المستقيم، وإلا كان لهم بالمرصاد يحاسبهم على ما عملوه من صغيرة وكبيرة.

الإسلام: الذي يقدم العدالة الاجتماعية بأروع صورها للناس متمثلة في مساواة الحاكم للمحكوم أمام القانون العادل.

ومن الطبيعي أن عرض الإسلام بهذه الصورة الوضيئة يتعارض والمصالح الشخصية لأولئك الطغاة، الذين كانت أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم معلقة بكلمة تصدر منهم أو شهوة تعرض لهم، من دون أن يحاذروا رقيباً أو حسيباً بسبب الضغط والإرهاب، بالإضافة إلى ما دفعوا إليه المجتمع الإسلامي من الانحدار الخلقي والروحي والفكري.

لذلك كنا نجد كل فرد منهم، لا يكاد يتولّى الحكم حتى يكون موقفه من الإمام الذي يعاصره أول ما يفكر فيه، وفي الطريقة التي يمكنه أن يقضي على الأصوات الخيرة التي تنطلق من الدعوة الإسلامية الصريحة، وعلى التفكير الثوري الذي كانت تعاليم الأئمة تركّزه في أعماق الأمة.. فكان القتل بالسم وبغيره وكان الإضطهاد وكان التعذيب وكان السجن، وغير ذلك من الأساليب التي تعرّض لها الأئمة من جبابرة زمانهم.

ولكن.. متى كانت هذه الأساليب تقتل فكرة، أو تخنق ثورة؟ ومتى كان الظلم يستطيع أن يحجب الشعاع الخير المنطلق من نفوس المصلحين وعقولهم مهما أثار من الغبار، ومهما حشد من الضباب؟.

أفاق جديدة

وأخيراً، نحن بحاجة ماسة إلى دراسة حياة الأئمة من أهل البيت (ع) وإلى دراسة حياة الإمام الصادق (ع) بوجه خاص، لأن مثل هذه الدراسة تلتقي بأفاق جديدة في العلم والدين والأخلاق والسلوك والنفس والمجتمع، كما أنها تستطيع أن تعطينا حلولاً كثيرة لما نجابه من مشاكل فكرية وروحية وتبعدنا عن جو السطحية والسذاجة اللتين لا نزال نعالج مشاكلنا على أساسهما.

فقد أثير الكثير من هذه المشاكل، في زمن الإمام، وكان الكثير منها يشابه إلى حد بعيد مشاكل عصرنا الحاضر، مع فارق بسيط تفرضه طبيعة اختلاف الزمن.

وكانت المرونة الفكرية والعمق والاستيعاب تتمثل في الحلول التي عالج بها الإمام هذه المشاكل معالجة دقيقة على ضوء الإسلام وهديه.

بقي علينا أن نضع أيدينا على المعين الصافي، الذي انطلق منه الإسلام وعاش فيه، ولن نجد إلا الريّ لظمأ المعرفة، الذي يملأ أرواحنا وأفكارنا، ولن نحصل إلا على الراحة والطمأنينة، والتخلص من القلق النفسي الذي يعصف بحياتنا. وبيعثر خطواتنا في دربنا الطويل والله من وراء القصد.

* * *

حول حديث الإمام الصادق (ع)

في حديثي هذا ونحن نستقبل ذكرى الإمام الصادق (ع)، لا أحاول دراسة المحتوى الفكري والروحي لحديث الإمام (ع) فذلك يحتاج إلى ثقافة موسوعية وجهد جماعي كبير.

ولا أريد أن أدخل في تفاصيل إحصائية عما رواه الرواة عنه (عليه السلام) من حيث الكم والكيف.

وإنما حاولت أن أشير إلى الملابس التي تعرض لها حديث الأئمة (ع) والتشويه الذي حاول الكثيرون، من أعدائهم، أن يلحقوه به.

ومن ذلك أحاول أن أصل إلى البحث في قضية تتصل بأكثر من جانب وبأكثر من أفق، من جوانب وأفاق حياتنا الثقافية والدينية بوجه أخص، تلك هي محاكمة تراثنا ومراقبته في كل ناحية من النواحي، فلا نتساهل في جهة، بحجة اهتمامنا بجهة أخرى.

الينبوع الصافي

وقبل أن ندخل في صميم الموضوع، نجد أن من الإخلاص لحديثنا، أن نرجع

قليلاً لحديث النبي (ص) والملابس التي تعرض لها، فإن ذلك كفيلاً بأن يعطينا صورة واضحة عن تاريخ الوضع وأهدافه، منذ بدء الشريعة الإسلامية، ولا سيما أن حديث الأئمة (ع) يعتبر امتداداً لحديث النبي (ص) ومتفرعاً عنه ومستمداً منه، فإنهم أمناؤه على شريعته وخلفاؤه في أمته، يوضحون للناس دينهم، ويقربونه إليهم بأساليب متعددة، ومهما اختلفت فإنها لن تنفصل عن ينبوع الصافي الذي يتفجر من حديث النبي (ص) وكلامه ولهم من عصمة الله في ما يقولون وفي ما يفعلون، ما يرفع عنهم الخطأ في القول، أو الغفلة في الحكم.

وقد صرّحوا بذلك في ما روي عن الإمام الصادق (ع) حيث قال: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله (ص)، وحديث رسول الله قول الله تعالى»^(١).

وكان أحمد بن حنبل إذا روى عن الإمام موسى بن جعفر قال: حدثني موسى بن جعفر، قال حدثني جعفر، قال حدثني أبي جعفر، حدثني أبي محمد بن علي، حدثني علي بن الحسين، حدثني أبي الحسين بن علي، حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال، قال: رسول الله (ص). ثم قال أحمد: وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق^(٢).

وإذا عرفنا ارتباط حديثهم بالسنة النبوية المطهرة، عرفنا سر التشابه بين ظروف السنة وظروفه، في ما تعرض له كل منهما من وضع وتحريف وتشويه.

أسباب التزوير

وقيمة الحديث أو السنة في حياتنا كبيرة وعظيمة، لأنها تتكفل بشرح المبادئ الإسلامية العامة التي نزل بها القرآن، وتخطيط المفاهيم الواسعة التي أجملها كتاب

(١) البحار، ج ٢، ص ١٧٨، رواية ٢٨، باب ٢٣ (منية المريد).

(٢) البحار، ج ١٠، ص ٣٦٦، رواية ٣، باب ٢٠ (غير معصوم).

الله، لذلك فلن يكون غريباً أن نرى المسلمين يدأبون على حفظه وضبطه ولا سيما بعد اتساع رقعة الدين الجديد، واحتياج الناس إلى مبلّغين ومرشدين، ليعلموهم مبادئ الإسلام وتعاليمه، ولن يكون ذلك إلا عن طريق القرآن والسنة، وهنا بدأ المسلمون يتلمسون قيمة ما يحفظون وما يحدثون.

وكان من بين الداخلين إلى الدين الجديد، من جذبته الرغبة في المغامرات التي بدأ المسلمون يغتنمونها من وراء الفتوحات، ومن كانت الرهبة والخوف من قوة هذا الدين هما الحافز له على الدخول فيه، وقد أندس هؤلاء بين الجماهير الواعية المخلصة، التي دخلت عن وعي وهدي وبصيرة، ليلعبوا ويخربوا ويعملوا على الإساءة إليه بكل ما أوتوا من قوة.

وكان من الطبيعي أن يستغل هؤلاء الراغبون، هذه الأهمية للحديث وهذه الحاجة إليه، فابتدأت الأكاذيب، وابتدأ الوضع ينتشر أمام سمع النبي (ص) وبصره، وإذا بنا نسمع أحكاماً جديدة، ومفاهيم جديدة ما أنزل الله بهامن سلطان، حتى اضطر النبي (ص) إلى أن يتوعد هؤلاء وكل إنسان تُسَوَّل له نفسه الكذب على الله وعلى رسوله بعقاب النار، لأن ذلك يعرض الإسلام ومفاهيمه للإرتباك والإضطراب والتشويه والتحريف، الأمر الذي قد يهيئ لأعدائه فرصة الإجهاز عليه وهو في مهده.

ولبى النبي (ص) نداء ربه، وبدأت أهمية الحديث تزداد، وبدأ المحدثون عن النبي (ص) يتخذون صفة الحفظة للدين، والحاملين له، والحارسين للشريعة، وبدؤوا يجنون ثمار ما حفظوه وما نقلوه، فقد أصبح على القائمين بالأمر حق المشورة في أمور الدين عندما تعرض مشكلة أو تحدث حادثة وليس فيها حكم واضح وصريح.

وتنفّس الوُضَاع الصعداء؛ فقد اتسع لهم المجال بعد أن خفّت رقابة النبي (ص) عليهم، وتسالت الأحاديث المكذوبة إلى الناس وتداولتها الألسن، ولم يمض زمان قليل حتى أصبحت حديثاً يحدث به ليُحفظ ورواية تروى لتُنقل ويعمل بها، كما يعمل

بأيّ حديث صحيح صادر من النبي (ص).

وتوسّع الأمر بعد أن بدأت الفتن الداخلية تغزو حياة المسلمين، وأصبح على الإنتهازيين والوصوليين أن يلفقوا الحديث ويضعوه لتأييد بعض المفلسين الذين ليس لهم سابقة في إيمان ولا جهاد في إسلام، ممن استولوا على مقدرات المسلمين ظلماً وعدواناً كمعاوية وأشباهه.

وكان أن دخلت إلى الحياة الإسلامية طائفة جديدة من الأحاديث ما لبثت أن نشأ عليها الأطفال وشاب عليها الكبار، بسبب السياسة التي اتبعتها السلطة الباغية انذاك في تركيزها في نفوس المسلمين.

ولم تكن الفتن والحروب وما أخذ به المسلمون من أسباب اللهو والترف في حياتهم الجديدة، لتسمح لهم أو لتترك لهم مجالاً لأن يلتفتوا إلى هذا الزيف، فضلاً عن أن يحاولوا فضحه وإنقاذ الإسلام منه. وهكذا اختلط الحابل بالنابل والنجيد بالردىء - كما يقولون - وأصبح تمييز الحديث الصحيح من الفاسد والصادق من الكاذب يحتاج إلى علم وخبرة ودراية ووعي ديني عميق.

جلاء المفاهيم

وبدأ الأئمة يعانون أشد المشاق والعقبات، في سبيل إنقاذ الإسلام من هذه التركة الثقيلة التي خلفتها الأوضاع الشاذة التي قدّمنا الإشارة إليها؛ فقد كانت مهمتهم هي المحافظة على نضاعة الإسلام وإشراقه وجلاء مفاهيمه بوضوح مهما كلفهم الأمر، وكانت الظروف تشتدّ حيناً وتنفّرج أحياناً، وكانت لحظات الإنفراج، أو فتراته، هي المجال الوحيد لنشر توجيهاتهم وبتّ تعاليمهم المقدسة.

وجاء عصر الصادق (ع) في فترة انفراج واسعة نسبياً، بسبب الظروف الذي كان فترة انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين واشتغال كلا الطرفين بشؤونهم وملكه عن الإساءة للإمام أو منعه عن ممارسة نشاطه في الدعوة إلى الحق وتعريف الناس به.

وبدأ الإمام (ع) ثورته التثقيفية بين المسلمين بأساليب متعددة، تختلف حسب اختلاف عقلية السائلين والمجادلين، فقد يكون الجواب إقناعياً حيناً وجدلياً في بعض الأحيان وسخرية واستهزاء في بعض آخر.

وانتشرت أحاديثه انتشاراً هائلاً، وكثر الرواة لها في جميع الطبقات من شيعته وغيرهم، لا سيما وقد أصبح الحديث والرواية علماً مستقلاً بذاته في ذلك الوقت وقد أفرد الحافظ أبو العباس أحمد بن عقدة الكوفي الزيدي كتاباً فيمن روى عنه (ع) جمع فيه أربعة آلاف رجل وذكر مصنفاتهم ولم يذكر جميع من روى عنه. ويقول الحسن بن علي الوشاء - في ما روى عنه (أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد).

وأعطت هذه الثورة ثمارها؛ فقد بدأت المفاهيم الإسلامية تأخذ طريقها إلى الوضوح بسبب ما أثير حولها من جدل وسؤال، وبدأت الحركة العلمية تزدهر وتنمو، وبدأ الجمود الذي سيطر على أذهان المسلمين وتفكيرهم يتلاشى تدريجاً. كل ذلك بفضل الحركة التي أثارها الإمام الصادق في مجتمعه في تلك الفترة الإنتقالية في شتى الجوانب والقضايا في إطار إسلامي رائع.

مواجهة جديدة

ولم يعجب ذوي النفوس المريضة هذا الإشراق الذي بدأت تتجلى فيه المبادئ الإسلامية، وهذا التفكير الجدي المرن الذي بدأ يغزو حياة المسلمين في طريق مستقيم لاحب، ولم يرضَ الحاكمون أن يكون للإمام الصادق (ع)، أو الأئمة بوجه عام، هذه المكانة وهذه المنزلة في نفوس المسلمين، أو يكون لحديثهم هذه المرتبة من القدسية والتقدير؛ ولم يكن في حياة الأئمة أي مغمز أو ملمز أو مجال ينفذون منه إلى أغراضهم وأهدافهم العدوانية تجاههم، إذ ليس في حياتهم ما يؤخذون به أو يُنقدون عليه، لأنها كانت المثال الحي للحياة الإسلامية الناصعة في مثاليتها وروحيتها.

فلم يبق إلا الكذب.. وبدأ الوضّاع يختلقون الأحاديث عنه وينسبونها إليه، مما يتنافى وأصول العقيدة الإسلامية، الأمر الذي سبب ارتباكاً واضطراباً للمخلصين الذي يحاولون المحافظة على قدسية هذا التراث ونصاعته، مما اضطر الإمام الصادق (ع) لأن ينبّه المسلمين إلى خطر هذه الأكاذيب وإلى أن يجعل لهم مقياساً يقيسون به ما يأخذونه عنه وما يدعون. فقد جاءنا الحديث الصحيح عن هشام بن الحكم أن أبا عبد الله الصادق (ع) قال (لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد - لعنه الله - دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا)^(١) وقوله - عليه السلام - لمحمد بن مسلم (ما جاءك من رواية من بر أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك من رواية من بر أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به)^(٢) وفي كثير من الروايات عنه (وما خالف قول ربنا لم نقله، أو زخرف، أو باطل).

وهكذا التقى الأئمة (ع) بجدهم (ص) في مشكلة الكذب والكذابين والوضع والوضاعين، فلم يكن منهم إلا تحذير المسلمين منهم ومن حبائلهم وكيدهم الذي يكيدون به للدين الإسلامي، وإرجاعهم إلى كتاب الله وسنة نبيه فإنهما المقياس الذي تقاس به صحة ما ينسب إليهم وكذبه، لأنهم حفظة الكتاب والسنة والقائمون عليهما، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون حديثهم مخالفاً لهما، بل هو مستمد منهما وراجع إليهما في كل أمر من أمور الكون والحياة.

وماذا بعد ذلك؟

الغام مزروعة

إننا الآن أمام تركة ضخمة من الأحاديث الواردة عن نبيينا (ص) وعن أئمتنا (ع)

(١) البحار، ج ٢، ص ٢٤٩، رواية ٦٢، باب ٢٩.

(٢) البحار، ج ٢، ص ٢٤٤، رواية ٥٠، باب ٢٩.

في شتى القضايا والشؤون الخاصة والعامة، من تقييم لشخصيات إسلامية، أو بيان لأحكام الإسلام وتعاليمه، أو شرح لمفاهيم الإسلام، وموقف المسلم من حياته، وما يعرض فيها من حوادث وقضايا لا بدّ للمسلم أن يحدد موقفه منها وأن يكون له نظرة فيها.

وفي هذه الأحاديث الكثير من الغث والسمين، وفيها الكثير من الكذب والموضوع، فماذا سيكون موقفنا منها؟

هل نقتصر على محاكمة الأحاديث التي تتعلّق بالأحكام الفقهية في الواجبات والمحرمات فنندقق في صحتها من حيث سندها ومحتواها - كما فعلنا -؟ فقد أجهّد الفقهاء رحمهم الله، أنفسهم في تمييز الصحيح من الضعيف من هذه الأحاديث في ما يتعلّق بالأحكام الشرعية وما يحتاج الفقيه إليه في الإستنباط، فأخذوا الصحيح وتركوا الضعيف.

ويعتذر الكثيرون عن ذلك وعن عدم التعرّض لأخبار الفضائل والمناقب والمواظ وغيرها بأن تلك ليست محلّاً لأثر شرعي، فلا مانع من أن تبقى على ما هي عليه من دون تنقيب أو تفتيش.

ولكن يخطئ هؤلاء عندما يظنون هذا الظن أو يزعمون هذا الزعم، فإن قيمة هذه الأحاديث لا تقل عن قيمة الأحاديث التي تتعرّض للحلال والحرام في بعض النواحي، لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بسلوك المسلم وتربيته وتوجيهه في مجاله العائلي والإجتماعي.

فربّ نظرة واحدة مدسوسة في بعض هذه الأحاديث تكون كافية لتهديم مجتمع كامل، لأنها توجه هذا المجتمع إلى وجهة قد يكون نصيبه فيها الهلاك والدمار.

ورب فكرة واحدة تُعرض على أنها فكرة إسلامية خالصة، تكون سبباً لتشويه الإسلام وإظهاره بالمظهر السيئ، في معالجته للمشاكل الحياتية وفي

نظرته للكون والحياة. والإسلام بريء من ذلك كله.

تنقية التراث

وكلمة أخيرة نقولها. إننا بحاجة ماسة إلى تنقية تراثنا الإسلامي الخالد من الطفيليات التي نشأت في أحضان الدس والتحريف، وإلى التشدد في محاكمة هذا التراث في كل ناحية من النواحي، سواء ما يتعلّق منها بالنواحي العقائدية أو العملية أو التربوية وغيرها، نظراً إلى أن التهاون والتساهل في ذلك يعرّض المصلحة الإسلامية العليا للخطر، ويعرّض الإسلام للتشويه، من قبل المغفلين والसानجين والمغرضين، الذين يهتمهم قبل كل شيء أن يضرب الحديث على الوتر الحساس ولا يهم بعد ذلك إن كان الحديث صادقاً أو كاذباً، أو كان مضرراً بالإسلام أو غير مضر.

إن الأئمة (سلام الله عليهم) قد وضعوا لنا مقياساً نقيس به قيمة ما للحديث من صحة من حيث صدوره ومن حيث محتواه، فعلياً أن نراعيه في كل ما نقرؤه ونراه، لنكون قد أدينا رسالتنا كاملة بين هذه التيارات المتضاربة التي تحيط بالإسلام من كل جانب.

مقاييس تنقية التراث

ونود أن نختم حديثنا بتوضيح المقياس الذي وضعه لنا الأئمة (ع)، لتمييز الصحيح من الفاسد والمقبول من المردود من حديثهم وحديث جدهم الأعظم (ص)، ونكتفي بعرض سريع للشروط التي يلزم توفرها في الخبر لكي يكون مقبولاً - فيما إذا كان سنده ظنياً غير قطعي - وهي كما يلي:

١ - أن يكون متفقاً والضرورة العقلية، فإذا اتَّفَق أن جاعنا حديث يصادم الدليل العقلي القطعي، فإننا لا نتوقف عن رفضه وطرحه أو تأويله، إذ لا يمكن بأن يتفوه نبي مرسل أو إمام معصوم بما يصطدم والضرورة العقلية. ومن هنا، التزمنا

بتأويل كثير من الأحاديث والآيات القرآنية التي قد يدعى ظهورها في الجبر والتجسيم أو غير ذلك مما قامت الضرورة العقلية على بطلانه.

٢ - أن يتفق والمحتوى القطعي لكتاب الله وسنة نبيه (ص) أو لا يختلف معه - على الأقل - . أما إذا فقد هذا الشرط فإنه يطرح ويضرب به عرض الجدار أو يلتزم بتأويله - فيما إذا كان هناك مجال للتأويل - وقد تقدم عن الإمام الصادق (ع) ما يدل على ذلك.

٣ - أن يكون الراوي موثقاً به ومأموناً من الخيانة والكذب، أو عدلاً على بعض الأراء، وربما يكفي بعضهم بوثاقة الخبر بدون التفات إلى وثاقة الراوي، فمتى فقد هذا الشرط كان الخبر غير معتبر أياً كان مضمونه ومحتواه.

٤ - أن لا يكون له معارض يكافئه في شروط الصحة ويصادمه في محتواه ومضمونه، وإلا فلا نستطيع قبولهما معاً، لأنه التزام بالمتناقضين أو المتضادين، وهو مما لا يمكن صدوره عن عاقل فضلاً عن النبي (ص) والإمام (ع) ولا نتمكن من الأخذ بأحدهما بعينه، لأنه ترجيح بلا مرجح وهو قبيح وهو بحكم العقل.

٥ - أن يكون له أثر شرعي، فإذا كان الخبر الظني متعلقاً بأمور أخرى بعيدة عن أمور الشريعة، كما في الأخبار المتعلقة بالسما والعالَم وغيرهما فلا يقبل إلا أن يحصل القطع بمضمونه أو بصدوره من جهة أخرى، إذ لا دليل لنا على الإعتناء بالظن في غير الأمور الشرعية.

هذه هي الشروط - التي لا بد من توفرها في الخبر ليكون مقبولاً - نقدّمها لقرائنا الكرام، أملاً في أن تكون باعثاً للكثيرين، ممن يبحثون القضايا الإسلامية ورأي الإسلام في قضايا الحياة، كي يدققوا كثيراً في ما يقرؤونه وفي ما يسمعون من أحاديث منسوبة إلى النبي (ص) أو الأئمة (ع)، قبل أن يكونوا فكرة عن القضايا التي تعالجها هذه الأحاديث أو الأشخاص الذين تتحدث عنهم، وإلا.. فإنهم يسيئون

إلى الروح العلمي المتزن والفكر الإسلامي، وإلى المصلحة الإسلامية العليا، نظراً إلى أن إهمال هذه الناحية الحيوية قد يؤدي إلى تشويه كثير من الآراء الدينية وتحريفها والإساءة إلى فئات إسلامية لها قيمتها ولها وزنها في مجال العلم والدين وبالتالي الإفساح في المجال أمام العدو، ليمارس دوره المفضل في تحطيم قوة المسلمين ووحدتهم كما حدث في الماضي البعيد والقريب.

وأخيراً: لا بد لمن ينسب إلى الإمام الصادق (ع) أو أحد الأئمة (ع) فكرة أو رأياً أن يقف قليلاً ويدقق كثيراً، ليتحقق من صدق الحديث وسلامته قبل أن ينسب الفكرة أو الرأي إلى الإمام (ع)، هذا إذا كان مخلصاً للدين وللфكر الإسلامي المتزن.

نسوق هذا النداء إلى إخواننا الذين يهمهم أمر الوحدة الإسلامية والعزة الإسلامية والمصلحة الإسلامية العليا، والله ولي التوفيق.

* * *

مشاكل إسلامية

من مشاكل الفكر الإسلامي المعاصر

مشكلة الفراغ العقائدي

لندرس مشاكلنا بصراحة

أشواك في الطريق

من مشاكل الفكر الإسلامي المعاصر

التوفيق الضار

يعيش الفكر الإسلامي، في هذه المرحلة من تاريخه، في قلب المعركة - معركة الحق والباطل - بين تيارات شتى من هنا وهناك، وفي مقدمتها التيارات التي نفذت إلى داخله، فبعثت فيه القلق والحيرة والارتباك.

لذلك، فلن يكون غريباً أن يرى المتتبع لقضايا الفكر الإسلامي المعاصر اتجاهات دخيلة على الإسلام، تعيش ضمن نطاق إسلامي يحضنها ويغذيها كنتاج إسلامي خالص.

وكان من أثر ذلك أن تأثرت النظرة إلى الإسلام نفسه بهذا الأسلوب فأصبح الإسلام - في نظر الكثيرين - يمثل الدين الذي يستطيع أن يهضم أي فكرة أو دعوة حديثة، مهما كانت، ويحتضنها بما فيه من طاقة حية للتجديد والاستيعاب، كأنه معرض من معارض الأفكار والآراء من شتى الأصناف والألوان.

وقد راقبت هذه الفكرة لكثير من مفكري المسلمين، فتقبلوها بروح الزهو والفخر لما فيها - حسب مفهومهم - من الدليل على عظمة دينهم وسماحته وسموه.

ومن هنا، فلم يعد من المستغرب أن نرى بعضهم يحاول أن يفرض على الإسلام

لوناً من ألوان الاشتراكية، ونرى بعضاً آخر يحاول أن يوفق بين الماركسية وبينه في بعض الخطوط الاقتصادية فيستفيد من الآية الكريمة: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾^(١) أن الإسلام يرى إشاعة الأرض بين جميع أفراد الإنسان، فليس لأحد حق في تملك قسم من الأرض من دون الآخرين.

وهناك بعض آخر، ممن بهرتهم أضواء الفكر الغربي وحضارته، فودوا أن يوفقوا بين الإسلام وبين ما وضعه الغرب من مفاهيم وقوانين ومناهج في الاقتصاد أو التربية أو الاجتماع أو الحياة بشكل عام. فأنكروا - مثلاً - وجود خطة اقتصادية، أو تنظيم للاقتصاد، في الإسلام، بل كل ما هنالك أنه وضع بعض التشريعات التي تدعو إلى الاحسان بالإضافة إلى بعض الضرائب، التي لا تقوى على أن تكون نواة لنظام اقتصادي فضلاً عن أن تكون هي النظام نفسه.

وإذاً - فلا يمنعنا ديننا - حسب هذا التفكير - من أن نتبنى أي نظام اقتصادي في الحياة.. وعلى هذا الأسلوب من التضليل رأينا الكثير من التصريحات والبيانات التي تقول بعدم المنافاة بين الشيوعية والإسلام، لأن الشيوعية، حسب ما يدعون، لا تمثل إلا نظاماً اقتصادياً بحتاً، وليس في الإسلام ما يعارض ذلك المنهج، لأنه لا يشتمل على خطة اقتصادية معينة، وإذاً، هنا مركز الهدف، فلا مانع من أن يكون الإنسان مسلماً وشیوعياً في آن واحد.

وأقبل الكثيرون من السذج والبسطاء على هذه الفكرة، من دون أن يلتفتوا إلى أخطارها، نظراً لسطحية تفكيرهم وضالته.

وما زلنا نعاني من آثار هذه الفكرة الضالة الشيء الكثير.

درء الخطر

هذه ألوان من أساليب التفكير التي سار عليها الكثيرون ممن يكتبون في الإسلام أو ينطقون باسمه.

(١) سورة الرحمن: ١٠ .

وربما يكون المنشأ لاتباعهم هذا الأسلوب هو غفلتهم وجهلهم بواقع الإسلام وحقيقته، وقد يكون المنشأ تغافلهم عن هذا الواقع وهذه الحقيقة، كمحاولة بارعة لتبرير بعض الأفكار التي يعتنقونها، ويجدون في فرضها على الإسلام طريقاً منتجاً لإشاعتها ونشرها في أوساط المجتمع، لأنها تتصل حينئذ بالحس الديني العميق.

ومهما يكن السبب، في ما دعوا إليه، فإن ذلك لا يغير شيئاً من طبيعة المشكلة التي أصبحنا نعانيها، وهي أن الفكر الإسلامي يعاني ارتباكاً خطيراً في داخله، ويعيش مرحلة خطيرة من مراحل تاريخه.

ولا بد لنا - في سبيل إبعاد مجتمعنا عن أخطار هذه المشكلة - من التوفر على دراسة الإسلام دراسة مستفيضة شاملة، تركز على أسس واقعية على ضوء من نصوص القرآن والسنة الصحيحة، لكي نعرضه ونقدمه للمجتمع بجوهره وحقيقته، في صفاء ونقاء، وفي صراحة عملية لا تعرف اللف والدوران، فننتفادي بذلك مواطن الضعف، التي قد تقتضينا التخلي عن كثير من مفاهيمنا الأصلية، من أجل إرضاء بعض التيارات والاتجاهات التي تعيش في حياتنا الحاضرة، والتملق لها بشتى أنواع الملق على حساب الإسلام، طمعاً في الحصول على صفة «التقدمية».

وأخيراً، إن المشكلة التي نعرضها تعد من أخطر المشاكل الإسلامية التي نعيشها في حياتنا الحاضرة، لأنها تتصل إتصلاً وثيقاً بمفاهيم الإسلام وأسلوبه؛ فإذا أردنا أن نعيشها بصدق وإخلاص فعلينا أن نقوم بتعرية الأساليب التي ساهمت في إيجاد هذه المشكلة، وطبيعة الأشخاص الذين يحاولون أن يعمقوها ويركزوها في مجتمعنا الحاضر، وبالتالي، محاكمة الفكرة نفسها التي تركز عليها هذه المشكلة، بأسلوب علمي رصين بعيد كل البعد عن أساليب التهويل والتشويه.

وكلمة أخرى نقولها بهذه المناسبة: إن بعض الذين يدعون لمثل هذه الأساليب في التفكير يخطئون كثيراً عندما يحاولون تبرير سلوكهم هذا بأنه يساعدهم على تركيز الإسلام في المجتمع، لأنهم يعرضون له بالشكل الذي يلائم ذوقهم وتفكيرهم.

إنهم يخطئون في هذا الزعم، ويخطئون أيضاً إن اعتقدوا أن أحداً من المخلصين للإسلام يتقبل منهم هذا العذر وهذا التبرير. فإن هذا الذي يدعون له، ويصورونه بصورة جذابة، قد يصلح لأن يكون كل شيء، وإن نطلق عليه أي صفة ولكنه لن يكون إسلاماً على أي حال.

الإسلام مكتف بنفسه

إن الإسلام ليس بحاجة إلى أن نستعير له سمات مبادئ أخرى. فهو غني بمفاهيمه وأفكاره.. بخططه وتنظيماته.. بمناهجه العملية في سائر نواحي الحياة، وله لونه الخاص، وأسلوبه المعين في العمل والتفكير.

ولن نحتاج إلى تركيزه في المجتمع الحاضر، إلا إلى عرضه للناس - كما أنزله الله - مجرداً عن أي فكرة دخيلة، أو أي أسلوب آخر من أساليب التفكير.

* * *

مشكلة الفراغ العقائدي:

الأسباب والنتائج

واقع المشكلة

من مشاكلنا الرئيسية، التي نعيشها بمرارة وألم، ونعانيها في وعي وبقظة. مشكلة الفراغ العقائدي.

ونعني بهذا الفراغ الذي يشيع في حياتنا العامة كمسلمين، فراغ الإنسان المسلم من الإيمان بإسلامه كعقيدة تملأ جوانب نفسه وتسيطر على وجوده، ونظام يدفعه إلى العمل والكفاح في سبيل احتلال مركزه القيادي في حياتنا العملية بشتى مراحلها وألوانها.

إنه لا يعي إسلامه إلا على شكل صور مبهمّة مطموسة الألوان، وكليات لا يعرف كيف تطبق، وأين تطبق، وأين تنطبق؟.. الأمر الذي سهل مهمة أعداء الإسلام في الوصول إلى هدفهم في عزل الإسلام عن المركز القيادي في حياة العالم الإنساني، فتمّ لهم ما أرادوا بسبب هذا الفراغ والضياع، اللذين عانتهم الشخصية الإسلامية مدة غير قليلة من الزمن.

تجليات ومظاهر

بدأت الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة تأخذ مكانها من تفكيرنا الحديث كدعوة إصلاحية تقدمية..

وبدأ الكثيرون من شبابنا يعارضون وقوف علماء الدين أمام بعض التيارات الحديثة المادية، بدعوى: أنهم لا يفهمون وجه معارضتها للدين بعد أن كانت تفسح في المجال لحرية العبادة ولا تمنع الإنسان من أن يعتقد بما يريد، في ما بينه وبين نفسه، ما دامت تلك العقيدة لا تمنعه من أن يكون مواظباً صالحاً..

ويضيفون بعد ذلك قولهم: وماذا تريدون غير هذا؟ وهل الدين إلا الصلة الروحية بين الإنسان وربه؟ وأي صلة له بالأنظمة الاقتصادية والاجتماعية الحديثة؟

ثم تطورت المسألة. فبدأننا نسمع الكثيرين - ممن استهوتهم التيارات الحديثة فاندفعوا وراءها بدون وعي - يقولون: ان الإسلام قد مثل دوره التطويري لحياة الإنسان - مشكوراً - في مرحلة من مراحل التاريخ، وانتهى بانتهاء تلك المرحلة، ليفسح في المجال أمام الدعوات الأخرى التي تخضع لمتطلبات التطور أكثر منه بسبب انها عاشت في صميم الواقع.. واقع - المرحلة التاريخية التي عاشها الإنسان بعد ظهور الإسلام - والتي لم يعد الإسلام يستجيب ويقدم الحلول لمشاكلها الكثيرة، نظراً لاتساع تلك المشاكل واختلافها عما كانت عليه في الدور الذي حكم فيه الإسلام.

هذا هو بعض ما يعتبره الكثيرون من شبابنا من «القضايا المسئلة» أو «القضايا التي قياساتها معها» - حسب التعبير المنطقي - بوحى ما درسوه وقرؤوه من الدروس والقراءات، التي أراد لهم المستعمر الكافر أن يدرسوها ويقرؤوها على أساس أنها تمثل الفكر التقدمي المتحرر، الذي يهدم الواقع الفكري المتأخر الذي نعيشه في خمول واستكانة - كما يقول .

وليس ذلك إلا لأنهم لم يكونوا قد عاشوا إسلامهم في وعي، ولا انفتحوا على الحياة التي يحاول الإسلام أن يبينها ويشيدها للإنسان في هذه الدنيا وعلى الحلول التي وضعها الإسلام لمشاكل الإنسان الآنية والمستقبلية، ومدى ما تحمله هذه الحلول من مرونة وواقعية وأصالة.

أسباب ومسؤوليات

أما السؤال الذي يدور في أذهاننا، ويلحُّ علينا فيحاول أن يكشف لنا عن المسؤول عن هذا الفراغ، وما الذي نستطيع صنعه لمجابهته ومجابهة الغزو الفكري أو العقائدي الذي وجد في هذا الفراغ مجالاً رحباً لبث سمومه وأفكاره، فبدأ يدفع كثيراً من شبابنا الطالع إلى أحضانه، ليعتنقوا مبادئه وليسيروا في حياته على ضوء تفكيره.

إننا نعتقد أن المسؤولية في تكوين هذا الفراغ، لا تقع على عاتق فرد أو هيئة خاصة، بل إن هناك عوامل وظروفاً وملابسات كثيرة شاركت في تكوينه، وغذاها أعداء الإسلام.

١ - أسباب سياسية

وفي مقدمة هذه العوامل الشكل الذي عاشه الحكم الإسلامي في بعض مراحل التاريخ، والذي لم يكن يمثل طبيعة الروح الإسلامي النقي في خطواته وأعماله. الأمر الذي جعل الكثيرين يتصورون أن معنى عودة الإسلام إلى الحكم، هو عودة «السلطنة» والطغيان والتأخر والانحطاط.. إلى حياتنا الحاضرة.

ولم يلتفتوا - أو لم يحاولوا ذلك - إلى أن الإسلام لا يتحمل مسؤولية الأعمال التي يقوم بها بعض المنتسبين إليه، ممن لا يلتزم بحدوده وأهدافه.

٢ - أسباب تربوية

ومن العوامل التي شاركت في تكوين هذا الفراغ، فقدان التربية الدينية بالشكل الواقعي للدين.

أما في البيت، فإذا كان الأبوان يشعران بالمسؤولية تجاه ولدهما فلن يلقناه - غالباً - بحكم جهلها بحقيقة الإسلام - إلا الأمور العبادية فحسب. وهذا ما يركز في

نفس الطفل - بطريقة لا شعورية - اقتصار الدين على النواحي العبادية.

وإلى جانب ذلك، نجد الأساليب الخاطئة التي يتبعها كثير من الآباء تجاه أبنائهم في طريقة تعليمهم الدين، مما يخلق في نفوس هؤلاء الأبناء عقدة نفسية تجاه الدين، ربما تؤثر في المستقبل أثرها في حسهم الديني.

أما في المدرسة، ان نظرة واحدة إلى كتب الدروس الدينية تكفينا لنعرف كيف يلقن الطلاب الدين في دور العلم ؛ فليس هو إلا عبارة عن طقوس معينة وأخلاق مثالية. وهذا كل ما في الأمر.

وإلى جانب ذلك، فإن المدرسة تشعر الطالب - بوحى الطريقة التي تتبعها في دروس الدين - بأن هذه الدروس لا تملك من الأهمية، ما لبقية الدروس، الأمر الذي يبعث في نفسه فقدان الاهتمام بالدين، ويضعف الحس الديني في أعماقه، ويبعده تماماً عن المطالعات الدينية، وعن الكتب التي تتحدث عن الدين وعن نظامه، وأسلوبه العملي في الحياة.

٣ - شيوع الانحلال

فإذا تركنا المدرسة إلى الواقع الذي يعيشه الشاب في أفاقه، نجد أمامنا السينما والراديو والتلفزيون والصحف الخليعة، التي تخاطب غرائز الشباب وتدفعهم إلى تقديس تلك الغرائز، مما يساعد كثيراً على إشاعة الروح الانحلالية والتميع في نفوسهم.

٤ - طبيعة الأنظمة الحاكمة

وإذا حاولنا أن نبعد كثيراً، نجد أمامنا الحكم الذي يسيطر على مجتمعاتنا الإسلامية، ويتصرف في مقدراتها بطريقة تتعمد الاساءة إلى القيم والمفاهيم الإسلامية، وتحاول أن تبعد الإسلام عن حياة المسلمين، بما تشرعه من قوانين ونظم تتناقض وصراحة القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

ـ نتائج حتمية

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا الواقع في نفوس الناشئة تأثيراً كبيراً، يشعروهم بأن الإسلام لا يتصل بحياتهم في قليل أو كثير، فإن من العبث أن يشغلوا أنفسهم بمعرفته ودراسته.

وهنا تكون المقاومة مفقودة بفعل هذه الأساليب المسمومة ويتجسم الشعور بالفراغ أمامهم، فهم في حاجة إلى أن يعيشوا حياتهم في اتجاه محدد، وإلى أن يندمجوا في الأجواء المختلفة التي تهيئها لهم الحضارة الحديثة.

وهنا تمتد الأيدي الكثيرة لتتلقف هذه المشاعر القلقة، لتحول هذا القلق إلى اطمئنان للحلول التي تقدمها، والأفكار التي تدعو لها، في الوقت الذي تحولها عن أي حلٍ آخر، أو فكرة أخرى.

وهكذا قدر لها أن تندفع مع التيار بجنون وقوة، وهكذا تبرز النتيجة المفزعة أمامنا عندما تنفض الناشئة أيديها من الدين، بحجة أنه لم يعد يمثل مشكلة في حياتنا الحاضرة، لأنها لا تحتاجه من قريب أو بعيد.

هذه بعض العوامل التي شاركت مشاركة فعالة في تنمية هذا الفراغ وتوسيعه وتعميقه في نفوس الجيل المسلم الحاضر. وقد كان للاستعمار في تكوينها وفي تسهيل مهمتها حصة الأسد.

بقي علينا أن نفكر في الحلول العملية التي تساعدنا على إنقاذ جيلنا الطالع من هذا الفراغ العقائدي المدمر.

* * *

لندرس مشاكلنا.. بصراحة

ما نطلبه - كضرورة لتقدمنا الحياتي - أن نكون صريحين مع أنفسنا، أن تكون الصراحة هي السبيل الذي نجابه به مشاكلنا التي يعيشها واقعنا الديني والاجتماعي والفكري فلا نسلك السبل الملتوية، في بحث هذه المشاكل ولا نتناولها بطريقة اللف والدوران.

فإننا إن فعلنا ذلك فلن نجني إلا التسيب والضياع والبعد عن واقع المشكلة وجوهرها.

انتشار الطفيليات

وهذا ما نحاول أن نتلافاه، وهذا ما نريد أن نتخلص من آثاره وعواقبه. فهناك الكثير الكثير من الطفيليات، التي نشأت في أحضان ظروف معينة نتيجة مؤثرات خاصة، فلم نقتصر فيها على تلك الظروف وعلى تلك المؤثرات؛ وإنما مددناها إلى أبعد مجال من مجالاتنا العملية والعقائدية، حتى أصبحت وكأنها ضرورة من ضرورات واقعنا الحياتي، في الوقت الذي قد تكون خطراً على كياننا وثقافتنا وعقائدنا.

وتوغلت هذه الطفيليات في نفوس السذج من أبناء الأمة، حتى عادت لديهم جزءاً لا يتجزأ من العقيدة وقضية حيوية من قضاياها، الأمر الذي جعل مناقشتها

ومحاكمتها، على أساس منطقي، شيئاً خطراً على الدين والعقيدة في نظرهم. ولذا فهم لا يمتنعون عن أن يلصقوا أية تهمة ظالمة بأي إنسان يحاول أن يسلط الأضواء على مثل هذه الأمور.

وهكذا بدأنا نلمح في حياتنا العامة الكثير الكثير من هذه الطفيليات من دون أن نجرؤ على تحليلها وتناولها بشيء من الدقة والعمق والاتزان. مما أدى إلى أن يعتبرها الكثيرون - إزاء هذا السكوت - جزءاً من عقيدتنا وديننا. فهاجموا هذه العقيدة وهذا الدين على أساس وجود هذه الطفيليات فيه.

وهذا ما نجده في كثير من مؤلفات المستشرقين، وأصحاب العصبية العمياء، ممن قد تمنعهم عصبيتهم وأغراضهم الشخصية من أن يبحثوا ويتعمقوا، لتكون أحكامهم أكثر عمقاً واتزاناً في ميزان البحث والتحليل.

مسؤولية المصلحين

نعرض هذا أمام المصلحين الدينيين الذين يعون دقة المرحلة التي نمر بها، لننبه إلى خطر هذا السكوت وهذا الإهمال على الإسلام؛ نظراً إلى أن بقاء هذه الأمور على قدسيتها في نفوس العامة من الناس، وتأثيرها على مجرى حياتهم العملية، يوجب تشويه الإسلام في النفوس.

كما أن عقدة الخوف من العامة قد تجرنا إلى مزالق خطيرة في ميدان الفكر والعقيدة، لأنها لا تصدر في معارضتها عن وعي واتزان، وإنما تصدر عن عاطفة بدائية، وعن خوفهم من تغيير الحالة التي درجوا عليها، والتفكير الذي عاشوا في أفقه.

وإذا نظرنا إلى التاريخ، وجدنا العامة قد شاركت مشاركة فعالة في عرقلة الكثير من المشاريع الإصلاحية التي قام بها المصلحون الدينيون. فقد وقفت أمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عندما كان يحاول إزالة بعض الزوائد التي علقت

بالإسلام، نتيجة بعض المؤثرات وبعض الظروف ومنعته من تنفيذ خطته الإصلاحية التي لو قدر لها أن تنفذ لوفرت علينا الكثير من الجهد الفكري، الذي لا نزال نبذله في تنقيهِ ما علق بالإسلام وما شاب أحكامه من شوائب.

ولم يكن الوقوف أمام معارضتها - في ذلك الوقت - أمراً عملياً بالنظر لما أحاط به من مشاكل داخلية وخارجية.

في الأيام القريبة الماضية التي مرت بنا تأثر البعض من العامة - بالنظر إلى ضعف تفكيرهم - بدعاية الشيوعية وأحاييلها.. فلم يهضم موقف العلماء من الشيوعية والحكم بكفرها وإلحادها بحجة أن هذا يعتبر تدخلاً في السياسة.

وهذا ما يحظره الدين على العلماء - في نظرهم - ثم يضيفون إلى ذلك أن الشيوعية لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد، ولذا فليس من مهمة العلماء ولا من اختصاصهم الوقوف أمامها أو أمام أي تيار سياسي آخر.

ولولا الجرأة التي تحلى بها علماءنا الأعلام، ولولا الصراحة النقية التي جابهوا بها هذه المشكلة الخطرة، لما وقف هذا التيار عند حدّه، ولما وضحت القضية لهؤلاء السذج بعد ذلك.

وهكذا نرى أن علينا أن نكون صريحين في مجابهة مشاكلنا التي يثيرها ما علق بأذهان العامة من طفيليات وخرافات.

وإلا.. فقد يجيء الوقت الذي لا نستطيع فيه معالجة هذه القضايا، فضلاً عن الوقوف أمامها.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد.

* * *

أشواك في الطريق

الكلمة المضیئة

في كل كلمة قلناها - في هذه الزاوية - كنا نحاول أن نشير وننبه إلى بعض الانحرافات والأخطاء التي تلمحها في مجتمعنا الصاعد.

وكان بودنا أن لا يلون الضباب بعض ملامحها الأصلية، لأن هدفنا هو «الكلمة المضیئة» التي تعيش في صحو مبدع. فلسنا من رواد (الأساليب الضبابية).

وكنا نود أن نقول كلمات وكلمات في ما يتصل بحياتنا وواقعنا من أحداث وملابسات، أن نصرح حيث يجب التصريح، ونومئ حيث يكون الإيماء هو المنتج. فما زالت هناك كلمات لم نقلها، ولا بد أن نقولها، لأنها تمثل جزءاً حياً من رسالتنا الدينية.

كنا نود هذا ونود ذلك، لولا أن هناك بعض العقبات التي تكمن في الطريق، وليس من الصالح لرسالتنا أن نصطدم بها في الوقت الحاضر. فإن ذلك يعوقنا عن عملية البناء التي نحن بصددتها الآن.

بعث الكيان الإسلامي

والآن نحن أمام قضية تتصل بوجودنا - كمسلمين - وهي قضية بعث «الكيان

الإسلامي» من جديد. فإن مما يبعث على الاهتمام الشديد، أن فكرة بعث هذا الكيان من جديد بدأت تتلاشى من نفوس الكثيرين من أبناء أمتنا الإسلامية، وأن الصور القاتمة التي مر بها هذا الكيان في بعض الأدوار المظلمة من تاريخنا، وما أصابها من انحرافات وأخطاء، نتيجة ظروف شاذة، قد شوّهت الصورة الحقيقية له، حتى كأن تلك الانحرافات وتلك الأخطاء، كانت نتيجة انطلاقه في حياتنا العملية، لا نتيجة الظروف الشاذة.

ويعود السبب الرئيسي - في تضخيم الأخطار التي تنشأ من إعادة الكيان الإسلامي الواحد وتشويه صورته في نفوس مجتمعنا الحاضر - إلى المستعمرين الذين تقض مضاجعهم هذه الفكرة وتهدهم بالخطر الأكبر على مصالحهم وأطماعهم. ولذا فهم يحاربونها بكل وسيلة؛ فيحاولون تصويرها كفكرة خيالية غير قابلة للتطبيق من ناحية، وكمحاوله للعودة إلى العهود السود التي عاشها الإنسان في بعض أدوار الخلافة الإسلامية من ناحية أخرى، وكوسيلة من وسائل إثارة النعرات الطائفية - على حد تعبيرهم - من ناحية ثالثة. فإن إعادة مثل هذا الكيان تشكل - في نظرهم - خطراً على مصالح الأقليات غير المسلمة التي تعيش في الوطن الإسلامي، لأنها ستقع تحت رحمة الأكثرية المسلمة واضطهادها.

هذه بعض التعليقات التي يُروَّجُ لها الكثيرون من أبنائنا المستعمرين وعملائهم. وعلى هذا الأسلوب جرى الكثيرون من أبناء أمتنا؛ فلم يعد الإسلام في حياتهم سوى (تاريخ) نعتز به ونفخر، كما تفخر كثير من الأمم والشعوب بالفترات المضيئة من تاريخها، وليس هناك إلا الفخر والاعتزاز.

وإذا أرادوا أن يصلوه بحياتنا، فهو - عندهم - فكرة، مجرد فكرة مثلت حيوية الأمة وأصالتها، ودللت على قابليتها لحمل الرسالات إلى العالم. وإلى جانب ذلك فإنها تستطيع أن تقدم لنا وتعطينا الدروس والعبر في خطوطها العامة.

الدين بين سندان الشرق ومطرقة الغرب

وتبدل الأسلوب من جراء انقسام العالم إلى كتلتين (غربية) و (شرقية) تتصارعان وتتسابقان في سبيل السيطرة على العالم.

ويتمثل، في هذا التسابق، الصراع بين النظامين اللذين يحكمان هاتين الكتلتين، وهما: النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي.

ومن الطبيعي جداً - في هذا اللون من الصراع - أن يستغل كل من الطرفين نقاط الضعف عند الطرف الآخر.

وكانت الحرب على الأديان والدعوة إلى الإلحاد هي نقطة الضعف لدى الجانب الشيوعي. فاستغلها الجانب الغربي بكل قواه. فبدأ العالم الغربي وهو يلبس المسوح، ويرسل دموع التماسيح، حريصاً على الأديان والشرائع السماوية التي ينتهكها الجانب الشيوعي، وانطلق يعقد المؤتمرات المتعددة للدعوة إلى تركيز القيم الروحية ومحاربة الإلحاد في العالم!.

وكان من أبرز هذه المؤتمرات في شرقنا الإسلامي هو المؤتمر المنعقد في (بحمدون) بלבنا، بين جماعات قيل إنها تمثل الطوائف الإسلامية والمسيحية.

وقد نجح إلى حد كبير في خطوته هذه ولكن إلى وقت قصير، انكشفت للعالم فيه ما ينطوي عليه من زيف وخداع ودجل وتضليل، نظراً لما يقوم به هذا الجانب من انتهاك للقيم الروحية والإنسانية ومحاربة لأروع قيمه. فكان مثله مثل الذئب الذي يدعو الحمل إلى السلام، في الوقت الذي يستعد فيه لاقتراحه.

وإذا كان قد فشل في حمل الناس على تصديقه في جدية دعوته للقيم الروحية، فقد نجح - إلى حد بعيد - في طعن الدعوات الإسلامية من الخلف. فإن تبني الدعوة إلى الروح وإلى القيم الروحية، سهل للكثيرين من أعداء الإسلام تشويه الدعوة إلى

الإسلام، واتهامها بالتعاون مع الاستعمار بحجة ان الاستعماريين يتبنون مثل هذه الدعوة.

وأصبح من القضايا التي يُتندر بها، أن يقول قائل: إن أميركا قد أصبحت حامية حمى الأديان في العالم.

وقد لاقى هذا التشويه، وهذا الاتهام القبول والتحمس لدى الكثيرين من السذج والمغفلين، وقد ساعد في رواجها أن بعض المؤسسات التي تحمل اسم الإسلام، وبعض الأشخاص الذين يتظاهرون بالعمل في سبيله يتعاونون مع الاستعمار وعملائه.

ونستطيع التأكيد أن هذا السبب يعتبر من أخطر الأسباب التي عاقت ولا تزال تعيق سير الدعوة إلى الإسلام، لأنه يشكك المسلمين في أهمية الدعوة وإخلاصها وقيمتها بإثارة العوامل الوطنية والتحريرية ضدها في الوقت الذي تبلغ فيه الحماسة لقضية التحرر ذروتها لدى الشعوب الضعيفة والمستعمرة.

مواجهة الخطر

ولا يمكننا القضاء على هذا الخطر إلا بإبعاد العناصر الهزيلة والدخيلة والخائنة، عن ميدان الدعوة والتدقيق في شخصية الدعاة والفحص عن ماضيهم وحاضرهم، قبل أن نتفوه بكلمة تأييد تجاههم بل السير وراءهم في المجال العملي.

وإلى جانب ذلك، فلا يسعنا إغفال أهمية عنصر التوعية الشاملة للمسلمين، بإبراز المصالح الكثيرة التي يجنيها المسلمون من وراء إعادة كيانهم الموحد وفضح الأساليب الملتوية التي ينهجها أعداء الإسلام ضد فكرة الدعوة للإسلام وكشف حقيقتهم وأغراضهم العدوانية تجاه الإسلام والمسلمين، ليفكر المسلمون - بعد ذلك - طويلاً قبل أن يصدقوا حرفاً واحداً مما يقوله هؤلاء الأعداء.

عصر الدعاية الكاذبة

وكلمة مخصصة نوجهها إلى أبناء أمتنا المسلمة، أينما كانوا:

إن العصر الحاضر الذي نعيشه الآن يتميز عن العصور التي سبقتة، بنجاحه في ميدان الدعاية، وفي طغيان الدعاية على جميع مرافقه. حتى صبح لنا أن نطلق عليه اسم (عصر الدعاية) قبل كل شيء.

والدعاية تعتمد على ترويج الاشاعات ونشر الأكاذيب وتشجيع الزيف والخداع والتضليل، وكل أسلوب من الأساليب التي قد تخدم القضية التي يدعى لها، على أساس أن (الغاية تبرر الوسيلة).

وقد سبق أعداء الإسلام في هذا المضمار، فاستحدثوا للدعاية إلى أغراضهم وأهدافهم ومشاريعهم شتى الأساليب الجهنمية.

ومن هنا، كان علينا أن نلتزم جانب الحذر واليقظة إزاء أساليبهم ودعاياتهم، من أجل أن نحتفظ بوحدة شخصيتنا وأصالتها، فلا تذوب أمام شخصية الآخرين من أعداء الإسلام.

ليكن الصراع موضوعياً علمياً

وكلمة أخرى نقولها لأعدائنا الذين لا نزال نخوض معهم معركة العقيدة والحياة:

لكي يكون الصراع الذي نخوضه (موضوعياً) و (عقائدياً) - كما تتشددون - يجب أن نبعد عن مجال المهاترات والالتهامات الكاذبة. أما إذا أردنا الاتهام، فعلينا أن نقدم أمامنا الوثائق التي تدعمه والمستندات التي تؤكد، وتثبت صدقه، وإلا.. فمن السهل على أي إنسان أن يتهم الآخرين بأي شيء، بكل شيء يوحيه خياله، ومن السهل أيضاً أن ينكشف الزيف والخداع والتضليل في مثل هذه الاتهامات، كما انكشف الكثير الكثير منها في أمسنا القريب.

هذه هي بعض القضايا التي نعيشها في واقعنا الحاضر، نعرضها أمام أبناء
أمتنا الإسلامية الخالدة، ليكون موقفهم أكثر عمقاً واتزاناً وأرحب أفقاً وأشد وعياً،
أمام خطوات الأعداء وأساليبهم الشيطانية.

والله سبحانه ولي النصر والتوفيق.

* * *

مع الذكريات الإسلامية

ذكرياتنا الإسلامية وموقفنا منها

ذكرى النبي الأعظم محمد (ص) وما نستفيد منها

لتكن حفلاتنا مدارس تثقيفية

في ذكرى الرسالة والرسول (ص)

في ظلال ذكرى المولد

درس من ذكرى مولد النبي (ص)

نفحة من ذكرى الزهراء (ع)

ذكرياتنا الإسلامية وموقفنا منها

المحنة القاسية

يعيش الإنسان المسلم - في هذه الفترة من حياته - في محنة قاسية، هي محنة ارتباك المفاهيم واضطرابها. فقد عاش مجتمعنا المسلم - في العصور المظلمة من تاريخه - بعيداً عن أصالة مفاهيمه وحيويتها، وما تحمله من حياة وانطلاق؛ نتيجة تجميد تلك المفاهيم، بوحى من التدهور الروحي، والانحطاط الفكري الذي عانت منه تلك العصور، وما بعدها، فخلفت الكثير من الرواسب والتقاليد.

وجاء العصر الحديث.. وانفتح العالم الإسلامي على عصر الآلة، وما يحمله من مفاهيم مختلفة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع.

.. وانطلقت تلك المفاهيم، في حياتنا وتفكيرنا، مجردة من ظروفها وعواملها البيئية والاجتماعية، التي عاشت فيها، وانطلقت منها.

وقد كنا في الوقت ذاته نتهياً لبناء حياتنا على أساس جديد، وبأي ثمن، بوحى من شعورنا بالانحطاط والتخلف عن ركب القافلة البشرية في الميدان الحضاري.

وجرينا وراءها نتمس جوانبها وإحياءاتها في خشوع وتقديس، من دون أن نحاول مناقشتها ودراسة الظروف التي عاشت فيها، لنلاحظ مدى انسجامها مع الظروف الحياتية التي نعيشها ونحياها الآن، ولم يكن ذلك إلا نتيجة طبيعية لضعف الكيان الثقافي عندنا في تلك الفترة، من جراء ابتعادنا عن سير التقدم البشري في ميدان الفكر الحديث.

ثم جرينا شوطاً آخر - في هذا المجال - فحاولنا أن نخضع الإسلام ومفاهيمه، لتلك المفاهيم الحديثة. وبدأت منذ ذلك الحين عملية التشويه والتحريف لكثير من مفاهيمنا الأصلية في ما نشاهده في الكثير من بحوثنا الإسلامية. وكانت النتيجة أن ابتلي الإسلام بقيم ومفاهيم جديدة مشوهة لا تتسجم مع قيمه ومثله.

منطلقات للتثقيف

نقول هذا، ونحن في سبيل البحث عن أفضل السبل التي تكفل لنا التخلص من هذا الواقع، وتفتح لنا المجال لتوضيح المفاهيم الإسلامية الخالصة، وتنقيتها من الشوائب الدخيلة وتركيزها في ذهنية الإنسان المسلم، ليعي إسلامه على ضوء من معرفة وعلم وعمق.

وفي سبيل الوصول إلى ذلك، لا بد لنا من أن نتلمس المجالات العملية للتثقيف الفردي والجماعي، ووضع المناهج والخطوط العامة لذلك، سواء في ذلك المجال التربوي والمجال الاجتماعي.

وربما كان في طليعة الأجواء التي نستطيع استخدامها لهذا الهدف في المجال الاجتماعي، هي الأجواء التي تهيئها المناسبات والذكريات الدينية التي نلاحظ كثرة ما يحتويه الإسلام منها في ميدانه الاجتماعي والروحي، فإن الإسلام غني بذكرياته ومناسباته، بما توحيه حوادثها من عرض للإسلام ولأهدافه البناءة، في صفائه ونقاؤه، كنتيجة لتمثل القيادات الإسلامية الواعية والحركات الإسلامية الثورية والاصلاحية، في مثل هذه المناسبات والذكريات.

ـ التعاطي السطحي عقيم

ولكن هناك بعض الظواهر التي تسود هذه المجالات، تستدعينا الوقوف طويلاً قبل أن نستطيع الاستفادة منها في الأهداف الإسلامية الأصلية..

فمن الملاحظ أن مثل هذه الذكريات والمناسبات لم تعد تشير إلى المعاني العميقة التي تتمثل في وقائعها التاريخية أو في الذات الطيبة الذين يتمثلون فيها، نظراً إلى أنها تجمدت وتحجرت بفعل مرور الزمن، حتى أصبحت مجرد تقليد أجوف من تقاليدنا التي نسير عليها كما نسير على أي تقليد من التقاليد الأخرى التي لا تتصل بالدين من قريب ومن بعيد. ولذا، فلم يعد من المهم لدينا فيها أن تعطي أي معنى من المعاني التي كانت سبباً في انطلاقة هذه الذكرى وخلودها، وإنما المهم أن تبقى وأن تنجح في مظهرها الخارجي، فإذا كانت المناسبة ذكرى مولد لبعض أبطال التاريخ الإسلامي، كان المهم فيها وفي نجاحها، أن تبرز المناطق التي تقام فيها هذه الذكرى في حلة رائعة من الزينة، أما المجالات الفكرية والروحية والعملية لهذا البطل المسلم فلا تتصل بنجاح المناسبة وإخفائها في قليل أو كثير من الناحية الأساسية، ولكنها - ان وجدت - قد تسبغ على المظهر الخارجي لوناً فكرياً أو روحياً، كلون من ألوان تغيير الجوليس إلا.

أما إذا كانت المناسبة ذكرى مأساة من مآسي هذا التاريخ، فالمهم لدينا - لكي تكون ناجحة - هو العمل على إبراز عناصر المأساة بكل لباقة وبراعة وبأي سبيل من السبل التي تؤدي إلى ذلك، فليس المهم هو نوعية هذا السبيل من الناحية الشرعية.. فإذا توفر لدينا مثل هذا الجو وتمت عناصر المأساة واستدرت الدموع، فقد انتهت المهمة، ما دام الأسى والألم والبكاء - بمجرده - غاية بذاته، لا وسيلة لتمثل المدى الذي انطلقت فيه التضحية في سبيل الدين، وللتعبئة الروحية والنفسية ضد الظلم والظالمين والمبدعين والهدامين الذين يحاولون هدم الإسلام مهما كلفهم الأمر.

الابتعاد عن الهدف

تلك هي إحدى الظواهر التي نلمحها في ما نعيشه من هذه الأجواء. ولا ندري إذا كنا على صواب أو على خطأ حينما نقرر أن مثل هذه الظاهرة قد ساعدت أو شاركت - إلى حد ما - في تهيئة الفرصة لأعداء الإسلام التقليديين من الاستعماريين

أو غيرهم من أصحاب الدعوات الضالة في استغلالها إلى أبعد حد، في سبيل أغراضهم وأهدافهم التخريبية، وبذلك استطاعوا أن يحرفوها عن خطها المستقيم، فبدلاً من أن تسير في اتجاه الدعوة إلى القيم الروحية المتمثلة فيها، رأيناها تسير في اتجاه آخر يختلف عن خط الدعوة تمام الاختلاف، فتصبح بوقاً يستغله هؤلاء الأعداء في العمل على تشويه الإسلام وتفتيت قيمه ومثله، ومثاراً للدعوات الدخيلة والمبادئ الكافرة، ومنطلقاً لها تتنفس في أفاقه، وتعيش وتتشعشع في أجوائه.

وقد يبدو غريباً أن يكون لهذه الظاهرة مثل هذا الأثر، وربما يبدو لنا عدم وجود صلة بين هذه الظاهرة وهذا الأثر. ولكن قليلاً من الدقة والعمق، قد يساعدنا على اكتشاف مثل هذه الصلة. فقد لاحظنا جيداً كيف انتهت هذه الأجواء الدينية إلى هذا المنحدر الذي تعيش فيه الآن، وكيف أصبحت مجرد تقليد عادي أجوف لا يستطيع أن يسترجع لنا بعض ملامح الذكرى، فضلاً عن أن يقدم لنا شيئاً من معطياتها وأهدافها. وبذلك فقد عادت شيئاً ميتاً لا حياة فيه، ولا غنى. ولكنها - من زاوية أخرى - تستطيع أن تجمع الناس حولها، وتهيي لهم مجالاً للاجتماع والتجمهر، كما تستطيع التقاليد الأخرى، مع فارق بينهما هو عمق الحافز الذي يتمثل في هذه الأجواء لاتصاله بالحس الديني والعاطفة الروحية، مما لا يوجد في التقاليد غير الدينية.

وهكذا نجد أنها - مع انفصالها عن حيويتها وأصالتها - لا تزال تحتفظ بالعلاقة الدينية؛ ولكنها العلاقة التي ترتبط بالعاطفة الساذجة، وتتصل بالحماسة والاندفاعية العمياء، من دون أن تكون لديها صورة تفصيلية واضحة عما تريد وتحاول. ولذا فهي مستعدة لاستيعاب كل محتوى يحفظ لها هذه العاطفة ويهيئ لها هذه الحماسة، مهما كانت خطوطه الفكرية، ومهما كانت أهدافه العملية، فليس لذلك أي أهمية ما دامت «الشعائر» محفوظة، وما دامت الصور الخارجية بارزة، وليس علينا أن نفتش عما وراء ذلك..

وهنا نستطيع أن نضع أيدينا على بداية هذه الصلة. فقد لمس هؤلاء الأعداء الوتر الحساس، الذي يستطيعون أن يضربوا عليه في سبيل استغلال هذه الأجواء وخداع الجماهير، وعرفوا أن مثل ذلك لن يكلفهم إلا قليلاً من الشكليات الخارجية التي تدخل في نطاق «التكتيك» و«اللف والدوران» الذي يتقنونه جيداً. ولا ضير عليهم في ذلك ما دامت النتيجة مضمونة، فهم يستطيعون أن يركزوا أهدافهم وتعاليمهم في نفوس الجماهير من خلال الحس الديني المرتبط بهذه الذكريات، ما دامت الصبغة العامة دينية، وما دامت الصور الدينية الموجودة لدى الناس مبهمّة مطموسة المعالم والآثار، ولذا فهم لا يستطيعون - مهما دققوا - التمييز بين الصور المزيفة والصور الأصلية.

وهكذا وجدنا «الشيوعية» و«الاشتراكية» وغيرهما، تتخذ طريقها إلى أذهان الناس في مثل هذه الأجواء، عبر غشاء ديني رقيق، يكاد يكشف عما تحته لو أحسن الناظر التحديق بقوة في ما وراء الكلمات والشعارات.

وهكذا استطاعت هذه الصورة المشوهة، لهذه الذكريات أن تهيب، المجال لأعداء الإسلام - في سبيل تهديم الإسلام - بما لا يستطيعون القيام به إلا بجهد كبير.

ولسنا بحاجة - بعد ذلك - إلى كثير من الجهد لنعرف كيف كنا نستطيع أن نتفادى مثل هذا الواقع السيئ لو وعينا قيمة هذه الذكريات وهذه الأهداف، وأحسنّا استثمارها في سبيل توضيح أهدافها ومعانيها، بما لا يدع مجالاً لتضليل المضللين وتشويه المشوهين، ولا يترك فيها أي منفذ ينفذ منه أعداء الإسلام لبث سمومهم ونشر دعاياتهم الكافرة.

بين صورتين

وبعد.. فهذه هي القضية. إن ذكرياتنا ومناسباتنا وشعائرنّا الدينية، بدأت تهرب منا، وبدأنا نجني ثمار هذا الهرب استغلالاً بشعاً لمجالاتنا العملية، وتشويهاً فظيلاً لمفاهيمنا وأهدافنا. فماذا نحن صانعون؟..

لا نريد أن نتظاهر بالسذاجة فندعي سهولة البحث عن حلول لها في ما نصدره من بيانات حماسية، وما نثيره في الناس من «غيرة إسلامية»، فإن التجارب قد علمتنا أن مثل هذه الطرق، أبعد ما تكون عن الحل العملي للمشكلة، أي مشكلة كانت.

وقد ندعي وجود الحل في الاشراف على هذه الذكريات وإحاطتها برقابة صارمة، في سبيل إبعاد العناصر الدخيلة والمشبوهة بشكل جدي عن مجال هذه الشعائر وهذه المناسبات.

ولكن مثل هذا «الحل» يستدعينا البحث في الطرق، التي تكفل لنا مهمة هذا الاشراف وهذه الرقابة، وتيسر لنا سبيل ذلك. وفيما إذا كان ذلك ممكناً في هذه الفترة الحاضرة التي تبللت فيها الذهنية العامة واضطربت حتى لا تقف على فكرة متزنة هادئة.

وقد نجد أن من المفيد لنا - في الطريق إلى الوصول إلى الحل العملي - أن نعمد إلى إقامة نماذج عملية للصورة الوضيئة التي نحاول إبراز الذكرى بها وعرضها أمام الناس بشكل هادئ مريح، إلى جانب الصور القلقة التي نعيشها اليوم، ولا بد لنا - لكي لا تبدو الصورة التي نعرضها غريبة تماماً عن المألوف - لا بد لنا من أن نطعمها ببعض الألوان المعقولة التي تشتمل عليها تلك الصور الشائعة.

ولنا أن نتفاعل فنزعم أن مثل هذه التجربة توصلنا إلى الكثير مما نهدف إليه ونريده من خلال توجيه هذه الذكريات وبنائها على أسس جديدة ثابتة، لأن مثل هذه الطريقة تستطيع أن تفتح أعين الناس على الجانب الإيجابي الخير من هذه الذكريات من دون أن تصدمهم بالخروج عن المألوف، إلا بالمقدار الذي يخرج الصورة الشائعة عن البشاعة والتشويه.

ولنا أن نزداد في التفاؤل، فندعي أن الصور الفنية الهادئة، أقرب إلى نفوس الناس وأرواحهم من الصور المشوشة، ولكن القضية قضية إلفة وعادة وذوق تربي

على مثل هذا اللون. ولذا نجد أن علينا أن نتدرج في سبيل تعريفه على الجو الهادئ البسيط، بدلاً من الجو المضطرب المعقد.

وربما نجد من الخير لنا أن ندلل على التفاؤل الذي ألحنا إليه ببعض الأمثلة التي عشناها في حياتنا القريبة، سواء في مظاهر المشكلة أو في التجارب العملية لحلولها.

ذكرى الإمام الحسين (ع) كنموذج

ولعل أقرب مَثَل نعيشه في حياتنا العامة هو ذكرى الإمام الحسين (ع)، فإنها تقف في الطليعة من الذكريات التي يحتفل بها المسلمون في ألوان اجتماعية مختلفة، فمن مجالس العزاء إلى المواكب الشعبية على اختلاف أنواعها.

فقد عاشت هذه الذكرى العظيمة بعض مظاهر المشكلة الأنفة الذكر من استغلال الأعداء لمفاهيمها ولجالاتها، إلى الفوضى الفكرية التي يعيش فيها القائمون على إحياء هذه الذكرى على «المنبر الحسيني» إلى «الأمية الثقافية» التي يتخبط فيها الكثيرون من الحُفَاط الذين يمثلون البيغاوات تماماً في ما يحفظون وفي ما ينشدون، إلى غير ذلك من المظاهر التي تتمثل فيها هذه الذكرى.

وقد تعرضت بعض هذه المظاهر لهزات فكرية واجتماعية وانطلق الصراع فيها تتمثل في شتى الأساليب المألوفة، الفكرية منها والغوغائية. وهدأت الضجة بعد ذلك، وبدأ العاملون في سبيل الله يعملون بصمت بعيداً عن الضوضاء والغوغاء. وإذا بنا نشاهد جيلاً من خطباء ينشأ فيحاول أن يجعل من هذه الذكرى أداة نافعة من أدوات التوجيه والاصلاح والدعوة إلى سبيل الله، لا مجرد عرض ساذج للنساء بشكلها الحرفي، وبدأنا نشاهد المظاهر العامة للاحتفال بهذه الذكرى تتبلور، لتربط بينها وبين حاضرننا. في سلسلة الأهداف الكبيرة التي تمثل في الإسلام. وهكذا بدأت الذهنية العامة تتبلور تجاه هذه الذكرى، حتى انتهى الأمر إلى اضطرار

القائمين على هذه الذكرى على الصورة السابقة، لأن يطعموها بالألوان التي تساعد على الاستجابة لمتطلبات الجمهور في سبيل الاحتفاظ بمراكزهم من هذه الذكريات.

وهكذا ربح المسلمون - بفضل هذه الهزات - مجالاً جديداً للدعوة الإسلامية ومؤتمراً دائماً من أعظم المؤتمرات العالمية، بعد أن كان هذا المجال مرتعاً للأسى والبكاء فحسب. ولسنا ندعي أن المشكلة قد انحلت، فلا تزال ذكرى الإمام الحسين (ع) تلتقي في داخلها بمشاكل عديدة، ولكننا نحاول أن نضرب مثلاً على أن التجربة السابقة قد ساعدت على حل بعض جوانب المشكلة.

وهكذا نجد أننا نستطيع القيام بمثل هذه التجربة وينظائرهما في مجالات أخرى.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾^(١).

* * *

(١) سورة التوبة: ١٠٥.

ذكرى النبي الأعظم (ص)

وما نستفيد منها

دروس للاعتبار

في ذكرى النبي الأعظم «محمد بن عبد الله» (ص).. في كل ذكرى نستعيدها من حياته، في مولده ومبعثه، في هجرته ووفاته. في كل كلمة قالها، لينير الدرب لنا نحو مستقبل قوي زاهر، في كل خطوة خطاها ليعبّد لنا طريق العزة والكرامة.. في كل جهاد خاضه في سبيل تركيز قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الله.

في كل ذلك.. وفي غيره مما يتصل بحياته.. مجالات واسعة للعبارة والدرس، لو أحسنّا درسها والاعتبار بها.

ومن الواضح ان ذكره (ص) تختلف عن أي ذكرى إسلامية أخرى، في معطياتها ودروسها وحيويتها، لأنها تمثل الشخصية المقدسة للمسلم الأول، الذي اكتشف القمة وقادنا إليها؛ ووعى الحقيقة الأولى ودلّنا عليها، وعرف سحر الكلمة الطيبة الحانية الهادفة لخير الإنسان، فكانت الكلمة رسالة السماء إلى الأرض، وكان القرآن كلمة الله وكتابه الخالد ودستور البشرية المعجز.

وفي ذكره (ص) نعيش التجربة الأساسية الأولى للدعوة إلى الله، ونتلمس - بوضوح - الأسس التي ارتكزت عليها، والأساليب التي جرت فيها، وكيف كان

لصمود المسلمين الأولين وقوتهم الروحية وتضحياتهم في سبيل الله، واستهانتهم بالقوى الباغية الظالمة، التي كانت تضطهدهم وتضطهد عقيدتهم، وارتفاعهم عنها في عظمة وجلال. وكانت شخصية النبي (ص) معهم في كل ذلك، فهي الروح التي ترف على التجربة لئلا تنحرف عن طريقها الصحيح، والقوة التي تستند إليها الاسس لئلا تنهار، والخلق العظيم الذي بعث في الأساليب خفقة قلبه ورقة روحه، لئلا تتلون بغير اللون الذي أراده الله لها.

وهي بعد ذلك كله القيادة الواعية التي تقود القافلة إلى شاطئ الكرامة والحياة المطمئنة الرضية.

كل هذه الصور، وكل هذه المشاعر تمر بنا، ونحن نعيش ذكرى النبي (ص)، ونستروح ظلالها.

وفي ذكرى المولد - بالأخص - تتمثل في أعماقنا اللحظات السعيدة التي عاشتها الحياة - آنذاك - لتستقبل الأمل النير بوليدها العظيم الأمل في أن تحيا في ظل واقع جديد، تهيمن عليه قوى الخير لتوجهه نحو الطمأنينة والسلام، بعد أن عاشت حياة جاهلية مظلمة، تسيطر عليها البهيمية والوحشية من كل جانب ومكان.

مشاكل متنوعة

واليوم، ونحن نستقبل هذه الذكرى المقدسة لنعيش احياءاتها وأهدافها، نواجه كثيراً من الظروف والمشاكل التي رافق كثير منها بدء الدعوة الإسلامية وعاشها المسلمون الأولون، فهناك المشاكل العقائدية، سواء في ذلك التي انطلقت من داخل الحياة الإسلامية، فخلفت وراءها الكثير من المذاهب والطوائف الإسلامية، أو التي انطلقت من واقع الحضارة الغربية ومفاهيمها وفلسفتها الروحية الاصلية.

وهناك المشاكل الاجتماعية التي غزت حياتنا فلونّت جوانبها بألوان بعيدة كل البعد عن تاريخها وعقيدتها. وهنا كانت الانحلالية والفوضوية والتهرب من

المسؤولية وغيرها، سمة واضحة من سمات كثير من المجتمعات التي تعيش في بلاد الإسلام، مما جعل النظرة العامة التي تؤخذ عن واقع المسلمين، تمثل التأخر والانحطاط في المجال الحضاري والاجتماعي.

وهناك - إلى جانب ذلك - المشكلة السياسية، التي نشأت عن ضعف المسلمين وتأخرهم وانحطاطهم وضيق الكيان الواحد، الأمر الذي أدى إلى سيطرة الكافر المستعمر على بلادهم وعلى مقدراتها، حتى باتت المشاكل الاقتصادية والثقافية وغيرها أمراً طبيعياً مألوفاً في هذه البلاد.

تلك هي المشاكل والظروف التي نواجهها - ونحن نستقبل هذه الذكرى - فما الذي نستفيد منه؟

تمثل الدروس

ربما نستطيع - في جوانب هذا التساؤل - أن نتمثل بعض الدروس التي تمثلت في حياة المسلمين الأولين، فقد كانت تواجههم مشاكل كثيرة، في مستوى المشاكل التي نعيشها، وان اختلفت عنها في اللون والاسلوب نتيجة اختلاف الزمن.

١ - المعالجة الإيجابية

أما موقفهم منها، فقد كان يتمثل في الارتفاع إلى مستوى تلك المشاكل ومعالجتها بإيجابية بناءة، وصراحة قوية.

أما التهرب من مواجهة المشكلة.. أما الاكتفاء بالخروج عن العهدة وإسقاط الواجب من دون محاولة الوصول إلى حل.. أما ذلك، فلم نلمح له أثراً في حياتهم النضالية الطويلة.

٢ - التعاطي الرسالي

وإذا أردنا أن نبحث عن سبب ذلك، نجد أن العقيدة التي يحملونها في أرواحهم،

ويعيشونها في وجداناتهم، لم تكن تعني - بالنسبة إليهم - قضية ذاتية يحيونها في داخل ذواتهم، ويمارسون وظائفها العملية في حياتهم الخارجية ثم ينطلقون بعد ذلك إلى حياتهم العادية يعيشونها في هدوء واطمئنان من دون أن يخلفوا وراءهم ما يثقل ضمائرهم أو حياتهم، أو يقدموا أمامهم ما يحفزهم للجهد والعمل.

إنها لم تكن تعني ذلك في حياتهم، وإنما كانت تعني قضية رسالة، عاشوا في أعماق أنفسهم حيويتها، وتنفسوا في أفاقها الروحية روحيتها، ولسوا بذهنيتهم الخصبية وتجاربهم السليمة ما تستطيع أن تقدمه للعالم من حلول لمشاكله الكثيرة، فأمنوا بها وحملوها إلى العالم رسالة هدى ونور.

ومتى استطاعت العقيدة أن تتحول إلى رسالة في ضمير الإنسان، فمعنى ذلك أنها بدأت تنطلق من النطاق الذاتي الضيق، إلى النطاق الحياتي الواسع، لأنها تتحول إلى قوة فاعلة تتحرك في داخل الإنسان لتحرك الحياة من حوله في عملية تجديد وبناء، وبالتالي لتجعل حياة هذا الإنسان تجسيدا حيا للعقيدة، وصورة حية لفاعليتها وإيجابيتها.

وهكذا اكتشف المسلمون الأولون في عقيدتهم - التي اعتنقوها بوحى الفطرة الهادية التي أيقظها النبي في نفوسهم، فبدد عنها ضباب العصور المظلمة - أنها ليست مجرد عقيدة توحىها الفطرة ويهدي إليها الوجدان. وإنما هي رسالة شاملة تنظم علاقات الإنسان بالله وبالمجتمع وبالحياة بشكل عام.

وهكذا اكتشفوا أنهم أصحاب رسالة. وليسوا مجرد أتباع عقيدة، فارتفعوا إلى مستواها. فكانت التضحية التي لا تقف عند حد، وإنما تبذل وتبذل حتى لا يبقى بعد ذلك مجال للبذل ولا موضع للفداء، وكان الجهاد الصامد الذي يندفع لبناء كيان الإنسان الخير في الأرض، بدلاً من الإنسان الشرير، ولذا فهو لا يستهدف قتل الإنسان الكافر وإنما يحاول تحطيم فكرة الشر في نفوسهم، وكانت الانطلاقة الروحية التي تتسامح وتتسامح، حتى لا يبقى هناك منطلق للتسامح ولا مورد

للتساهل، وكانت الروح الكبيرة الواسعة، التي تواجه العالم وتتحدى قسوته وعنفه وظلامه بروحية حرة قوية متسامحة، لا تأخذ عليه قسوته عليها لأنها تدرك جهله لرسالتها، ومدى مسؤوليتها تجاه إنقاذه من جهله، وتدرك - إلى جانب ذلك - مدى ما يفعله الجهل ويصنعه بأصحابه، ولا تحقد عليه لأنها تحس بعمق الظلمة التي يتخبط بها.

وهكذا استطاعوا أن يقفوا أمام العالم بقوة لا حد لها فتحدوا أصنامهم وأعرافهم وتقاليدهم السخيفة وخرافاتهم وأساطيرهم العمياء وظلماته الروحية والفكرية، بفضل الروح الرسالية الحرة التي اكتشفوها في أنفسهم.

وبين هذه القوة التي لا تقف عند حد، وبين هذه الصفات التي تشيع في أجواء الصراع ومجالاته روح الطمأنينة والطهر والصفاء، برزت رسالة الإسلام - في برهة وجيزة - كأقوى ما تكون الرسالات، حانية كأحنى ما تكون الحياة.

بين عصرين

ذلك هو ما نفهمه الآن من السبب الذي جعل المسلمين الأولين يقفون ذلك الموقف ويرتفعون ذلك الارتفاع.

فما هو موقفنا منه؟

إنه - بالطبع - لن يكون موقف اللامبالاة والسلبية العملية، لأن مثل هذا الموقف لا ينطلق من مجتمع يحاول أن يعي قضيته، ويرسم طريقه على هدى هذا الوعي، ولا يتمثل في وجدان الأمة التي تعيش مشاكلها الكثيرة بعمق، وتبحث عن حلولها.

لن يكون الموقف ذلك، لأننا لا نزال نعيش القلق ونتغذى به في عملية استثارة وتوعية. والقلق عامل نفسي يترصد اللحمة من النور ليختطفها والهمسة من الحق ليلتقطها. إنه يبحث ويفتش عن الحل، ولذا فهو يستوعب، في ذاته، كل محاولة للوصول إليه ليبدأ بعد ذلك عملية الاختبار والاختيار..

إننا لا نزال نعيش القلق؛ القلق من واقعنا ومصيرنا، ومصير الإسلام في هذا العصر الذي يملك أعداؤنا فيه كل مقومات القوة المادية، بينما تحتشد في كيائنا كل إمكانيات الضعف المادي - ان صح أن للضعف امكانيات - .. ولكن لن يكون التمزق والتردي في هذه اليأس والقنوط هو حصيلتنا من هذا القلق، فقد قدمنا اننا نعيش القلق ونتغذى به في عملية استثارة وتوعية. وما دام الأمر كذلك، فسيبقى في محاولة دائمة متصلة للوصول إلى الحل.

وهنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع تجربة المسلمين الأولين في دعوتهم إلى الإسلام، فإن القضية هي القضية، وبذلك يكون الموقف هو الموقف، فقد نلاحظ، في ما يبدو لنا، وجود التقاء كبير بين طبيعة الفترة التي عاشها المسلمون في بداية الدعوة، وبين طبيعة هذه الفترة التي نعيشها الآن. فقد كان الإنسان يعيش في تيه من العقائد والخرافات والأساطير والأوهام، اختلط فيه الحق بالباطل، والعقيدة بالخرافة، والحقيقة بالأسطورة، واليقين بالوهم؛ ومن هنا كانت الحياة التي يعيشها صورةً لهذا التيه ولهذه الحياة التي يتخبط فيها، فلا دليل يأخذ بيده إلى الطريق الواضح والصراط المستقيم، ولا هدى يهتدي به إلى الحقيقة الأصلية العارية، ولا نور يستنير به في هذا التيه المظلم، وهكذا يعيش الإنسان في عصرنا هذا - مع الاحتفاظ بالفارق بين طبيعة العصرين - يعيش القلق والتمزق والحيرة والتيه بين هذا الركam الهائل من اتجاهاته المتضاربة، وتياراته المختلفة، وعقائده المتباينة التي يختلط فيها الحق بالصراع، والقوة بالفكر، فلا يهتدي إلى روحية تبعث في نفسه روح الطمأنينة، ولا يستكين إلى مادية تثير في نفسه عاصفة الرغبة.

وهكذا تلتقي الفترتان في حاجتهما إلى الإسلام، وهكذا تلتقي بالمسلمين الأولين في اصالة التجربة التي عاشوها وعمقها، للوقوف - كما وقفوا - أمام هذه القوى الهائلة التي تواجهنا في طريق الدعوة، مع ضعف في القوى وقوة في الإيمان.

وحي القضية

ولكن، كيف نلتقي بتجربتهم في حياتنا الحاضرة؟

فلم تكن تجربتهم نابعة من خطة خارجية سلوكها في طريق الدعوة، بل كانت نابعة من معاناتهم لعقيدتهم وشعورهم بها كرسالة، لا كقضية ذاتية، وإيمانهم بضرورة إخضاع الحياة لهذه الرسالة بقوة ورحمة، كما قدمنا في صدر الحديث.

ومن الطبيعي أن لا نستطيع تعلم هذه التجربة أو استعارتها، لأنها تنبع من داخل الإنسان، لتجري في خارج وجوده.

ولكننا نستطيع أن نعيشها إذا وعينا قضية جيلنا الذي نعاصره ومسؤوليتنا تجاهه، وقضية الإسلام في الحياة، وما يستطيع أن يقدمه لهذا الجيل والأجيال الأخرى من حلول عملية لمشاكله، وعرفنا كيف نستثير هذا الوعي ونغذيه.

إن تحقق مثل هذا الوعي للقضية، ومثل هذه المعرفة لوسائل إثارته، يضع أقدامنا على أول طريق النصر، لأنه يفتح أعيننا على واقع التجربة الرسالية التي عاشها أولئك المسلمون، وبذلك نستطيع أن نسير في الطريق التي ساروا عليها، لنحصل على النتيجة التي حصلوا عليها بإذن الله.

المستوى المطلوب

تلك هي بعض الدروس التي نستطيع أن نستفيد منها من ذكرى النبي (ص) لنربط حاضرننا بماضينا، ونحاول أن نصوغ مستقبلنا بوعي من هذا الارتباط، وندخل الحياة بروح إيجابية بناءة، وندع النظرة السلبية الكسلى التي يهملها أن تلقي العبء عن عاتقها أكثر مما يهملها أن تصل إلى الهدف المنشود.

وبهذا يمكننا أن نلحق بالأحداث العالمية التي سبقتنا، ونعيش في مستواها لنعمل من ذلك المستوى، فإن الإنسان الذي لا يعيش هذه الروح الإيجابية التي تحمل

عبء الرسائل، لن يستطيع أن يتابع إلى ذلك المستوى بطبيعة الحال.

وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذه الذكرى ونجعل منها أداة للنفع والعطاء وإشاعة المعاني الخيرة، بدلاً من أن تكون أداة للهو والعبث، وإشاعة المعاني الانهزامية الخائرة، فتتحول بذلك من مجال الاستغلال البشع من قبل أعداء الإسلام، إلى مجال حي نافع للدعوة الإسلامية والعمل الخير في سبيل الله.

والله سبحانه من وراء القصد.

* * *

لتكن حفلاتنا مدارس تثقيفية

نجاحات شكلية

يستقبل المسلمون - بعد أيام قلائل - ذكرى الإمام علي عليه السلام - في عيد مولده المبارك.

وإننا نتساءل ونحن نستقبل هذا العيد، والاستعدادات لا تزال متواصلة لإقامة معالم الزينة والفرح احتفاءً بهذا العيد الحبيب، إننا نتساءل عما وعيناه من هذه الذكرى، ومن كل ذكرى من ذكريات أبطال التاريخ الإسلامي؟ وما إذا أخذنا منها من دورس وعبر وحلول لمشاكلنا الكثيرة، التي لا تزال تتخطب فيها من دون أن نصل إلى حل، نتيجة فقداننا الدراسة الواعية المخلصة للمراحل الحاسمة التي عاشها المجتمع الإسلامي، في ما سبق، والتي تتصل مشاكلنا الحاضرة - الفكرية والاجتماعية - بجذور قوية فيها، وإن كانت تختلف عنها بما يقتضيه واقع الزمن؟

إن الجواب عن هذا التساؤل سيكون محصولاً هائلاً، وأكادساً متراكمة من الانتاج الشعري والنثري الذي ألقى في هذه المهرجانات، وكله تمجيد وتقديس لعظمة الذكرى وعظمة صاحبها.

وإذا قُدرَ لنا أن نتساءل ثانية عن المحتوى الفكري لهذا النتاج وهل استطاع أن يضع أيدينا على سر عظمة الإمام؟ وعن المرحلة التي عاشها، وتحليل ظروفها وملابساتها على أساس علمي دقيق، بما يمكننا الاستفادة منه في واقعنا الحاضر، فهل نحظى بجواب إيجابي لهذا التساؤل؟

لو استعرضنا هذه المهرجانات التي لا تزال نبذل من أجلها الكثير من الأموال والجهود في سبيل إنجاحها وإبرازها بالشكل الذي يناسب عظمة صاحب الذكرى. واستعرضنا النتاج الأدبي الذي تشتمل عليه، لرأيناها ناجحة تماماً من الناحية الفنية والشكلية، ولكننا لا نلمح فيها نجاحاً من الناحية العملية، ومن زاوية الهدف الذي يقصد من وراء إقامة هذه المهرجانات.

فالمقياس في القصيدة الناجحة أن تنال التصفيق الحاد المتواصل، وأن تضرب على الوتر الحساس للجماهير، بأن يقال لهم ما يريدون أن يقال، لا ما ينبغي أن يقال. وعلى هذا الأساس، فحسب الحفل الناجح أن يكثر فيه التصفيق، وأن تلقى فيه القصائد الرنانة والكلمات الطنانة ولا شيء بعد ذلك غير الرنين والطنين، وبذلك لن يقدر لنا أن نستفيد من مهرجاناتنا وحفلاتنا في ما يلزمنا أن نستفيدة في ديننا ودينانا.

ربط الماضي بالحاضر

إننا بحاجة إلى أن نقوم بعمل جريء في تبديل المحتوى الفكري لحفلاتنا الدينية التي تعقد احتفاءً بذكرى أبطالنا، أبطال الإسلام الذين صنعوا لنا التاريخ العظيم وشقوا لنا الطريق، لنضع نحن من جديد تاريخ الإنسانية، ولنبنّي صرح الحضارة التي انطلقت بالأمس منّا هادرة، فانطلقت معها دنيا العلوم والمعارف والاختراع. ولكنها اليوم بحاجة إلى الدم الجديد، الدم الذي يعيد إليها حيويتها بعد أن لوّثها أعداء الإنسان. إنها بحاجة إلى روحية الإسلام وحيويته لتجنب العالم ويلات الحرب، حرب الإبادة والدمار، وتقوده إلى حيث الطمأنينة والسلام.

إن الاحتفال بذكرى هؤلاء الأبطال، هو بعث لتاريخهم من جديد، وتفجير للقوى الروحية والفكرية الكامنة في آثارهم وسيرهم، في سبيل ربط الماضي بالحاضر، في وحدة روحية وثقافية مبدعة.

فهل حققنا هذا الهدف من وراء الاحتفال بهذه الذكريات؟ أم أننا لا نزال نتخبط في دياجير الواقع الحالك من دون أن نتقدم خطوة واحدة نحو النور؟ وماذا حققنا؟ هل استطعنا أن نحفظ هذه المواسم من أن تستغل من قبل أعداء الإسلام فيخدع بها السذج من المسلمين نتيجة عدم وضوح المفاهيم التي تقوم عليها هذه الذكريات في نفوسهم؟

إننا لا نقصد من وراء هذه الكلمة الهدم، وإنما نريد البناء، إننا نريد أن نعيش هذا العيد في حاضره بعمق الفكرة التي نأخذها منه، وبوحي المثل التي يهبنا إياها، نريد أن نعيشه حياتنا بوعي - كما تعيش التجربة الحية الناضجة، لنستهدي في ما يوحيه وفي ما يعطيه. فما زلنا بحاجة ماسة إلى معطيات تاريخنا وأبطالنا، ما دام هذا التاريخ وهؤلاء الأبطال المرآة الصافية التي تتمثل فيها عظمة الإسلام ونقاؤه.

إننا نود أن نبحت في هذا العيد عن التجربة العملية الواعية للإسلام التي عاشها المسلمون في عهد الإمام، ووعوا إنسانيتها ووعوها لواقع الإنسان الروحي والمعاشي التجربة التي نريد أن نعيش فيها فكرة، أن نفتش عن حياة، عن طريق للحياة.

وكلمة أخيرة، نوجهها للقائمين على الحفلات الدينية ممن يعون المرحلة التاريخية التي نمر بها - كمسلمين - إننا نريد أن تكون حفلاتنا مدارس تثقيفية لشعبنا المسلم، ليعي فيها إسلامه بعمق، لتنقذه من سطحية فهمه لإسلامه ولموقف إسلامه من الحياة، حذراً من أن تستغل هذه السطحية - كما استغلت - من قبل أعداء الإسلام في إبعاد المسلمين عن إسلامهم.

إنها مسؤولية ولكنها لن تثقل على نفوس المخلصين.

* * *

ذكرى الرسالة والرسول (ص)

مدرسة محمد (ص)

لماذا نحن هنا؟

وكيف نحتفل بذكرى النبي الأعظم محمد بن عبد الله (ص)؟

لسنا هنا لنجعل من هذه الذكرى وسيلة للهدم أو للفوضى أو للعب بالنار.

إننا هنا من أجل أن نعيش حياتنا في ظلال محمد (ص)، ونبدأ خطواتنا في دروب محمد (ص)، ونتجه بقلوبنا وأرواحنا في اتجاه رسالته وتعاليمه.

نحن هنا لتتعلم ونعي ونقرأ.

لنتعلم كيف نصنع السلام في عالم تسيطر عليه نوازع الدمار، وكيف ننشر المحبة في حياة تثور فيها عوامل الحقد، وكيف نبعث التعاون في كون يسير نحو التفكك والانحلال.

لنعي قصة العلم كيف يرتفع بالبشرية نحو القمة ويلون حياتها بالطمأنينة إذا انطلق في اتجاه الله.

لنتعرف كيف تستطيع العقيدة أن ترتفع بروح الإنسان وتسمو بوجوده حتى يبلغ

ذروة التضحية والفداء، وكيف تندمج الدنيا والآخرة في إرادة واحدة وعمل واحد وعقيدة واحدة، من دون تناقض وتنافر، بل هو الانسجام الكامل في شتى الميادين.

نحن هنا لتتعلم في مدرسة محمد كل هذا، ولنقرأ في قرانه كل خطوطه وتعاليمه.

وأخيراً، إننا هنا لنعيش في مستوى شخصية محمد (ص) وفي روعة رسالته وفي عظمة أهدافه، لأننا بحاجة إلى هذا كله من أجل إنقاذ الإنسان من واقعه السيئ، في قيمه ومثله، في أهدافه ووسائله، في حربه وسلمه، في ضعفه وقوته، في جحوده وإيمانه.

هذا الإنسان الذي يعيش القلق والحيرة والضياع، في كل مجال من مجالاته، في عالم تحجرت فيه العاطفة، وتجمدت في داخله الحياة.

هذا الإنسان الذي أضاع ذاته عندما فقد إيمانه، وأضاع حياته عندما فقد صلته بالله.

إننا بحاجة إلى هذه الذكرى من أجل هذا الإنسان. من أجل أن نجد في حياة النبي (ص) الروح التي تحنو على حياته فتريحها من متاعبه، والوحي الذي يأخذ بعقله وفكره وضميره لينقذه من مشاكله ويضع يديه على الحل الصحيح لقضاياها.

نحن مع هذه الذكرى على موعد لنبحث عن الواحة التي يستريح إليها إنساننا - إنسان القرن العشرين - في صحراء حياته المجذبة القلقة الخالية من الروح، واحة الإيمان بالله، بالقيم الروحية التي تنطلق من روح الله.

هذا الإيمان الذي يعيد للنفس ثقتها بالحياة من خلال ثقتها بالله، ويجدد في حياتها روح القوة والتفاؤل والعزيمة من خلال اتصالها بالله، ويوجهها نحو مستقبل مشرق واضح الأهداف والمعالم من خلال انطلاقها مع رسالة الله.

نحن مع هذه الذكرى على موعد لنبحث عن كل ذلك، فقد يجدر بنا أن نعلم أن

الإنسان لا يزال مفتقراً إلى الرجوع إلى كلمة الله وإلى شريعته وإلى الإيمان أولاً وأخيراً، كأساس للعقيدة والعاطفة والفكر والحياة، لأن ذلك هو سبيل الطمأنينة النفسية والهدوء الروحي، والاتزان العاطفي والفكري.

المستقبل الواعد

ومن هنا، كان الاحتفال بذكرى نبي الإنسانية الأعظم (ص) حاجة ضرورية تمس حياتنا في الصميم، وليست ترفاً فكرياً تمارس فيه صناعة الكلمة وفن الخطابة.

كان مولد النبي (ص) إيذاناً بولادة مستقبل جديد للحياة وانفتاح عالم جديد، ترفرف عليه أجنحة السعادة وتسوده قوى الخير.

وكانت رسالة النبي (ص) تجسداً لهذا المستقبل، فقد كانت دعوة للحياة الحرة الكريمة المتصلة بالله، المنطلقة مع إرادته وإطاعته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(١).

أما طبيعة هذه الرسالة، أما ملامحها الأصلية، أما خطوطها العامة؛ فقد صورته لنا الآية الكريمة التي تتحدث عن النبي ورسالته.

﴿...الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾^(٢).

تلك هي خطوط الدعوة الإسلامية وتلك هي ملامحها، ارتفاع بالإنسان وكرامته وبحريته والإنطلاق به في ميادين الرفعة والكمال.

(١) سورة الأنفال: ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧ .

فالمعروف الذي يأمر به هو كل عمل أو سلوك تتمثل في داخله مصلحة الإنسان.
والمنكر الذي ينهى عنه، هو كل انحراف عن طبيعة الفطرة الإنسانية الصافية،
والتواء عن أهدافها، أما مجال الاستمتاع بكل ما هو طيب لا ضرر منه فقد أطلقه له،
وأما الخبائث التي لا يجني الإنسان منها سوى الضرر، فقد حرّمها عليه رحمةً به
ورفقاً بحياته وحفظاً لكرامته.

وانطلقت الآية بعد ذلك، لتوضح لنا كيف جاء الإسلام ليحطم عن الإنسان كل
الأغلال والقيود التي تثقل روحه وتشل فكره وتحدد خطواته، ويحرره من كل ذلك.

فقد كانت الوثنية تخنق روح الإنسان، وتجمد كل ما في داخلها من حيوية
وإشراق، لأن الوثنية لا تمثل شكلاً خاصاً من أشكال العبادة وإنما تمثل إتجاهاً
معيناً يشمل كل نواحي الحياة، ويشوه كل جوانبها.

فهي تمثل انحطاط الفكر الإنساني وانخفاضه، وابتعاده عن كل قيم الحياة
الروحية والأخلاقية، لأن علاقته بكل شيء من الأشياء مرتبطة بعلاقته بالواقع
المادي، فلا مجال معه للعطف والرحمة والحنان والأريحية والإيثار والتضحية
والفداء، لأن مثل هذه المعاني لا تتصل بالمادة من قريب أو بعيد.

وجاء الإسلام ليجد الإنسان مغرقاً في وثنيته، مفرطاً في أنانيته، سادراً
في وحشيته، منطلقاً مع غرائزه ورغباته إلى أبعد حد ممكن؛ تسيطر عليه قوانين
المادة، وتحكمه شريعة الغاب. فأطلق صيحته الكبرى داوية، معلناً إبتداء حياة
جديدة ودين جديد، تتحطم فيه الأغلال وتنطلق فيه حرية الإنسان من خلال عبوديته
لله وتتركز معه إنسانيته من خلال ارتفاعها إلى مستوى القيم، حيث الحب
والرحمة والتعاون والتسامح والتكافل والتضحية، هي السمات الحية للمجتمع
الجديد الذي يريد أن يبينه، والخطوط العامة للحياة التي يريد أن يحققها في حياة
البشرية.

الرحمة صفة الرسالة

وبدأت البشرية تستقبل وحي الله وروحانية الإيمان في طمأنينة وسعادة، وتهلل للنبي الجديد، وهو يدعو للمحبة وينادي بالتسامح ويبشر بالصفح والمغفرة ويهتف بالرحمة كصفة حية لرسالته.

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١).

وإذا بالرحمة تغزو القلوب فتلهب بالعاطفة والمحبة والحنان، وترفرف على الحياة فتحولها إلى كتلة حية من المشاعر والأحاسيس الفياضة بالطهر، النابضة بالإيمان. وتمتد إلى كل خلية من خلايا الكون، وإلى كل مجال من مجالات الإنسان. وإذا بالرحمة تغدو نظاماً وشريعة تحنو على الإنسان، فتخط له درب الحياة بعيداً عن الأشواك بعيداً عن الفوضى والانحراف، ليقترّب من إنسانيته ويبتعد بها رويداً رويداً عن طبيعة الحيوان فيه.

وتحولت الرحمة في إطار ذلك كله إلى مبدأ للحياة، وخطة للعمل، وشريعة للإنسان. فلم تعد مجرد معنى يمثل جانب الإحساس الطيب في ضمير الإنسان، وإنما أصبحت الروح التي تمتد في الجذور البعيدة من قضيته.

هكذا انطلقت الرحمة لترسم درب القوة، بعد أن كانت تسير في اتجاه الضعف البشري.

الحياة المتوازنة

لقد جاء رسولنا الأعظم محمد بن عبد الله (ص) ليحقق التوازن في داخل ذات الإنسان وفي خارجها، فلم ينظر إلى الإنسان من جانب واحد، بل نظر إليه كمادة وروح، يرتبط كيانه بالأرض فتجذبه إليها، ليستمتع بها؛ وتنطلق روحه نحو السماء لتحلق فيها وتندمج فيها.

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

فلو نظرنا إلى الإنسان من جانبه المادي وأغفلنا جانبه الروحي، لانحرفنا بحياته عن الإتجاه السوي. ولو نظرنا إليه من جانبه الروحي، لابتعدنا به عن حقيقة واقعه، لأن الإنسان، كما قلنا، ليس جسداً منفصلاً ولا روحاً منفصلة، وإنما هو كيان امتزجت فيه الروح بالجسد والتقى فيه جانب الحيوان والملاك.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سُوِيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(١).

تلك هي حقيقة الإنسان في مفهوم الإسلام (قبضة من طين ونفخة من روح). وبذلك بدأ ليحقق التوازن بين هذين الجانبين، فلم يطلب من الإنسان أن يكون ملاكاً يحتقر كل نوازع الجسد فيه، كما لم يرض له أن يكون حيواناً يستجيب لغرائزه وميوله استجابة عمياء، وإنما أراد له أن يكون إنساناً يتجه إلى الحياة بجسده كما يتجه إليها بروحه، ويمزج بين الروح والجسد في كل ما يعمل وفي كل ما ينتج.

إنه لا يريد للإنسان أن يرفض الدنيا رفضاً باتاً ويخلق في داخل نفسه كل نوازع الجسد، ويشلها في عملية حبس قهري وإنما أراد منه أن يجعل الدنيا رحلة في طريق الله ومزرعة الآخرة، ومنطلقاً للإتصال بالله.. «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ومن ترك آخرته لدنياه»^(٢).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾^(٣).

«إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وإعمل لآخرتك كأنك تموت غدا...»^(٤).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ

(١) سورة ص: ٧١ - ٧٢.

(٢) الفقيه، ج ٣، ص ١٥٦، رواية ٣٥٦٨، باب ٢.

(٣) سورة القصص: ٧٧.

(٤) الفقيه، ج ٣، ص ١٥٦، رواية ٣٥٦٩، باب ٢.

للمؤمنين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة..(١)

وهكذا لم يحتقر الإسلام الدنيا وإنما وجه الإنسان إلى أن يجعل لها هدفاً يصلها بالله ويربطها بروحه، ولهذا وحده كانت الأخلاق التي أمر بها الإسلام لا تمثل أي جانب للسلبية في حياة الإنسان، وإنما تتجه به إيجابياً، لا ينحرف به في جانب الضعف ولا يطغى به في جانب القوة.

فالصبر لا يمثل الاستكانة للظلم والخضوع له وإنما يمثل ضبط النفس وكبح جماحها، قبل اتخاذ أي موقف من المواقف؛ والتوكل لا يمثل الإتكالية والتوكل في الحياة وإنما يمثل الإعتماد على الله والإستناد إليه في ما يعمل الإنسان وفي ما يقوم به من مشاريع.

والدفع بالتّي هي أحسن ودفع السيئة بالحسنة، لا يمثل ضعف الإنسان بقدر ما يمثل إعانة المسيء على التراجع عن إساءته بتذكيره بالجانب الخيّر من الحياة، وإرجاعه إلى فطرته الأصلية.

لقد جاء النبي الأعظم (ص) أساساً للحياة في دعوته، وقاعدة للسلوك وميزاناً للعمل. فبذلك يستطيع الإنسان أن يحكم نفسه ويضبطها ويوجهها إلى طريق الخير والسعادة والفلاح، لأنه يوجد في داخل الإنسان رقابة ضميرية تعصمه من الزلل، وتنقذه من الإنهيار، وتوقظ فيه الشعور بالمسؤولية تجاه نعم الله وآلائه عليه، وتوحي له بقيمة الحياة إذا اتصلت بالله، ويعظمتها إذا اتجهت في سبيله، وتجعله يشعر بضرورة إشاعة المعاني الخيرة والقيم الخالدة في داخل الحياة، من أجل أن يكون العباد كلهم في نعمة وسعادة عندما يعيشون في ظلال الله.

وقد استطاع النبي (ص) بهذا الإيمان الواثق العميق بالله، الذي يجد عظمة الله في نفس الإنسان، حتى ليصغر كل شيء إزاءه، استطاع أن يدفع الإنسانية إلى الأمام ويرتفع بها إلى أعلى ذروة، فلم تمض إلا سنوات قلائل، حتى كانت الحضارة

(١) سورة الاعراف: ٣٢ .

الإسلامية تملأ شرق الأرض وغربها، وانطلقت قوافل العلم توجه الإنسان إلى أسرار الكون وعجائب الخليقة في حرية واسعة، لتدله على عظمة الله. وهكذا يلتقي الحاضر بالماضي في حاجته إلى الإيمان كسبيل من سبل الإستقرار المادي والروحي للإنسان. وهكذا يستطيع الإنسان أن يستمتع بحياته في ما أحله الله له من دون أن يخشى تأنيباً من ضمير أو عقاباً من الله.

وانطلقت شريعة الله، تخطط وتوجه في هذا الطريق، طريق التوازن في الإنسان من جانبه المادي ومن جانبه الروحي.

فمثلاً لقد شرع الإسلام العدل كأساس للحياة البشرية واعتبره سبيل الحياة القوية الهادفة، ولكنه لم يجعله جافاً قاسياً بل أضاف إليه تشريعاً آخر وهو الإحسان والتسامح والصفح والمغفرة. فللإنسان الحق كل الحق إذا اعتدي عليه أن يرد الإعتداء بمثله بدون زيادة. ولكن العفو أقرب للتقوى والصفح خير وكظم الغيظ أولى.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾^(١).

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾^(٢).

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾^(٣).

وهكذا نجد الإسلام لا يضع تشريعاً إلا ليضيف إليه تشريعاً يخفف من حدته ويمتص من شدته، ليحقق طبيعة التوازن في التشريع، كما هي ثابتة في كيان الإنسان، وكطريق من طرق الإنطلاق بالحياة بكل ما فيها من حضارة وتقدم وازدهار، لتكون سائرة في خدمة البشرية، بدلاً من أن تسير بها في طريق الدمار.

(١) سورة آل عمران: ١٢٤ .

(٢) سورة النحل: ٩٠ .

(٣) سورة النحل: ١٢٦ .

- ماذا بقي لنا من محمد (ص) وقرآنه؟

تلك هي رسالة الإسلام وذلك هو محمد (ص)، فلننظر ماذا بقي لنا من الإسلام.. وماذا بقي لنا من محمد، وماذا بقي لنا من قرآنه؟

إننا لا نملك إلا أن نسجل ابتعادنا عن محمد (ص) بابتعادنا عن مبادئه وتعاليمه. أما ذكره فينا، فلم تعد تمثل إلا بعض المظاهر الساذجة التي لا تتصل به من قريب أو بعيد. أما القرآن فلم يعد يوجه حياتنا في مسيرتها نحو المستقبل، وإنما أصبح مجرد كتاب للتبرك وقراءة التراتيل.

أما نحن فلا نزال نتخبط في غمار التيارات الضالة؛ لا نستقر على عقيدة ولا نطمئن إلى فكرة. وإنما نحاول الهرب من كل ذلك لندفن قلقنا وحيرتنا وضلالنا في غمار الظلام. ولكن.. لا نستطيع الإستقرار إلا إذا اتصلنا بالله وجرينا مع رسالاته واتخذنا من هذه الرسائل مصدر بناء للحياة لا مصدر هدم للإنسان، لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي يستطيع معه الإنسان أن يعيش في سلام مع نفسه ومع خالقه ومع مجتمعه ومع الكون بكل ما فيه من حياة.

فلنرجع إلى الله، إلى صفاء تعاليمه ونقاء شريعته، ونضرب بكل قوة على يد كل إنسان يتخذ من الدين وسيلة للهدم، وطريقاً للفوضى وأسلوباً من أساليب التجارة، لأن ذلك يمثل أبشع جوانب الإستغلال.

وأي إستغلال أعظم من إستخدام أقدس مقدسات الإنسان في سبيل الشر والفساد.

﴿..قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾^(١).

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

* * *

(١) سورة يوسف؛ ١٠٨ .

في ظلال ذكرى المولد

واقعنا في ضوء الذكرى

في ظلال هذه الذكرى - ذكراك يا رسول الله (ص) كمنطلق للإنسان وهو يحيا حضارته في ظل الدين - لا بدّ لنا من أن نبحث عن الدين في واقعه الحاضر في حياة الإنسان؛ لأن الذكريات لا تمثل - في وعينا لقضايانا المصيرية - مجرد تقليد أجوف، يضع المناسبة في أجواء حاملة من الأناشيد والأنغام ويوجّه الكلمة نحو الإجتراح الممل للفكرة.

وإنما تمثل - بدلاً من ذلك - الإنفتاح الواعي على القضية التي تمثلها المناسبة، والمعاني التي تثيرها في وجدان الإنسان وضميره، والأهداف التي تستهدفها من وراء حركتها في الحياة وهي تتحرك في اتجاه المستقبل، وعلى هذا فإننا مدعوون إلى أن نتعرّف - في ذكرى الرسول العظيم - على واقعنا الديني ومدى ما وصل إليه من انهيار وتسيب، لأن ذلك - وحده - هو الذي يجعلنا في مستوى الذكرى.

إن أبسط نظرة إلى واقع جيلنا المعاصر، تعرّفنا على مدى ما يملكه الدين من رصيد في حياة هذا الجيل. فلن نحتاج إلى جهد كبير لنطلع على ابتعاده عن الدين، في فكره وفي روحه وفي سلوكه الحياتي.. ذلك واقع لا ريب فيه، نتمثله جيداً في هذا الإنهيار الروحي والأخلاقي والنفسي، الذي يعتبر من السمات المميزة لعصرنا الحاضر.

لقد انهارت الإنسانية في داخل الإنسان، بانهييار الروح الدينية في أعماقه، فليس هناك عنده قاعدة للروح أو منطلق للإيمان، أو إطمئنان للحق.. وإنما هو القلق والضياح والشك القاتل المدمر والحيرة التي تآكل حياته وتخفق حيوية الطمأنينة في داخله.

لقد بدأ إنساننا يهرب من نفسه، ليدفن حياته في مهاوي الفراغ ويهرب من واقعه، ليغرق ذاته في بحار اللذة. وتحول الهروب عنده إلى عقدة، تأخذ عليه كل كيانه وكل مشاعره وعواطفه. وأصبح الظمأ في حياته مشكلة، فما زال يعب من الينبوع ليملاً جوفه ولكنه لا يرتوي فالظمأ قاتل والطريق حائر في مجاهل التيه.

واختلطت مفاهيم الحياة في ذهنه، حتى لم يعد يميز شيئاً؛ فالجريمة مظهر من مظاهر البطولة، والانحراف أسلوب من أساليب الفن، والانحلال والعريضة جانب حي من جوانب تأكيد الحرية في حياة الإنسان الذي يريد ممارسة إرادة الوجود في سلوكه الفردي، والهجوم على المقدسات والتجديف على الدين شكل من أشكال التحرر الفكري والتقدم الذهني.

لقد تعقدت الحيرة في داخل الإنسان، وضاعت الطريق في عينيه، وأطبق الضباب على آفاقه، فمضى يحطم كل ما حوله باحثاً عن منفذ للنور، ومنطلق جديد للحياة.. وما زال يبحث ويتلفت باحثاً عن حل وما زالت الرمال تخفي معالم الطريق وتطمس آثاره.

ذلك هو بعض من واقع الإنسان الذي يمثل إنسان المأساة في يأسه وتمردّه، في كفره وإيمانه، في ضلاله وهذاه.

كان الإيمان بالله الذي يمثل ضمير هذا الإنسان ووجدانه، القوة العاصمة له من الانحراف، والرقابة الرادعة له عن الإنهييار في مهاوي الجريمة، والنور الذي يفتح له أبواب الأمل عندما تعصف به عواصف اليأس، والمنطلق الخير الذي يهديه إلى سبيل الخير عندما تثور في غرائزه دواعي الشر.

كان الإيمان بالله - في حياة الإنسان - يمثل شاطئ الأمان الذي يرتاح إليه، ويستريح في ظلاله ويلجأ إليه عندما تضرب رياح الزمن.

محاولات هدم الدين

ولكن الآخرين أرادوا لهذا الإنسان أن يبتعد عن الله وينحرف عن الدين، فحاولوا أن يصوغوا له الفلسفات التي تهدم إيمانه، والأفكار التي تزرع في قلبه بذرة الإلحاد. وكان الجو ملائماً لهذه المحاولة؛ فقد استغلت الفترات المظلمة من تاريخ الأديان، والأوضاع الشاذة لبعض ممثلي الدين، والحروب الطاحنة التي أثرت باسم الدين، لقد استغلت كل هذه لتكون سلاحاً في المعركة ضد الدين.

وسارت الخطة المرسومة في طريقها الطويل، لتعطي صورة قاتمة عن الدين وتقدمها للشباب والجيل الطالع. فهو - في مفهومها - مجرد أوضاع معينة يمارسها الإنسان في زاوية حاملة من زوايا المسجد، ويهرب فيها من واقعه قليلاً، تماماً كما يمارس الإنسان أي وضع تقليدي لا يفهم له هدفاً ولا يعرف له معنى. وبدأت الفكرة التي تعزل الدين عن الحياة ثم دخلت السياسة لتأخذ حصتها من الدين، لتجعل الدين سلاحاً في المعركة، وبدأت المعسكرات العالمية تتخذ من الدين وسيلة للتجارة وسلاحاً للحرب الباردة، في وضع مسرحي يستغل غفلة الشعوب وسذاجتها الدينية؛ فهذا الجانب يحاول أن يجعل من نفسه قديساً ووصياً على الدين، وحامياً للقيم الدينية... أما الجانب الآخر، فيحاول استغلال هذا العطف الكاذب لعدوه على الدين، ليهاجم الدين ورجاله بتهمة السير في ركاب الإستعمار والرجعية وما إلى ذلك من اتهامات.

وهكذا أصبح الدين سلاحاً في الحرب الباردة، بيد الطرفين، ولكن على نحو مختلف.

لقد أريد لهذا الجيل أن يبتعد عن الله وينحرف عن الدين. وقد تضافرت عوامل

عديدة من تهئية الأجواء الملائمة لهذا الإنحراف. وهكذا نجحت الخطة المرسومة، ووصلت إلى هدفها المنشود، فعزلت الجيل عن الدين وعزلت الدين عن المدرسة، فلم يعد الدين يمثل في منهاج المدرسة أي معنى من المعاني التي توحى بالتقدير والإحترام. وبهذا أغلقت النافذة الكبرى التي يطل منها الإنسان المثقف على الدين.. وهي نافذة المعرفة الدينية التي تهتئ للإنسان أن يفهم واقع الدين عقيدة وفلسفة وأخلاقاً وشريعة.

لقد أريد للإنسان أن لا ينفتح على المعاني الحية التي يمثلها الدين، فلم تعط للدين أي حرية في الدفاع عن نفسه وتوضيح دوره القيادي في الحياة داخل المدرسة، لأن البرنامج لا يتسع له، في الوقت الذي تملك فيه بقية الأفكار كل الحرية في عرض مفاهيمها وأفكارها. وكان الله في عون بقية البرامج.

وهكذا، شارك ذلك كله في وإيجاد جيل بعيد عن الله لا يعرف الدين إلا من خلال الصفة التقليدية التي تلحق كل إنسان بدين أبيه، مما ساعد على تعميق الفكرة التي أريد لها أن تمثل تفاهة دور الدين في حياة الإنسان، كما ساعد على أن يتقبل الشباب كل دعوة مضادة للدين وكل تزييف لحقيقته، وهياً الجو الملائم لنجاح عمليات استغلال الدين كواجهة من واجهات الدعاية السياسية.

مسؤولياتنا الدينية

والآن.. نحن أمام مسؤولياتنا الدينية وجهاً لوجه.

فما الذي أعددناه للعمل الديني؟ أو بالأحرى ما هي الوسائل الكفيلة بإعادة الدين إلى واقع الحياة، ليشيع فيها المحبة والاستقرار والطمأنينة ويجمع فيها القلوب على تقوى من الله، وحب له، وتقديس لشرائعه وتعاليمه، ويوحد أخاه الإنسان، ويحب فيه الإنسان لإخوانه ما يحب لنفسه.

ربما كان من بين تلك الوسائل، أن نعمل بإخلاص وقوة في سبيل أن يحتل الدين

مركزه الأساس في داخل المدرسة، من أجل إيجاد الجيل المثقف المؤمن الذي يحمل رسالة العلم بيد، ورسالة الإيمان بالله وبرسله بيد أخرى، ويفهم الدين ينبوعاً للمحبة، ومنطلقاً للخدمة العامة، ورمزاً للسلام الروحي والمادي في حياة الإنسان، وميثاقاً إنسانياً للعمل من أجل إقامة العدل في الأرض، كمظهر من مظاهر ارتباط الأرض بالسماء. وبذلك نستطيع تحطيم الفكرة المشوهة التي اعتبرت الدين هرباً من الحياة وابتعاداً عن واقعها وتجميداً لطاقتها المبدعة.

ولن نعدم المناهج التي تستطيع استيعاب هذه المعاني، في إطار مناهج التربية والتاريخ والإجتماع والأدب.

ومن جهة أخرى، يجب علينا أن نثير في أنفسنا الشعور بالمسؤولية تجاه فلذات أكبادنا، فنحاول تعهد نموهم الروحي بالتربية الدينية داخل البيت، كما نعمل في الوقت نفسه على إيجاد النوادي الثقافية التي توجه الجيل نحو الثقافة الدينية المنفتحة على واقع الحياة، وتهينة المكتبات العامة التي تساعد على إثارة مثل هذه الأجواء بما تقدمه للجيل من زاد ثقافي ديني واع يفتح عينيه على واقع الدين بدون لف ودوران.

الإيمان الواعي

إننا لا ندعو هنا - إلى الإيمان الأعمى الذي لا يعرف هدفه، ولا يهتدي طريقه وإنما ندعو إلى الإيمان الواعي الذي يرتكز على أساس من ثقافة وعلم وفكر، فقد نم القرآن الكريم التقليد الأعمى في ما حكاه عن المشركين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

إننا ندعو هنا إلى أن لا يكفر الإنسان بالشيء مجرد أنه يجهله أو يشك فيه، بل

(١) سورة البقرة: ١٧٠ .

لا بدّ له من أن يبقى في حالة بحث وترقب وانتظار للحقيقة، وهو يسعى إليها في هدوء وحذر.

وقد قال الإمام جعفر الصادق (ع) وهو يتحدّث عن ذلك:

«..لو أن العباد إذا جهلوا وقفوا، ولم يجحدوا ولم يكفروا، إنما يكفرون إذا جحدوا»^(١).

إن الإسلام يريد أن يجعل الإنسان حياته رحلة فكرية في الكون الفسيح من أجل أن يهتدي ويعرف ويكتشف على أساس من وعي ويقظة.

إننا نريد من شبابنا وجيلنا أن يدرسوا الدين ويقرؤوه، ليعرفوه ويناقشوه، ليطلعوا على ما فيه من حلول لمشاكلهم وتحليل لقضاياهم وتقدّم لحياتهم.

إننا نريد لهم أن يفهموا أن استغلال الفكرة من قبل تجار السياسة أو تجار الدين، لا يعني أن الفكرة تستجيب لطبيعة الاستغلال. فليست هناك فكرة خيرة في التاريخ الإنساني لم تكن موضعاً للاستغلال، ولكن المعاني الخيرة تبقى في أصالتها نقيّة ناصعة، ويموت الاستغلال ويتكشف عن واقعه السيئ...

وفي خاتمة المطاف إننا نريد لهم أن يعيشوا قضايا العقيدة والفكر في هدوء العقل واتزانه ولا يجعلوها عرضة للحماسة والإندفاع الأعمى، لأن الحماسة لا يمكن أن تساعد على فهم الفكرة ومناقشتها الحساب، وبذلك يخلصون لأنفسهم ولقضيّتهم ويعرفون جيداً عمق المأساة التي يعيشها الدين في واقعنا المعاصر، عندما يُحارب من قبل أناس يجهلون ما فيه من خير وصلاح ومحبة.

يا رسول الله

يا رسول الله...

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢٨٨، رواية ١٩.

نحن هنا في ذكراك، لتتعلم كيف يعيش الإنسان حياته في سلام مع الآخرين، وكيف يحياها قلبه وضميره من أجل الله.

نحن هنا في ذكراك، حيث تمتد القيم من السماء، لتجعل من الأرض ميداناً يمارس فيه الإنسان إنسانيته في صفاء، وتحقق الخطى في عملية توثب وانطلاق، لتسير في الدروب التي افتتحت واكتشفت حيث العدالة والكرامة والحرية، هي منطلق الحياة في مسيرتها الظاهرة نحو الغد الأفضل.

نحن هنا في ذكراك، ننطلق لتتطلع إلى أفالك الرحبة، أفاق الروحية السمحة المعطاء، وهي تلتفت إلى مادية عالمنا الغارق في أنانيته، لتبعث منه القلب الذي يخفق بالمحبة والروح التي ترف بالأريحية والكيان الذي يتدفق بالعطاء.

نحن هنا في ذكراك نتعلم كيف يكون العلم فريضة وعبادة، والكون محراباً يتعبد فيه المفكر بخشوع وهو يكتشف سر الخلق وعظمة الخالق؟ وكيف يكون العمل من أجل الحياة قيمة روحية ترتفع بالإنسان في ملكوت السماوات؟ وكيف يكون الكسب من أجل لقمة العيش جهاداً في سبيل الله؟

في ذكراك يا رسول الله (ص)، تعلمنا الكثير من دروس الحياة وكان مما تعلمناه، إن بإمكان الإنسان أن يبني المعبد داخل حقله وهو يحرق الأرض ويزرعها، وداخل مصنعه وهو يسخر الآلة لزيادة الإنتاج، وداخل متجره وهو يمارس البيع والشراء.

كان ذلك مما تعلمناه منك وأنت ترتفع بنا عن العرض إلى الجوهر، وعن المظهر إلى الحقيقة.

لقد كنت تثير فينا روح الإخلاص في الحياة وفي العمل وعنصر الحب لله، من أجل أن يكون عملنا في جميع مجالاته عبادة مستمرة، وحياتنا في جميع جوانبها صلاة دائمة في محراب الله الفسيح الأطراف.

في ذكراك يا رسول الله (ص)، تعلّمنا الكثير الكثير.. وما نزال هنا نتعلّم الكثير الكثير.. فأنت المعلم الأول لنا في المحبة، والتسامح والصبر والجهاد من أجل العقيدة ومن أجل العزة والكرامة ومن أجل العدالة لنبني الأرض جميعاً.

نحن هنا نتعلّم.. فأشرف علينا من عليائك، لتعلّمنا من جديد كيف نحيا ونعيش إخواناً في ظلال الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

درس من ذكرى مولد النبي (ص)

مبعث الوعي

قيمة الذكريات في حياتنا، هي أنها تشدنا إلى تاريخنا وتربطنا بماضيها وتجدد صلتنا بالمعاني الخيرة التي انطلقت في رحاب التاريخ، لتضيء الدرب للسالكين.

أما قيمة الذكريات الدينية - وذكرى الرسول (ص) بوجه خاص - في مرحلتنا الحاضرة، فهي أنها تجيء في وقت ابتعدت فيه المفاهيم الدينية عن أذهان الجيل، حتى اختلطت عنده الوسيلة بالغاية والفكرة بالأسلوب. وتعذرت فيه خطى المسلمين، فلم يسيروا على خطوات الإسلام وتعاليمه، وإنما تجاذبتهم التيارات المختلفة هنا وهناك، وتلونت فيه الشعارات واللافتات التي تدعو للإسلام وباسم الإسلام، حتى لم نعد نميز المزيف منها من الخالص. وكثرت عمليات استغلال الدين، من قبل تجار السياسة، فأصبح الدين يمثل إحدى واجهات الدعاية السياسية. وإذا بأولئك الذين استباحوا حرمة الإسلام، باستباحتهم دماء الشعوب وخيراتهم، يصبحون - بين عشية وضحاها - قديسين يسبحون باسم الدين ويقدمون له.

تجيء هذه الذكرى، ونحن - في هذه المرحلة - نعاني من كل هذا، ونشعر بحاجةنا - كمسلمين - إلى توضيح دور الإسلام القيادي في حياتنا، وقيمة تعاليمه في دفع عجلة الحضارة والتقدم في واقعنا إلى الأمام، وإبراز المفاهيم الحقة الخالصة التي يتبنّاها الإسلام في فلسفته وشريعته.

إننا بحاجة إلى هذه الذكرى، لتعريف عمليات الإستغلال، أياً كان لونها،
ولتصحيح المفاهيم الخاطئة التي فرضت على الدين.

ولهذا كانت الذكرى مبعث وعي ومنطلق يقظة، يفتح لنا الطريق الأرحب للمعرفة
الإسلامية الخالصة.

المفهوم الصحيح للنبوة

لا بدّ لنا - ونحن نعيش في ظلال ذكرى النبي الأعظم محمد (ص) التي تمثل
النبوة، في شكلها ومحتواها، عندما تفتتح الحياة برسالة الله إلى البشر، لتخرجهم
من الظلمات إلى النور، وتهديهم إلى صراط العزيز الحميد. لا بدّ لنا - ونحن نعيش
ذكرى النبوة - من أن نفهم واقع النبوة، فقد نجد أن مفهومها الأصل يختلف عن
المفهوم الذي يعطيه بعض علماء الاجتماع ويتبنّاه الكثيرون.

فقد حاول البعض أن يعتبر النبوة مجرد نبوغ خاص اجتماعي، ينشأ عن فطرة
مستقيمة وعقل سليم، يدفع الإنسان إلى أن يعيش واقع مجتمعه ويتلمّس مشاكله
ويحس بالآلام ويبدأ - بعد ذلك - ليفكر ويتأمل ويناقش، ليضع الحلول لتلك المشاكل
ويوجّه الناس لتخفيف تلك الآلام.

وهكذا اعتبرت الرسائل التي جاء بها الأنبياء، مجرد جهد بشري قام به رجال
مصلحون، انطلقوا من واقع مجتمعهم وطبيعة بيئتهم، ليصلحوا هذا المجتمع.

وعلى هذا، فليست للتعاليم الدينية أية قداسة تربطها بالسماء، وليس لأفكاره أية
قيمة روحية تميّزها عن بقية الأفكار البشرية التي تتعرّض للخطأ والصواب، لأن
صاحبها مجرد مفكر نابغة، لا يزيد على بقية النوابغ الذين حفل بهم تاريخ البشرية.

وهكذا مكّنت هذه الفكرة من إبعاد الصفة الإلهية عن الدين، واعتباره مرحلة من
مراحل تاريخ البشرية، اقتضتها ظروف معينة وعوامل خاصة.

وبهذا اعتُبر الإسلام ممثلاً لطبيعة الأمة التي انطلق منها، ووليداً لآلامها التي عاشها محمد (ص) فانطلقت بها عبقريته، كإنسان، لتمثل العبقرية العربية في مرحلة من مراحل نهضتها وتطلعاتها إلى الأمام.

ولكن هذا مفهوم خاطيء من وجهة النظر الإسلامية التي يمثلها القرآن.

ولسنا هنا في معرض مناقشة الفكرة ومحاكمتها من وجهة النظر العلمية، لأن المجال لا يتسع لذلك وإنما نحن في محاولة جادة واعية، لتعريف الناس بالخط الفاصل الذي يفصل بين المفهوم الديني للنبوة، وبين المفهوم المصطنع المفترض الذي أريد إعطاؤه لهذه الصفة، لئلا تختلط في حياتنا المفاهيم ونضيع في متاهات الألفاظ.

ولعل أوضح صورة توضح لنا مفهوم النبوة، هي هذه الآيات القرآنية الكريمة:

١ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) .

٢ - ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢) .

٣ - ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعْ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾^(٣) .

٤ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾^(٤) .

٥ - ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾^(٥) .

* * *

(١) سورة النحل: ٤٣ .

(٢) سورة النساء: ١٦٣ .

(٣) سورة الأنعام: ٥٠ .

(٤) سورة الأنبياء: ٤٥ .

(٥) سورة الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤ .

وهكذا نفهم من خلال هذه الآيات الكريمة، أن النبوة سفارة يقوم بها النبي بين الله وبين خلقه، فليس هناك أي جهد فكري خاص في ما يعطيه من تعاليم، وما يبشّر به من شريعة، وليست هناك تأثيرات خاصة وانطباعات معينة اقتضتها طبيعة المجتمع وواقع البيئة.

وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله عزّ من قائل:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾^(١).

ولهذا كله فإن الرسول لا يستطيع تغيير أي شيء أو تبديل أي قانون من عند نفسه ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾^(٢).

وتمتد القضية إلى أبعد من ذلك، فيستحيل عليه أن يتقول على الله ما لم يُوح به إليه، فهو رسول، لا يمكن أن يخرج عن طبيعة الرسالة التي تقتضي أن يبلغ الرسول ما أرسل به، من دون زيادة أو نقصان.

﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل* لأخذنا منه باليمين* ثم لقطعنا منه الوتين* فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾^(٣).

وهو معصوم من قبل الله فلا يتصرّف بوحى شهوة أو هوى.

﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾^(٤).

(١) سورة الشورى: ٥٢ .

(٢) سورة يونس: ١٥ .

(٣) سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٧ .

(٤) سورة النجم: ٣ - ٤ .

تلك هي صورة النبي في القرآن، صورة الإنسان الذي اختاره الله واصطفاه لأداء رسالته إلى الناس، ومن الطبيعي أن ميزة اصطفاء الله لإنسان ما، من الميزات العظيمة التي لا يبلغ الفكر مدى شرفها، لأنها تدل على ما يتمتع به هذا الإنسان من عبقرية ومؤهلات روحية تؤهله لهذا الشرف العظيم.

قيمة الإيمان

هناك الكثيرون من الناس لا يطبقون الحديث عن الإيمان والكفر ويعتبرون إثارته في المجتمع ومحاولة عرضه كقضية حيوية، ضرباً من ضروب الأحاديث التي لا تمثل شيئاً في حياتنا، ويرون أن لدينا من القضايا الحياتية المهمة ما يغنينا عن التكلّم في قضية الإيمان بالله والكفر به، لا سيما وأن بعض المعسكرات العالمية تستغل هذا الحديث في توجيه حملاتها على بعض التيارات الفكرية السياسية التي تركز على الإلحاد بطبيعة ارتكازها على المادة كقاعدة فلسفية أساسية، ولكن.. هل نستطيع اعتبار الإيمان بالله والكفر به قضية جانبية تعيش على هامش قضايانا الحياتية؟.

وهل يبرّر استغلال هذه القضية من قبل بعض التيارات السياسية، السكوت عنها، وترك دعوات الإلحاد تغزو أذهان الجيل وتفكيره، ما دمنا نستطيع معالجة هذه القضية بأسلوب يبتعد بها عن عمليات الإستغلال؟

لماذا نترك الحرية لدعاة الإلحاد أن يبشّروا ويعيثوا ما شاؤوا في الأرض فساداً، حتى إذا جاء دور الدين ليدافع عن وجهة نظره، وليعلن عن عقيدته، نادينا بالويل والثبور وعظائم الأمور، وقلنا: إن هذا دعوة إستعمارية يموكها الدينار ويوجهها الدولار.

إننا نعتبر قصة الإيمان بالله والكفر به من القضايا المصرية التي تقرّر مصير الأمة نحو الخير أو الشر، نحو الهدى أو الضلال.

ولكننا لا نريد بالإيمان بالله، هذا اللون التقليدي المائع الذي لا يلامس الإحساس ولا يوجّه الشعور، وإنما نريد به هذه العقيدة التي إذا انطلقت في كيان الإنسان وحياته فلكي تبعث فيه الضمير الذي يحاكم ويحاسب، والقلب الذي يحس ويشعر ويتألم، والروح التي توجه وتنير وتهدي.

إننا نريد به النور الذي يهدي الإنسانية ويوجهها إلى سواء السبيل كما قال الله سبحانه ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يَخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(٢).

إننا نعتبر الإيمان بالله يمثل الضمانة الوحيدة التي يمكن أن تحفظ للإنسان إنسانيته، وتصور له مثله وقيمه، لأنه هو الذي يجعل للأخلاق معنى، ويحمي الحياة من صفة العبث، ولهذا ركزت الأديان السماوية على فكرة الإيمان بالله، كحقيقة تفرضها الفطرة ويركزها الوجدان ويوحى بها الشعور المستقيم. ومن هنا كانت التسامح في أية خطيئة ما عدا خطيئة الكفر بالله والإشراك به.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

ذلك. لأن الإنسان الملحد الكافر لا يمكن أن يرتفع عن طبيعة الحيوان فيه، لأنه لا يملك ينبوع الذي يثير فيه يقظة الضمير وطهارة الوجدان.

إن الإنسان الذي لم يستطع أن يبصر الشعاع السمح، وهو يفيض من روح الله على هذا الوجود، لا يمكن أن يعيش معاني الرحمة والمحبة والتسامح والمغفرة، ولذا فلا يمكن أن يتسلم قيادة البشرية، لأنه لا يستطيع أن يقودها إلى الجانب الخير من الحياة.

(١) سورة الحديد؛ ٢٨ .

(٢) سورة البقرة؛ ٢٥٧ .

(٣) سورة النساء؛ ٤٨ .

هل انتهى دور الدين؟

قد يقول الكثيرون، أو يظنون: إننا انتهينا من دور الدين ليبدأ دور العلم. ولكن تعالوا معي لنعرف، كم يجهل هؤلاء دور الدين ودور العلم في الحياة.

إنهم يريدون أن يفترضوا وجود اصطدام بين العلم والدين، ولكن الحياة، بواقعها، تستطيع تكذيب هذا القول وفضح هذا الواقع، لأنها أثبتت لنا أن أية حضارة لا يرهاها الدين سائرة نحو الدمار.

والآن.. لنقترب من الواقع قليلاً، لنعرف ما هو دور العلم في الحياة. إن العلم يضع للإنسان الآلة التي تنتج قوى الخير كما تنتج قوى الشر، وتصنع أدوات البناء كما تصنع أدوات الدمار.

إن الذرة وهي أحد العناصر التي يمكن أن تخدم البشرية، إذا استُخدمت في نطاق الأساليب السلمية، يمكن - في الوقت ذاته - أن تدمر الإنسانية عندما تصنع منها القنبلة الذرية.

وهكذا يهيئ العلم للإنسان أن يسير بمنجزاته نحو خدمة الحياة، كما يمكن أن يسخرها لتدميرها.

وإذاً، فما هي القوة التي تستطيع أن تحفظ للإنسان توازنه، وتبني له ضميره، وتسير به في اتجاه خدمة الإنسانية؟

وهنا يأتي دور الدين ليثير فيه الضمير الحي الذي يؤنبه ويحاسبه ويحاكمه، ويبعث فيه الوجدان الحي، والعاطفة الصادقة التي تتجّه نحو الإحساس الواعي بقضية الإنسان وحضارته. إن العلم بحاجة إلى الدين دائماً، من أجل أن لا ينحرف عن طريق الله ويتّجه إلى طريق الخير.

وهكذا نجد أن الدين يحمي العلم ويصوّبه بدلاً من أن يعارضه ويصادمه.

خُلِقَ النبي (ص)

في حياة النبي الأعظم محمد (ص) الكثير الكثير من سمات العظمة وصفات الكمال، ولكن خُلِقَ العظيم كان السمة الوحيدة التي أخذت طريقها إلى القرآن، لتخلد فيه وتبقى كوسام إلهي خالد، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

فقد كان خُلُقُهُ يمثل إحدى الركائز الأساسية التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية. كان يعلم أن الدين الذي جاء به جديد على قومه، وعلى البيئة التي يعيش فيها، بكل ما فيه من مفاهيم وتعاليم.

وكان يدرك أنه يجرد قومه من كل امتيازاتهم التي كانوا يبنون حياتهم عليها، لأنه يجعل منهم أناساً كبقية الناس في جميع الحقوق والواجبات (ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى)^(٢).

وكان يرى أنهم سوف يفقدون أعصابهم لهول الصدمة، ويستثيرون حقدهم وعداوتهم ضده. ولكنه كان يرى في الوقت نفسه أنهم سوف يرجعون إلى الدرب في نهاية المطاف، عندما تهدأ أعصابهم، وتبرد حماسهم ويأتيهم النداء من كل مكان، يحمل انتصار الدعوة الجديدة في طول البلاد وعرضها.

كان يدرك كل ذلك عندما ابتدأ دعوته وأنذرهم. وفوجئت قريش بالدعوة التي تهدم صرح الوثنية، وتزلزل قواعد الشرك، ولم تصدق - بادئ ذي بدء - أن يكون النبي (ص) جاداً في الأمر.

كانت تظن أنها وسيلة من وسائل استجداء المال والشرف، فأرسلت إليه الوليد، وكان إنساناً عاقلاً فقال له: «يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من المكان في النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) البحار، ج ٧٦، ص ٣٥، رواية ١٢، باب ٦٧.

- نهج البلاغة، ج ١، باب ١، ص ١٢٨.

تقبل بعضها، إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد تشريفاً سوّدناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا...».

فلما فرغ من قوله، تلا عليه النبي (ص) سورة السجدة، والوليد منصت في خشوع وإعجاب، وهو يستمع إلى أحسن القول وانصرف إلى قومه مأخوذاً بعظمة هذا وسحر قرانه.

وحاولت قريش أن ترسل إليه عمه أبا طالب ليكلّمه، فقال له: « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك...»^(١).

وفقدت قريش أعصابها أمام هذه الروح الرسالية الرائعة التي لا تستجيب للإغراء ولا تستكين أمام التهديد.. وبدأت حرب الأعصاب لتهدّم روحه المعنوية. فقالت عنه: إنه ساحر كذاب، وقالت عنه: إنه مجنون شاعر، وقالت عن قرانه العظيم إنه «أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً»^(٢).

وسارت في حملة السخرية والإستهزاء به وبأصحابه شوطاً طويلاً، تماماً كما يُتهم الداعون إلى الله في هذه الأيام بالرجعية والإستعمار والسير في ركاب الأحلاف، ليحطموا أعصابهم ويحوّلهم عن دعوة الحق ولكن دون جدوى.

وقاوم النبي (ص) هذه الحرب، وثبت لها بهدوء الرسالة، ووداعة الرسول الذي يثق بنفسه وبرسالته وبربه، ولذا فهو يجد في هذه المقاومة طلائع النصر، ويلمح مدى ما تشكّله دعوته من الخطر على الوثنية والشرك ويتطلّع إلى المستقبل القريب، ليجد الناس «يدخلون في دين الله أفواجا»^(٣) بعد أن يطلّعوا على قيمة الدعوة،

(١) نهج البلاغة، ج ١٤، باب ٩، ص ٥٤٠، (بيان).

(٢) سورة الفرقان: ٥.

(٣) سورة النصر: ٢.

ويتخلصوا من رواسب جاهليتهم التي وضعت بينهم وبين الحق حجاباً. ولهذا كان يرفع أكف الضراعة إلى الله في ابتهال خاشع ليقول: «اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون»^(١).

وانتصر النبي.. وانتصر أسلوبه، وبدأت كلمات الله تنساب في حياة البشرية في حنان ووداعة، وتنفذ إلى عقولها في هدوء واطمئنان.

وانطلقت - بعد ذلك - خطوة أخرى في رحلة الحياة، وهي تجاهد وتفتح القلوب على سماحة الدعوة قبل أن تفتح البلاد على قوتها، من أجل أن ترفع كلمة الله وتنهار كلمة الشيطان.

ووقفت - بعد ذلك - لتبني دولة وتصنع أمة، وتبدأ حكاية التاريخ من جديد، في حضارتها الرائعة، ليسيّر الإنسان رحلته الكبرى في دروب الله.

ولم يترك النبي (ص) هذه الحياة إلا بعد أن جعل الإسلام عقيدة الإنسانية التي تثبت أمام العواصف بقوة، وتجابه الشدائد بصبر. وانطلق القرآن الكريم ليهتف ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(٢).

مشكلتنا الدينية

مشكلتنا الدينية في هذا العصر هي أننا متدينون لا نفهم الدين، وإنما نحاول ممارسة بعض شكلياته بنحو أليّ من دون أن تترك في حياتنا أي أثر.

ونحن متدينون ولكننا نسير وراء الظالمين الذين يستغلون خيراتنا ويمتصون دماءنا ويخربون أمننا وسلامتنا، بما يثيرونه في حياتنا من فرقة وخلاف يفصل الأخ عن أخيه، والأب عن ولده، والزوجة عن زوجها، من دون أن نحصل على أي شيء

(١) البحار، ج ٩٨، ص ١٦٦ رواية ٥، باب ٧.

(٢) سورة المائدة: ٣.

سوى ما يحصل عليه الإنسان الذي يحصد الشوك بيديه. والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾^(١).

فنحن متدينون ولكننا نتبع كل خطط الكفر وخطواته التي تتلون وتتنوع حسب اختلاف الظروف، والله سبحانه يقول: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهاداً كبيراً﴾^(٢).

ونحن متدينون.. ولكننا نحمل في قلوبنا الحقد والضعينة والشحناء لإخواننا في الإيمان، والله سبحانه يقول: ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾^(٣).

ونحن متدينون.. ولكننا لا نراقب الله في كل صغيرة أو كبيرة، وإنما نسير ونعمل بوحى من شهواتنا ورغباتنا، ونتصرف ونجرم من دون أي رادع أو وازع، كأن ليس هناك رب يراقبنا وإله يشاهدنا.

ونحن متدينون، ولكننا نمارس الغيبة والنميمة والكذب والفحشاء والزنا وشرب الخمر والغش والخداع.. وكل أساليب الشر والانحراف.

وبعد ذلك.. ماذا بقي لنا من الدين؟ وماذا عندنا من الإيمان؟ إن الدين ليس مجرد فكرة معلقة في الهواء، أو صفة عائلية تلصق بالإنسان، كما يلصق به نسبه. إن الدين عقيدة تخطط وتوجه، وفكر ينير ويهدي، وسلوك يُثار وينفعل ويستجيب لنداء الله.

مأساة الدين في هذا العصر أنه أصبح مجالاً للإستغلال والإتجار من قبل تجار السياسة، فقد تحولت الشعارات الدينية التي تمثل كل ما في الحياة من قيم خيرة، لقد تحولت بفعل الألاعيب السياسية إلى لافتات تحاول استغلال عاطفة الجماهير

(١) سورة هود: ١١٣ .

(٢) سورة الفرقان: ٥٢ .

(٣) سورة الحشر: ١٠ .

وسذاجة معرفتها الدينية، وبدأ الكثيرون من تجار السياسة يتسترون وراءه لإخفاء أهدافهم ومصالحهم وأطماعهم الشخصية التي يختبئ في داخلها الكفر والاستغلال من الشرق والغرب.

حرب الأعصاب

ونحن هنا، في الوقت الذي نستعيد فيه ذكرى النبي محمد (ص).. هذه الذكرى التي أراد المغرضون أن يشوّهوا جمالها وحيويتها في روح الطيبين من الناس فقالوا: إنها تنتمي إلى الحلف الإسلامي، وقالوا عنها: إنها تنتمي إلى الإستعمار والرجعية، وقالوا عنها الكثير مما شاء لهم الكذب والبهتان أن يقولوه... في هذا الوقت الذي نستعيد فيه هذه الذكرى، ليعيش فيها الناس ساعة في ظلال الإسلام وروحانيته وقيمه، نعلنها صريحة واضحة: عندما ندعو إلى الإسلام وعندما ننشر هذه الذكريات في حياتنا، فإنما ندعو إلى الإسلام النقي الصافي الذي جاء به النبي محمد (ص)، ليوجهنا نحو الحفاظ على عزتنا وكرامتنا وسيادتنا، ويقودنا إلى السير على تعاليمه التي تجمعنا على كلمة الله من دون تزييف أو تشويه أو استغلال.

ونعلنها صريحة واضحة: إننا لا نؤيد أي تكتل أو تجمع، يحاول أن يجعل من الإسلام ستاراً لإخفاء أغراضه وأهدافه الإستعمارية. وعلى هذا فإننا لا نعتبره ممثلاً للإسلام في قليل أو كثير، ولا نعتبر القائمين عليه ممن يمثلون الإسلام في صفائه ونقاؤه.

وإننا في الوقت الذي نشجب فيه استغلال الإسلام كواجهة من واجهات الدعاية السياسية المغرضة، نشجب - في الوقت ذاته - كل اتجاه وكل فكر يرمي إلى إبعاد المسلمين عن عقيدتهم الحقّة ودينهم الحق، بما يتبعه من أساليب التضليل واللف والدوران.

إننا صريحون واضحون في عقيدتنا وديننا وأساليبنا، ونريد من الآخرين أن يملكوا هذه الصراحة، فيصارحوا الناس بما عندهم جملة وتفصيلاً.

وبعد ذلك، ليقبل من يريد أن يقول الكذب، وليتَّهم من يريد الإتهام، فبإمكان أي إنسان أن يتهم أعظم إنسان بأي شيء من دون برهان، ولكن الإنسان الشريف هو الذي يتَّهم ويدعم اتهامه بالوثائق والمستندات.

ومع ذلك فحسبنا أسوة سيرة النبي الأعظم (ص) فإن لنا به أسوة حسنة لنردّد معه قوله الخالد: (اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون)^(١).

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ألقيت في المهرجان الديني الذي أقيم في قرية عيترون - لبنان، بمناسبة ذكرى مولد النبي الأعظم (ص) في ١٠ تموز ١٩٦٦، الموافق ٢١ ربيع الأول ١٣٨٦ هـ .

* * *

(١) البحار، ج ٩٨، ص ١٦٧، رواية ٥، باب ١٧.

نفحة من ذكرى الزهراء (ع)

المثل الأعلى

قد يقول البعض: لماذا هذا الإلحاح على استعادة الذكريات الدينية في كل مناسبة والتركيز على شخصيات إسلامية معينة؟

وربما يتساءل آخرون : ألا يوجد عندنا في حياتنا الحاضرة، الزاخرة بالأحداث، المتطلعة أبداً نحو كل ما هو جديد، أليس فيها ما يشغل بال الإنسان، ويستثير فضوله، ويغنيينا عن تلمس الفكرة في أعماق التاريخ؟

لماذا كل هذا؟

هل هي قصة التقاليد التي تفرض علينا التعبير عن مشاعر القداسة وعواطفها في احتفالات تقليدية، نمارسها كما نمارس عاداتنا المتكررة، من دون أن نحصل على شيء إلا ما يحصل عليه الإنسان الذي يعيش في ضباب الأحلام؟

هل هذا هو كل شيء في القضية؟

ولنا أن نجيب. ان القصة ليست قصة تقاليد ثابتة وعادات متأصلة، وليست قضية تعبير عن شعور مبهم بقداسة التاريخ.

وإنما قصتنا نحن، جيل القرن العشرين الذي افتقد مثله الأعلى، ليشغل نفسه بأبطال الأفلام الإجرامية والعاطفية ليقلّدهم ما شاء من التقليد، وليجري وراءهم في كل مجال تاركاً وراءه كل مثله وكل قيمه في عبادة هستيرية صاخبة.

إنها قصة هذا الجيل الذي ضاع منه مثله الأعلى، لأن طبيعة الحياة المادية التي نعيشها بكل ما فيها من قسوة وجحود وحرمان، لم تعد تهيب له البطولات الروحية التي تستهوي الروح وتمتلك القلب.

إنها قضيتنا نحن الذين افتقدنا المثل الأعلى للإنسانية الكاملة في واقعنا المعاصر، فرجعنا إلى التاريخ لنتلمس فيه مثلاً الأعلى الذي تتجسد فيه أريحية الإنسان، إلى جانب طهر الملائكة، وتتمثل في حياته الداخلية والخارجية أصدق معاني العقيدة وأسمى مواقف التضحية وأروع القيم الإنسانية التي تحتضن كل ما في الحياة من إشراق وصفاء.

وهكذا نلتقي بالذكريات التاريخية، في شعور عميق بالحاجة إلى أن نتمثل ذلك الواقع الذي عاشت شخصياتنا الإسلامية في إطاره، ومثلته أصدق تمثيل.

وبهذا التقت حاجتنا إلى المثل الأعلى الذي نفتدي به، ونسترشد بخطواته، ونستنير بأنواره، بالصفوة الصافية من أهل البيت، لتكون حياتهم مثلاً أعلى لنا؛ يرمى واقعنا بالحق، ويصونه بالروح، ويشد خطاه بالإخلاص.

إستعادة القيم

وأهل البيت، في تقديسنا لهم وتعظيمنا لشخصياتهم، لا ينطلقون من صلتهم بالرسول الأعظم، وإن كانت هذه الصلة تمثل الشرف الرفيع في مقياس النسب وطبيعة الوراثة، وإنما ينطلقون من واقعهم الأصيل الذي تتمثل فيه كل معاني الرسالة وكل ملامح الرسول.

وهم لا يريدون لنا أن نقنع بحبهم وولائيتهم عن العمل بسيرتهم والأخذ بتعاليمهم، بل يريدون لنا أن نعمل لنحقق بعملا أهداف الإسلام الكبرى وغاياته المثلى.

من هنا كان الإلحاح على استعادة ذكرياتهم، يمثل الإلحاح الواعي على استعادة القيم التي يمثلونها والمعاني الحية التي يحملونها، والطهارة الصافية الخالية من كل دنس يشوه وجه الإنسانية ويلوث ضميرها، كما أراد لهم الله أن يكونوا، فكانوا كما أراد.

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾^(١).

* * *

الزهراء مظهر حي للفضائل

أما فاطمة الزهراء (ع)، التي نحتفل بذكرى مولدها، فهي مظهر حي لفضائل أهل البيت في كل كلماتها وأعمالها، في زهدا وعبادتها، في أخلاقها ومشاعرها، في إيمانها وتقواها. فقد فتحت عينها على قصة الرسالة الإسلامية، وهي تدعو الإنسانية إلى السير في طريق الله، وانطلقت بعد ذلك، لتشهد مظاهر الصراع بين الإسلام والوثنية وهو يزداد حدة وضراوة، وترقبه وهو يتعاضم ويطغى.

وكانت، في كل ذلك تتلفت إلى أبيها الرسول، وهو يقابل الموقف بوداعة الرسالة المطمئنة إلى سلامة موقفها وهدوء الرسول الواثق بربه وبرسالته، فلا يكل ولا يمل ولا يتراجع، وإنما يتلقى المصاعب والعقبات بابتسامته الرسالية السمحة التي تشرق وتمتد في إشراقها، حتى لتكاد تزرع صفاء الإيمان ونقاءه في قلوب التائهين.

وكانت الزهراء مع أبيها في كل موقف، تحس بانفعالاته وحزنه على قومه فتتألم وتستمع إلى ابتهالاته في جوف الليل، وهو يسأل ربه، في دعاء خاشع رحيم، الغفران لقومه لأنهم لم يطلّعوا على الجانب المشرق من الدعوة.. «اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون»^(٢)، فتخضع لروعة الدعاء وروحية الدعوة.

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) البحار، ج ٩٨، ص ١٦٧، رواية ٥، باب ٧.

ودرجت الزهراء في ملاعب الوحي ومشارق الرسالة، تتغذى بالإيمان المتدفق من روح أبيها، وتحتضن في قلبها وروحها خطرات الوحي وآياته حتى لتفيض روحها بروحانيته إشراقاً وشفاءً، وتتلّمس أخلاق النبوة وقيمها في أخلاق النبي وصفاته، فتنتطب بطابعها الأصيل في وعي وأصالة.. وشهدت قصة الهجرة، في هجرة أبيها إلى المدينة، ليضع قواعد المجتمع الإسلامية الجديد، وفي تضحية ابن عمها علي (ع) المنقطعة النظير في مبيته على فراش النبي (ص) غير عابىء بالخطر المحقق المحدث به. وانطلقت بعد ذلك لتعيش تجربة الهجرة فتهاجر مع من هاجر بعد ذلك للإلتحاق بالنبي (ص). وبدأت في المدينة حياة جديدة تختلف عن كل ما عاشته في مكة، فقد بدأ المجتمع الجديد يفتح على تعاليم القرآن وآياته في إقبال منقطع النظير.

وأحست بمسؤوليتها تجاه أبيها، وهو ينهض بعبء قيادة الدعوة الجديدة إلى النصر، فمضت تعطيه كل ما تملك من حنان الأمومة والبنوة، وترعى حياته بروحها وقلبها ومشاعرها الرقيقة الفياضة، حتى انطلقت كلمة النبي (ص) لتخلد لها هذا الحنان، ولتمجد هذه العاطفة، فتعطيها كنية مميزة تدلنا على مدى إحساس النبي بروعة هذا الحنان الذي عوضه عن حنان الأم الذي افتقده في طفولته، فكان يقول عنها انها: «أم أبيها».. وبهذا نعرف الدور الصامت الذي قامت به الزهراء في الجهاد، برعايتها لأبيها، وهو في أشد الأوقات حرجاً وأعظمها قسوة وقد حفظ لها الدور، والتقت عاطفته بحنانها، فكان إذا أراد السفر سلّم على من أراد التسليم عليه من أهله ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة. فيكون وجهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها.. لقد كانت تشعر أن أباهما يمثل كل شيء في حياتها كأب ونبي، ولذا فقد كانت تحسّ بأن عليها أن تبذل له كل شيء.

كانت تراقب انفعالات وجهه وخلجات نظراته، لتفهم منها كل ما يريد وما لا يريد، من دون أن يقول شيئاً أو ينهأها عن شيء.. فتبادر لامتنال أوامره ونواهيها

من دون إبطاء أو تردد، مدفوعةً إلى ذلك بعامل المحبة له كآب، والتقديس لشخصه كنبى.

وتحدثنا سيرتها أحاديث متنوعة عن ذلك.

فقد قدم النبي من سفره ذات يوم فراها وقد اشتريت ستاراً لبيتها وسوارين من فضة، فتجاوز عنها وقد عرفت الغضب في وجهه. وعرفت فاطمة أن النبي انزعج مما رأى، فنزعت الستار عن بابها وخلعت السوارين من يديها وبعثت بها مع ولديها وقالت لهما أقرنا أبي عني السلام، وقولا له ما أحدثنا بعدك غير هذا فشأنك به.. فانفرجت أسارير النبي (ص) لهذه الإلتفاتة الروحية من ابنته وهذه الإستجابة الواعية لدعوته، وما كان منه إلا أن قسم ذلك بين الفقراء الذين لا يملكون ثوباً ولا يجدون قوتاً.

وقال: «قد فعلت - فداها أبوها - (ثلاث مرات) ما لآل محمد وللدنيا، فإنهم خلقوا للآخرة»^(١).

وفي حديث آخر، انه وجد في عنقها قلادة فأعرض عنها فقطعتها ورمت بها، فقال لها: «أنت مني اثنتيني يا فاطمة»^(٢) .. ثم جاء سائل فناولته القلادة.

شخصية فاطمة من شخصية أبيها

تلك هي بعض الشواهد التاريخية التي تعطينا المثل تلو المثل على أن شخصية الزهراء منطبعة بطابع شخصية النبي (ص)، فليس بينها وبين أن ترفض الدنيا إلا إشارة النبي ورغبته لها في الترفع عن كل ما يربطها بها ويشدها إليها.

وهكذا كانت الزهراء منسجمة كل الانسجام روحياً وعاطفياً مع الخط الإسلامي الأصيل، الذي انطلق في الحياة من خلال تعاليم النبي (ص) فلم تستسلم إلى صلتها الوثيقة بالنبي (ص) أو تسكن إلى هذا الشرف العظيم.

(١) البحار، ج ٤٣، ص ٨٦، رواية ٨، باب ٤.

(٢) البحار، ج ٤٣، ص ٨٣، رواية ٦، باب ٤.

كانت تريد أن تكون ابنة محمد روحاً وأخلاقاً وتقوى وعبادةً وصلة بالله وانسجاماً مع تعاليمه، قبل أن تكون ابنة محمد جسداً وقرابة.

كانت تريد لأبيها أن يجد في بيتها المتواضع زهد الرسالة وروحانية الإيمان وبساطة العيش وقناعة النفس وصفاء الروح، كمثل حيٍّ للبيت المسلم الذي يعيش الأجواء الإسلامية الخالصة من أجل أن تنمو الأجيال الإسلامية وتتَنَفَّس في جو إسلامي خالص، وهكذا انطلقت لتكون مثلاً أعلى للمرأة المسلمة في قداساتها وطرورها وعبادتها المنقطعة النظير.

وتنطلق السيرة لتحديثنا عن الحسن البصري، حول عبادة الزهراء النموذجية فيقول: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة، إنها كانت تقوم حتى تتورم قدمها.

وتمتد القضية إلى أبعد من ذلك؛ فهي لا ترضى بعبادتها أن تختص نفسها بالدعاء أو تحتكر لذاتها القربى إلى الله. كانت تتضرع لربها من أجل الآخرين وتحاول أن تطلب الخير للمؤمنين والمؤمنات قبل أن تطلب لنفسها.

هذا ما يحدثنا به ولدها الإمام الحسن بن علي (ع) قال: رأيت أُمِّي فاطمة في محرابها ليلة فلم تزل راکعة ساجدة، حتى اتَّضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر من الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها: يا أماه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك فقالت: يا بني، الجار ثم الدار.

كانت - وهي ابنة محمد وزوجة علي - تعيش في بيتها أقصى أنواع العيش؛ فلم يكن لها إلا جلد كبش حدثت عنه أباه محمد (ص) وقالت له: والذي بعثك بالحق نبياً ما لي ولعلي منذ خمس سنين إلا جلد كبش نفترشه بالليل ونعلف عليه بغيرنا في النهار. وإن مخذتنا حشوها ليف. كانت تحدث أباه بذلك وهي راضية مطمئنة قانعة بما قسم الله. وقد شاهدها أحدهم وبين يديها شعير وهي تطحن فيه وتقول: وما عند الله خير وأبقى.

ذلك بعض من سيرة فاطمة الزهراء التي انطلقت في مرتبة القداسة بعلمها وعبادتها وإخلاصها لله ورعايتها لرسوله، حتى ارتفعت إلى مرتبة العصمة، لا تدنسها الآثام ولا تعلق بها الذنوب، تاركة لنا المثل الأعلى للمرأة التي عاشت حياتها من أجل الله وفارقت عيناها الحياة وهي تلهج بذكر الله.

والآن، هل لنا أن نعرف أننا عندما نقُدّس الصديقة الزهراء (ع) فإننا لا نقُدّس فيها انتسابها إلى الرسول فحسب، وإنما نقُدّس فيها الصفات المثلى التي تجعلها قدوة نقتدي بها ونبراساً نستنير بضياءه.

وأخيراً.. هل للمرأة المسلمة أن تأخذ عن الزهراء دروس السير في خط الإسلام، والإنسجام مع تعاليمه حتى التضحية بكل شيء.

واقع المرأة

وهل لنا أن نقف قليلاً لننظر إلى واقع المرأة المسلمة في حياتنا المعاصرة، كما ننظر إلى واقع الرجل المسلم. فقد أصبح من الملحوظ جداً أن نرى ابتعاد المسلمة عن واقع الإسلام، روحاً وحياة، كما ابتعدت عنه مظاهر وعادات، فلم تعد تربطها بالشخصية الإسلامية أي رابطة. وعادت نسخة مشوّهة عن المرأة الغربية في انحلالها وخلاعتها وفقدانها الشعور بالمسؤولية تجاه دينها وإسلامها.

إن مشكلة المرأة. أنها لا تجد التوجيه الديني الصحيح الذي يحفظ لها إيمانها وعقيديتها. ولذا فقد أمكن للآخرين أن يخدعوها عن دينها ويبعدوها عن إسلامها في عملية تزوير واحتيال.

ومشكلتنا أننا نلمح الخطر مُحْدِقاً بنا ولا نحاول أن نتجنبه ونبحث في السبل التي نستطيع بها القضاء عليه، حتى إذا حل بنا لم يكن لنا إلا الإستسلام. وهكذا دواليك حتى نفقد كل مقومات الشخصية وكل عوامل القوة.

والآن ومرة أخرى، هل لنا أن نجعل من هذه الذكرى منطلقاً للبحث والنظر في قضية المرأة المسلمة ومدى ما تستطيع أن تقوم به في سبيل الإحتفاظ بشخصيتها وتقاليدها الإسلامية؟

هل لنا أن نتساءل أخيراً، أين نحن من الإسلام؟ وأين الإسلام من سلوكنا؟ لنجعل من ذلك طريقاً لتصحيح أوضاعنا وخدمة قضايانا، لنكون على بصيرة ووعي في كل ما يمر بنا من أحداث وما نستقبل من أوضاع.

هذا ما نحب أن يكون ويتحقق، لنفهم واقعنا ونسير به في طريق الله.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

مع الدعاء في الإسلام

مع الدعاء في شهر رمضان (فلسفته وعلاقته بالحياة)

قيمة الدعاء ومفهومه في الإسلام

مع الدعاء في شهر رمضان (فلسفته وعلاقته بالحياة)

في شهر رمضان، نلتقي بالدعاء كأحد شعائر العبادة التي أرادها الإسلام - في هذا الشهر - لنشارك في خلق الأجواء الروحية التي يبني فيها الإنسان شخصيته بين يدي الله.

وقد كان الدعاء - في شرائع السماء القديمة - صلاة المؤمنين، تربطهم بالله من دون أن يصاحبها شيء مما تعارفنا عليه الآن، حتى ارتبطت كلمة الصلاة بمفهومه في اللغة العربية.

ولسنا هنا لنؤرخ للدعاء أو لنبحث مواسمه، بل نحن هنا في محاولة سريعة للتعرف على فلسفته من جهة، وعلاقته بحياتنا من جهة أخرى، لنخرج من كل ذلك بالفكرة التي تربط العبادة بالحياة عندما تربط الحياة بالله.

في بداية الحديث عن فلسفة الدعاء نجد أنه يلبي في الإنسان حاجات طبيعية ذاتية، كما يستجيب لدوافع تربوية وإيمانية، وهذا ما سنراه في ما يأتي من حديث.

الحاجة الطبيعية

إن الدعاء حاجة ذاتية طبيعية للإنسان المؤمن بالله، يحس بها في داخله تماماً كما يحس بلذعة الجوع عند حاجته إلى الطعام، وحرارة العطش عند حاجته إلى

الماء، فهو جوع الإنسان للحنان والسلام الذي يملأ قلبه بالحياة وروحه بالنور.

فهناك حالات يشعر الإنسان فيها - أمام قسوة الحياة، وضغط المشاكل وتراكم الأزمات الداخلية والخارجية - أنه بحاجة إلى التعبير عن الآلام التي تمزق ذاته، والمشاعر التي تجيش في نفسه، من دون أن يجرح كبرياءه أو يهدر كرامته.

وهنا يأتي دور الدعاء الذي يسمح للإنسان بأن يتنفس بكرامة ومحبة وللروح أن تنطلق بعزة وحنان، فيفتح قلب الإنسان على ربه، وينطلق بروحه إلى الله حيث السلام والطمأنينة، والحياة الوادعة الرضية المطمئنة التي تجعل الإنسان يغفو على هدهدات الأمل، عبر لفقات الرحمة، ونبضات الرضوان.

ان الإنسان يتحول - آنذاك - إلى طفل في روجه؛ يعيش طفولة الروح بكل بساطتها وصفائها وعفويتها، عندما يجلس بين يدي الله في إيمان محبب وديع واثق بالفوز، مطمئن للفرج.

انه يبكي ويشكو ويتألم، ويطلب ويستعطف، ويلح في الطلب والاستعطاف، ويمارس شتى الأساليب التي تمثل مظهر الضعف في الإنسان. ولكنه - مع ذلك - يبقى يحس بلذة هذا الضعف الذي يربطه بمصدر القوة المطلقة، ليستمد منه القوة على مواجهة عقبات الحياة.

انه ضعف المخلوق أمام خالقه، الضعف الوحيد الذي يشعر معه الضعيف بالاعتزاز، والزهو بضعفه عندما يقف أمام القوي.

وهكذا كان الدعاء، عامل تجديد لقوة الحياة في الإنسان، لئلا يختنق بين قسوة مشاكله وضغط كبريائه، فيتحول إلى إنسان منهار أو معقد.

الاعتراف الإيجابي

قد يستسلم الإنسان في حياته إلى رغبة ملحة تضغط عليه، وتدفعه تحت عبء

الضمير المثقل إلى الإعتراف بنواياه السيئة، وأفعاله الشريرة، وخطئه الشيطانية تجاه نفسه وتجاه الآخرين كوسيلة من وسائل تجسيد الإحساس بالذنب في داخل النفس، ليتعاضم بذلك الشعور بالندم.

وهنا يقف الإنسان بين الإعتراف للخالق، وبين الإعتراف للمخلوق.

ويأتي دور الدعاء ليحقق للإنسان اختيار الاعتراف لله لعدة أسباب:

أ - انه باعترافه لله لا يكشف سره لأحد؛ فهو مع الله مكشوف بكل أعماله ونواياه، فلا يزيده الاعتراف انكشافاً أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بينما يمثل الإعتراف للمخلوقين انسحاق شخصيته أمام افتضاح سره.

ب - ان الغاية من الإعتراف هي الوصول إلى تصحيح الخطأ وفتح صفحة جديدة، وهذا ما يكفله الدعاء الذي يمثل الإعتراف لله الذي هو الملاذ والمرجع للمغفرة والعفو والرضوان. أما الإنسان - أي إنسان كان - فلا يملك أي شيء من هذا، حتى الأنبياء والأوصياء الذين لا يملكون الشفاعة إلا لمن ارتضى الله، ولهذا فلا يحقق الإعتراف للإنسان أي هدف.

ج - انه باعترافه لله أقدر على تحليل ذاته، ودوافعه، وتفصيل أعماله وأحواله، بكل جوانبها ومظاهرها، لأنه يشعر بحرية الإعتراف بعيداً عن الملابس الذاتية والاجتماعية، بينما يشعر الإنسان أمام الإنسان الآخر بكثير من الملابس التي تحول بينه وبين الافاضة بكل شيء، مما قد لا يتحمل الآخر سماعه أو لا يرضى المعترف بإظهاره لأحد.

د - تحقيق عملية النقد الذاتي بشكل أفضل، فالإنسان يشعر - مع الدعاء - بأن إرادة التغيير نابعة من داخل الذات، لا من ضغوطات خارجية تمارس المواعظ والنصائح والتهديدات.

ان الدعاء يوحى للإنسان أنه هو - وحده - يريد أن ينقذ ذاته ليغيرها إلى الأفضل. وهذا ما يجعل المهمة أكثر انسجاماً مع النفس وأكثر التقاءً بالأهداف.

وقد حفلت الأدعية الماثورة عن أئمة المسلمين بالكثير من أساليب الاعتراف التي يبرز فيها الإنسان بكل جرائمه وشروره وخطاياہ أمام الله، في محاولة للإنطلاق منها إلى عالم من الفضيلة جديد.

أما الجانب الثاني من الحديث، وهو علاقة الدعاء بحياتنا العامة والخاصة، فنستطيع أن نفهمه إذا استعرضنا لمحة من الأدعية الماثورة، لنرى كيف ساهمت بالإيحاء بالمعاني الخيرة، والخروج بالدعاء عن أن يكون مجرد عبادة روحية خالصة لا ترتبط بالحياة من قريب أو بعيد، إلى عبادة تحاول أن تجعل من أجواء الروح طريقاً لتهديب أجواء المادة.

١ - تحمل المسؤولية

الشعور بالمسؤولية تجاه الجانب السلبي من تصرفات الإنسان، تماماً كما هو الجانب الإيجابي منه. وقد نلمح ذلك واضحاً في بعض فقرات دعاء الإمام زين العابدين في الاعتذار عن تبعات العباد والتقصير في حقوقهم:

«اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أسدي إليّ فلم أشكره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوقره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره، ومن كل إثم عرض لي فلم أهجره، أعتذر إليك يا إلهي منهن اعتذار ندامة يكون واعظاً لما بين يدي من أشباههن».

إننا نجد من خلال هذه الفقرات، في الموقف السلبي تجاه حالات الظلم والحرمان والمعروف ونحوها، خطيئة ينبغي للإنسان أن يعتذر منها - كما يعتذر من سائر خطاياہ - لأن الموقف السلبي يتحول إلى موقف إيجابي لمصلحة الظالم ضد مصلحة المظلوم، ويؤدي إلى زهد أهل المعروف بالمعروف، وإلى غير ذلك من

الحالات التي لا يجوز للإنسان أن يقف فيها موقف الحياد أو اللامبالاة في أي مظهر من مظاهر الحياة التي تتمثل في معركة الصراع بين الخير والشر.

٢ - استمداد العون الإلهي

الإستعانة بالله على محاربة غريزة الظلم والاعتداء على الآخرين، بالروح نفسها التي يطلب فيها الاستعانة به على دفع ظلامة الآخرين. وقد نلمح ذلك في فقرات متفرقة من الصحيفة السجادية:

«اللهم فكما كرهت لي أن أَظْلِمَ فَقِنِي من أن أَظْلَمَ».

«اللهم اكسر شهوتي عن كل مَأْثَمٍ، وَأزِرْ حُرْصِي عن كل محرم، وامنعني عن أذى كل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة».

«ولا أَظْلَمَنَّ وَأنتَ مطيقٌ للدفع عني، ولا أَظْلِمَنَّ وَأنتَ القادر على القبض مني».

انه يستعدي قدرة الله على نفسه، ويستعطفها أن تحمي الآخرين من نزوات قوته ومن نزعات أنانيته. انه يبلغ قمة السمو الإنساني عندما يرفض الظلم من نفسه كما يرفضه من الآخرين، إنسجاماً مع الفكرة التي ترفض الظلم كمبدأ من دون النظر إلى طبيعة الظالم أو شخصية المظلوم، ومع الفكرة الدينية التي تقول: «أحبب لأخيك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها، فلا تَظْلِمَ كما لا تحب أن تُظْلَمَ».

٣ - مواجهة العقد

التركيز على حقيقة إنسانية ترى الظلم نتيجة طبيعية لعقدة ضعف، تتحكم في الظالم فتدفعه إلى التنفيس بالانتقام من المظلوم. الأمر الذي يجرد الظالم من وهم العظمة الذي يحاول أن يحيط به نفسه، ليغطي عوامل الضعف داخل نفسه. وقد نلمح ذلك في دعاء ليلة الجمعة:

«يا رب، وقد علمت انه ليس في حكمك ظلم، ولا نقمتك عجلة، وإنما يعجل من

يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً».

فאלله لا يظلم لأنه قوي. أما الآخرون فإنهم يظلمون لأنهم يخافون الناس ويخافون الحق، فيبادرون إلى البغي والاعتداء لتغطية هذا الضعف والتمويه على الباطل.

٤ - روحية العطاء

الإرتفاع بالأخلاق إلى المستوى الذي يجعلها تنطلق من داخل الإنسان عفويًا، كما هو النور من الشمس والماء من ينبوع، من دون مقابل، لئلا تتحول المسألة إلى مبادلة تجارية.

أن يشعر الإنسان بالجذور الأصلية للخير تمتد في داخل نفسه، وتدفعه للخير من أجل الخير من دون تفكير في حساب الربح والخسارة على المستوى المادي، انسجاماً مع الفكرة الإسلامية التي تقول: «صِلْ من قطعك، واعفُ عمن ظلمك، وأعطِ من حرمك» وهذا ما نراه في دعاء مكارم الأخلاق:

«اللهم وسدّدني لأن أعارض من غشّني بالنصح، وأجزّي من هجرني بالبر وأثيبَ من حرمني بالبذل، وأكافيَ من قطعني بالصلة وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة وأغضي عن السيئة...».

٥ - الاندماج الروحي

الإحياء بضرورة الاندماج الروحي بالطبقات المحرومة من الفقراء والمساكين، والتعاطف معهم كخلق ذاتي، تنطلق فيه الممارسة من محبة النفس الذاتية لا من طبيعة الواجب المفروض من أعلى. ثم الانسجام معهم بالسيطرة الدائمة الواعية على الإنفعالات النفسية، التي تحدث للإنسان من خلال اصطدامه بإطارهم الضيق الذي

يجعلهم يفقدون الكثير من أصول اللياقة واللباقة تبعاً لقسوة ظروفهم وخشونة واقعهم.

وهذا ما تعبر عنه هذه الفقرة من أدعية الصحيفة السجادية:

«اللهم حَبِّبْ إِلَيَّ صحبة الفقراء، وأعِنِّي على صحبتهم بحسن الصبر...».

٦ - محاربة الكسل

الايحاء الذاتي للمؤمن بأن البيئة التي يسودها الكسل، وتنتشر فيها البطالة تبعده عن الله، كما تبعده عن الحياة الجادة الهادفة، الأمر الذي ينبغي له معه أن يرفض تلك البيئة، ويتحول إلى بيئة أخرى يسودها العمل والجد والإجتهد، كما نجده في دعاء شهر رمضان في معرض تعداد الأسباب التي تبعده عن الله:

«أو لعلك رأيتني ألف مجالس البطالين فيبيني وبينهم خليتني...».

٧ - مكارم الأخلاق

التركيز على تغيير الانحراف في أخلاق الإنسان، سواء أكان الانحراف في داخل النية، فيتمثل في التغيير في تحولها إلى نيات طيبة، أم كان في طبيعة الكلمة فيتمثل في تحويلها إلى كلمات خيرة، أم في طبيعة العلاقات الإنسانية التي تركز على الرغبة والرغبة، فيتمثل في تغييرها إلى علاقات تركز على أساس الكفاءة الذاتية والقيمة الواقعية. وسنجد كل ذلك متمثلاً في دعاء مكارم الأخلاق:

«اللهم واجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك، وتفكراً في قدرتك، وتديباً على عدوك، وما أجري على لساني من لفظة فحش أو هجر أو شتم عرض، أو شهادة باطل، أو اغتيال مؤمن غائب، أو سب حاضر، وما أشبه ذلك، نطقاً بالحمد لك، وإغراقاً في الثناء عليك، وذهاباً في تمجيدك، وشكراً لنعمتك، واعترافاً بإحسانك وإحصاءً لمنك...».

«اللهم وصِّنْ وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فاسترزق أهل رزقك، واستعطي شرار خلقك فأبتلى بحمد من أعطاني وذمَّ من منعني وأنت من دونهم وليُّ الإعطاء والمنع».

٨ - التوازن الذاتي

الإلحاح على مراقبة النوازع الداخلية في النفس، لإبقائها على طبيعة التوازن الذاتي وعدم السماح بطغيان العوامل الخارجية التي تتمثل في المدح الذي يكال للإنسان من دون حساب، وللجاه الذي يحصل عليه، أو العزة التي ينالها نتيجة أعماله وأخلاقه:

«اللهم لا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها».

٩ - خط الاستقامة

الإصرار على المحافظة على الحق مع الأولياء والأعداء، وعدم الانجراف مع تيار العاطفة، في إخضاع السلوك للعواطف والأغراض الشخصية والنزعات الطارئة:

«اللهم وارزقني التحفظ من الخطايا، والاحتباس من الزلل في الدنيا والآخرة في حال الرضى والغضب، حتى أكون بما يرد عليّ منهما بمنزلة سواء عاملاً لطاعتك، أو مؤثراً لرضاك على ما سواهما، في الأولياء والأعداء حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري، ويأس وليي من ميلي وانحطاط هواي...».

وبعد.. فهذه نماذج من الأدعية الإسلامية التي لم يحاول منشئوها أن يجعلوا الإنسان يبتعد بها عن حياته، بل حاولوا أن يشددوا معها على صلته بالحياة، ويرشدوه إلى المجالات التي يستطيع أن ينتبه فيها إلى مواضع الخطأ فيصلحها، وإلى مواطن الانحراف فيصححها، وإلى زيف النيات فيخلصها من الشوائب. الأمر

الذي يجعلنا نستوحي منها الفكرة التي تقول: ان الإسلام يريد من المسلم أن لا يصرف بوجهه عن حياته حتى وهو بين يدي الله، بل يريد منه أن يندمج بالحياة بكل قوة، يجسد كل إرادات الله وكل تعاليمه التي تغدو الأرض معها جنة مصغرة، نتعلم فيها كيف نمارس نعيم الله في الدنيا، قبل أن نعيش معه في الآخرة.

وفي ختام الحديث، نريد للإنسان المسلم في هذا الشهر المبارك أن ينطلق مع هذه الأجواء التي تمثل السمو في الأخلاق والروح والفكر، ليحلّق بأجنحة الإيمان إلى المدى الذي يلتقي فيه بمعاني المحبة والتسامح والتعاون وبناء الحياة على أساس الإيمان، من أجل مواصلة السير في طريق الله، طريق الحياة الرضية المرضية الوداعة المطمئنة، التي لا تستجيب إلا للنور، ولا تنطلق إلا مع الخير، حياة الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

* * *

قيمة الدعاء ومفهومه في الإسلام

قال الله سبحانه في كتابه الكريم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢).

* * *

مع هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات التي عالجت موضوع الدعاء في القرآن الكريم، نشعر بطبيعة الأهمية التي يمثلها الدعاء في علاقة الإنسان بربه، وارتباطه بقضية الإيمان والعقيدة.

الرعاية الإلهية

ففي الآية الأولى: نواجه أسلوب الرفق والرحمة والحنان، الذي يمس شغاف القلب بحلاوة فيحس الإنسان ببراعة الطفولة وصفائها تزحف إلى قلبه في وقفته

(١) سورة البقرة: ١٨٦ .

(٢) سورة المؤمن: ٦٠ .

الخاشعة أمام ربه، فيشعر بالرعاية الإلهية وهي تلامس روحه وتمس ضميره وتدعوه إلى أن يفتح قلبه بكل ما فيه من هموم وآلام، وإلى أن يعرض حياته بكل ما فيها من مشاكل وعقبات، ويرفع صوته بكل ما لديه من غايات وحاجات، ليجد الله قريباً منه، يسمع دعاءه ويعلم نوازعهِ ويحيط بشؤونه وشجونه فيسكن ويطمئن ويخفف من أعباء ذاته وأثقالها.

الخط الفاصل

وفي الآية الثانية: نقف مع أسلوب الحزم الذي يجعل من موضوع ممارسة الإنسان الدعاء أوعدم ممارسته قضية الاعتراف بالعبودية لله جل شأنه، أو التمرد عليها، ويوحى للعبد أن ذلك هو الخط الفاصل بين الإيمان والكفر، وبين الجنة والنار.

ففي الدعاء، يجد الإنسان ربه مع مشاعره وحاجاته، بينما لا يواجه الإنسان في حالة التمرد عليه إلا الحرمان من فضله في الدنيا ومواجهة العقوبة في الآخرة.

أهمية الدعاء

وربما نجد فكرة الأهمية القصوى للدعاء في أوضح دلالتها في الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾^(١) التي تحدد رعاية الله لعباده بمقدار ارتباطهم به بالدعاء.

وهنا نسأل: ما هو السرف في ذلك كله؟

وكيف يمكن لطقس من الطقوس الدينية أن يرقى إلى المرتبة التي تتحدد فيها علاقة الإنسان بربه على أساس ممارسته أو عدم ممارسته؟

ولكن القضية - في ما يبدو لنا - ونحن في محاولة الإجابة على هذا السؤال،

(١) سورة الفرقان: ٧٧ .

ليست قضية طقس عبادي مجرد أو تقليد ديني شكلي. بل الدعاء هو التعبير الحي عن شعور الإنسان بحاجته الدائمة إلى الله في جميع أموره، واعترافه الخاضع بصفة العبودية التي تتمثل في الإحساس بالارتباط العميق بالله والفناء فيه، بحيث لا يحس معه بوجوده ولا يشعر بكيانه.

ومن البديهي أن الإيمان الحي لا يتحقق بدون هذا الشعور وهذا الإحساس، إذ لا معنى للإيمان بالله إلا الإحساس بالقدرة الخالقة التي لا تقف عند حد، والقوة المطلقة التي لا تنتهي إلى غاية، في مقابل عجز الإنسان وضعفه الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بالله.

وعلى ضوء هذا، فإن حاجتنا إلى الدعاء تتمثل في حاجتنا إلى التعبير عن هذا الإيمان، والعمل على استمراره داخل النفس حياً نابضاً بالحياة، يجدد للإنسان إيمانه ويركز ثقته بالله.

ولهذا ورد في الحديث أن «الدعاء مخ العبادة»^(١) لأنه التعبير الحي عن معنى العبودية والخضوع والخشوع الذي يتمثل في العبادة، بدونه تصبح العبادة جسداً لا روح فيه.

وبذلك يخرج الدعاء عن أن يكون طقساً تقليدياً يمارسه الإنسان بدون فهم أو وعي، بل بفعل العادة الدائبة.

تلك هي بداية الدعاء في مفهوم الأديان التي التفت كلها في تقديس الدعاء وإعطائه هذه الأهمية عندما التفت في تأكيد الإيمان بالله، وقد نص القرآن الكريم على دعاء نوح وإبراهيم وموسى وأيوب وزكريا وغيرهم في ساعات الحرج والضيق، وفي حالات الابتهاال والانقطاع، كأسلوب عملي يوحى للناس بقيمة هذه العبادة في علاقة المرء بربه، وبأصالتها في مفهوم الإيمان، حتى في حياة الأنبياء الذين يمثلون القمة الإنسانية في القرب إلى الله..

(١) البحار، ج ٩٣، ص ٣٠٠، رواية ٣٧، باب ١٦.

قيمة الدعاء في الإسلام

وانطلق القرآن الكريم بعد ذلك ليؤكد هذه العبادة في جميع حالات الإنسان، حتى لا تكون علاقة الإنسان بالله علاقة منفعة مادية، فنراه في الوقت الذي يحثُ الإنسان على أن يدعو خوفاً وطمعاً، يطلب منه في آية أخرى أن يدعو مخلصاً له الدين، في دعاء الإخلاص والتوحيد الخالص. ويشير في بعض الآيات إلى نماذج من الناس لا يعرفون الدعاء إلا في أوقات الشدة حتى إذا كشف الله عنهم ذلك نسوا الله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

ونخرج من ذلك كله بفكرة واحدة هي أن قيمة الدعاء في حياة الإنسان لا تنطلق من شعوره بالحاجة الأنية المحدودة، بل تمتد لتشمل الشعور العميق بالصلة الروحية التي تشد الإنسان إلى ربه في محبة واطمئنان.

وبدأت السنة النبوية الشريفة وأقوال الأئمة الهداة من أهل البيت، تعطي الدعاء دوراً حيوياً في حياة الإنسان العامة؛ ففي بعض هذه الأحاديث دعوة إلى أن لا يقتصر الإنسان بالدعاء لنفسه، بل يعمل على أن يدعو لأخيه بظهر الغيب، ليحصل على النتيجة لنفسه أكثر مما لو دعا لنفسه؛ وفي ذلك إحياء خفي بضرورة الشعور بالأخوة التي تربطه بالآخرين، حتى ليحس - وهو بين يدي الله - بحاجات أخوانه قبل أن يحس بحاجته الخاصة. ولعلنا نجد ذلك واضحاً في النصوص الدينية كما جاء في حديث الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع): ص ٣١٤

«إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب أو يذكره بخير قالوا: نِعَمْ الْآخِ أَنْتَ لِأَخِيكَ تَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْكَ وَتَذْكُرُهُ بِالْخَيْرِ، قَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ مِثْلِي مَا سَأَلْتَ لَهُ وَأُثْنِي عَلَيْكَ مِثْلِي مَا أَثْنَيْتَ عَلَيْهِ وَلَكَ الْفَضْلُ عَلَيْهِ».

(١) سورة الزمر: ٨ .

وقد يتسامى هذا المعنى فيبلغ مستوى الغيرية المطلقة التي تجعل الإنسان يهتم بغيره أكثر مما يهتم بنفسه، فقد روي عن الإمام الحسن بن علي (ع) أنه يقول عن أمه فاطمة الزهراء (ع): كانت تقضي الليل بالعبادة والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ولا تدعو لنفسها فسألها لم لا تدعين لنفسك؟ فقالت: يا بني، الجار ثم الدار.

أدعية أهل البيت وعلاقتها بالحياة

وتطورت التجارب العملية للدعاء في أدعية أهل البيت ولا سيما دعاء زين العابدين (ع) في الصحيفة، فاتجهت إلى الإنفتاح على الحياة بكل ما فيها من أحداث وأوضاع وهموم ومشاكل، وقضايا تتصل بحياة الناس من الظلم والعدل والحق والباطل والسلم والحرب والفقر والغنى والمحبة والبغض وغير ذلك.

وقد كانت غاية تلك المحاولة أن تجعل من الدعاء مدرسة تربط الإنسان بالحياة وتربط الحياة بالله، وتؤكد المفهوم الإسلامي الذي لا يجعل من حياة الإنسان معنى مادياً بعيداً عن الروح بل يريد أن يوجد التمازج الحي بين الروح والمادة في وحدة رائعة، تنسجم مع اتصال الجانب الروحي بالجانب المادي في كيان الإنسان.

فلم ترد للإنسان أن ينهزم وينعزل عن وجوده في عملية هروب سلبي بحجة الانقطاع إلى الله والابتعاد عن المادة، بل أرادت له أن يجعل من صلته بالله حافزاً إيجابياً، يدفعه إلى العمل من أجل تحقيق إرادة الله في بناء الحياة بشكل أفضل.

وكمثال على ذلك نجد في دعاء الإمام زين العابدين (ع) في كل صباح ومساء إحساس الإنسان - وهو يدعو - في بداية الدعاء بالوحدة التي تربط بينه وبين الموجودات في العبودية لله والانقياد لإرادته والخضوع لسننه وتقاديره «أصبحنا وأصبحت الأشياء كلها بجملتها لك، سماؤها وأرضها وما بَنَتْ في كل واحد منهما ساكنه ومتحركه ومقيمه وشاخصه وما علا في الهواء وما كُنَّ تحت الثرى».

ثم يشعر برقابة الزمن عليه، فيخيل إليه انه يرصد حركاته ويسجل أعماله

ويحصيها عليه، ليقدم الشهادة بها أمام الله بعد أن يودعه بمدح أو ذم «اللهم وهذا يوم حادث جديد، وهو علينا شاهد عتيد إن أحسنأ ودُّعنا بحمد وإن أسأنا فارقنا بدم».

ثم يثير في نفس الإنسان محاولة التخطيط الواعي لحركة العمل اليومي ويلخصها في «استعمال الخير وهجران الشر وشكر النعم ومتابعة السنن ومجانبة البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحيطة الإسلام وانتقاص الباطل وإزالة ونصرة الحق وإعزازه وإرشاد الضال ومعاونة الضعيف وإداراك اللهيء» وبذلك يحدد للإنسان طريقه وأهدافه ومجالات انطلاقه.

وفي هذا الدعاء، نجد النزوع إلى الأفضل في حركة الإنسان في الزمن «واجعله أيمن يوم عهدناه وأفضل صاحب صحبناه وخير وقت ظللنا فيه» والتعاطف معه حتى ليحس الإنسان معه، كما يحس تجاه الصاحب الذي يصحبه فلا يقابله إلا بكل خير.

ونجد في دعائه في النظر إلى أصحاب الدنيا محاولة لتحديد مقاييس التقويم والتقدير في ميزان الإسلام «واعصمني من أن أظن بذي عُدْم خساسة أو أظن بصاحب ثروة فضلاً، فإن الشريف من شرفته طاعتك والعزيز من أعزته عبادتك».

وفي بعض الأدعية نجد المحاولة التي تجعل من السلوك السلبي تجاه الظالمين وعدم نصرة المظلومين عليهم سبباً للاعتذار، كالجانب الإيجابي في مساندة الظالمين «اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظلمت بحضرتي فلم أنصره». وهكذا يتحول الدعاء إلى عنصر تربوي وتوجيهي يثير في نفس الإنسان الشعور بالقيم والإحساس بالمعاني الخيرة في الكون ومسؤوليته تجاه ذلك كله بالعمل على تجسيدها واقعاً حياً، يتحرك في الحياة ليحركها في سيرها الحثيث نحو المستوى الأفضل. كل ذلك في أسلوب المناجاة الذاتية التي يمارسها الإنسان - بين يدي الله - فتنفذ معانيها إلى مشاعره وأحاسيسه في بساطة وعفوية، دونها بساطة النور وعفوية الحياة.

ولعل قيمة هذا الأسلوب - من الوجهة التربوية - تكمن في ان الإنسان لا يعيش في أجواء وعظية تأتيه من الآخرين - من فوق - فتكون ثقيلة على نفسه ككل شيء يأتيه من الخارج، بل يظل الإنسان - مع الدعاء - في مناجاة ذاتية مطمئنة، يحدد الإنسان فيها مواقفه ويركز حياته على دروب القيم ويقدم حسابه إلى الله في رجاء وابتهاال.

وعلى ضوء ما قدمنا، نرى أن علينا أن ندرس الأدعية الإسلامية، ولا سيما أدعية الصحيفة السجادية، عندما نريد أن ندرس وسائل التربية، في الجوانب الروحية من الدين، لأنها تمثل علاقة الجانب الروحي بالحياة، وتحطم المفهوم الخاطيء الذي يجعل من الروح عنصراً مقابلاً للمادة، لا يجتمع معها في ميزان واحد؛ وبذلك نحصل على فهم موضوعي شامل لمسألة الدين والحياة وموقف الإنسان بينهما في مجال النظرية والتطبيق.

الدعاء لا يمثل الاتكالية

بقي علينا جانب أصيل من جوانب الدعاء، لا بد لنا من إثارته في ختام حديثنا هذا.

وهو أن فكرة الدعاء لا تمثل الأسلوب الاتكالي، الذي يلجأ الإنسان فيه إلى الله في أموره ومشاكله، من دون أن يتقدم خطوة عملية في محاولته الذاتية في السعي لحل هذه المشكلة، فليس المفترض في الدعاء أن يتولى الله قضاء حاجات الإنسان بشكل مباشر، مع قدرة الإنسان على مباشرة هذه الحاجات وامتناعه عن الحركة منتظراً المعجزة التي تأتي إليه من السماء.

ان هذا المفهوم عن الدعاء خاطيء جداً، لأن الدين لا يؤمن بالمعجزة في حياة الإنسان العامة، وإنما يؤمن بقانون السببية الذي أودعه الله في الأشياء فجعل لكل شيء سبباً، سواء في ذلك الحياة والموت والصحة والمرض والفقر والغنى والنصر

والهزيمة، ودعا الإنسان إلى الأخذ بهذه الأسباب، والاعتماد على الله بعد استكمال ذلك كله وإذا عرضت له مشكلة في الطريق أوخاف انحراف السبب إلى غير وجهته. إن له أن يدعو الله بعد ذلك في كلمة تقول: «اللهم هذا ما أستطيع فأعني على ما لا أستطيع» وهنا الاجابة الحكيمة لتنفذ الإنسان من شعوره بالضعف أمام القوى الخفية في إطار المجهول.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة التي اعتبرت الإنسان الذي لا يأخذ بالأسباب الطبيعية للأشياء، كالعامل للرزق والدواء للمرض والقوة للنصر، ممن لا يستجاب دعاؤه.

وبعد، فهذا بعض الحديث عن الدعاء في الإسلام، حاولنا أن نضع أيدينا على بعض جوانبه، لنكتشف فيها أحد العناصر الإيجابية التي تحرك في الإنسان المسلم روح الإيمان وطبيعة العمل ونزعة التفاؤل في الحياة، عندما يشعر الإنسان بأن الظروف التي تحيط به ليست كل شيء لتبعثه على اليأس عندما تُظلم وتضيق، بل الله وراء كل شيء، يفتح للإنسان المخرج من حيث لا يجد ولا يشعر ويرزقه من حيث لا يحتسب.

ونحن الآن في هذا الشهر المبارك في موسم الدعاء، فلنحاول أن نجعل منه أداة حركة وعنصر عمل، وباعت يقظة وإيمان^(١).

* * *

(١) أذيع هذا الحديث من محطة الاذاعة اللبنانية في شهر رمضان ١٣٩١ هجرية. وقد أُلقيت هذه الخطبة في المهرجان الديني الذي أقامته جمعية أسرة التآخي في النادي الحسيني في برج حمود ليلة الأحد ٢٣ جمادي الثانية ١٣٨٦ هـ الموافق ١٠/٩/١٩٦٦ م.

فهرس الموضوعات

- ١ - مقدمة المؤلف
- ٥ - بين الفكرة والعمل
- ٧ - العمل أولاً
- ١٧ - التجربة أبدأ
- ٢٩ - مشاريع دينية بلا دين
- ٣٩ - ما خالف كتاب الله فهو زخرف
- ٤٧ - لنحترم قدسية الكلمة
- ٥٣ - شهر رمضان أجواؤه - معطاته
- ٥٩ - تقاليدنا وأعيادنا
- ٦٣ - قضية وأسلوب
- ٦٥ - مجتمعنا والقرآن
- ٦٩ - الكتاب مسؤولية المؤلف والناشر
- ٨٣ - الإنسان المسلم أمام قضايا
- ٨٥ - أزمة الإنسان المسلم في ظل التشريعات غير الإسلامية
- ٩٥ - واقع المسلمين الفكري في بساطة العاطفة
- ٩٩ - الإنسان المسلم بين الجهاد الداخلي والجهاد الخارجي
- ١٠٥ - في الطريق إلى الشخصية الإسلامية
- ١١١ - الإنسان المسلم والمشكلة الإسلامية

- ١١٧ الإنسان المسلم بين أساليب الحق وأساليب الباطل
- ١٢٥ أزمة الإنسان المسلم أمام حالات الشك
- ١٣١ الإنسان المسلم أمام نموذجين للعمل
- ١٣٧ قولوا لهم
- ١٤٥ **دراسات إسلامية**
- ١٤٧ أي دراسات إسلامية نريد
- ١٥٧ منهج الدراسات الإسلامية بين السند والمتن
- ١٦٥ التجزيئية في الدراسات الإسلامية
- ١٧٥ لندرس تاريخنا بوعي
- ١٧٩ محاولة جديدة لدراسة التاريخ الإسلامي
- ١٩٣ مع المؤرخين في قصة المبعث النبوي
- ٢٠١ حول دراسة حياة الأئمة من أهل البيت (ع)
- ٢٠٥ حول حديث الإمام الصادق (ع)
- ٢١٥ **مشاكل إسلامية**
- ٢١٧ من مشاكل الفكر الإسلامي المعاصر
- ٢٢١ مشكلة الفراغ العقائدي
- ٢٢٧ لندرس مشاكلنا بصراحة
- ٢٣١ أشواك في الطريق
- ٢٣٧ **مع الذكريات الإسلامية**
- ٢٣٩ ذكرياتنا الإسلامية وموقفنا منها
- ٢٤٧ ذكرى النبي الأعظم محمد (ص) وما نستفيد منه
- ٢٥٥ لتكن حفلاتنا مدارس تثقيفية
- ٢٥٩ في ذكرى الرسالة والرسول

- ٢٦٩ - في ظلال ذكرى المولد
- ٢٧٧ - درس من ذكرى مولد النبي (ص)
- ٢٩١ - نفحة من ذكرى الزهراء (ع)
- ٢٩٩ - مع الدعاء في الإسلام
- ٣٠١ - مع الدعاء في شهر رمضان (فلسفته وعلاقته بالحياة)
- ٣١١ - قيمة الدعاء ومفهومه في الإسلام

